بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

العدد الثالث والسبعون ● السنة التاسعة عشرة ● ربيع سنة ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

المراسلات والاتصالات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم. ص.ب: (٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥)

هاتف: ٢١٣١١ (٠٠٩٨٢٥١) فاكس: ٢٩١٣١٠٠ (٠٠٩٨٢٥١)

موقعنا على الانترنت

www.ahlulbaytportal.com

البريد الإلكتروني للمجلة: Tahrir-thaqalayn@hotmail.com

البريد الإلكتروني للمجمع: info@ahl-ul-bayt.org

رسالة الثقلين

مجلة إسلامية جامعة

- تعنى بالدراسات والنتاجات الفكرية، خصوصاً التي تصبُ في خانة الدّفاع عن حريم القرآن الكريم والنبي ﷺ الأمين، وآل بيته الطاهرين، في جميع الأبعاد المختلفة.
- تستقبل رسالة الثقلين نتاجات العلماء والمفكرين المشتملة على الشروط التالية:
  - أن تكون خاضعة لأسلوب البحث العلمي منهجاً ومنهجيةً ومضموناً.
  - أن لا تكون قد نُشرت سابقاً.
  - أن لا تكون عملاً مكرّراً، بل لا بدّ أنْ تحتوي على شيءٍ من التّجديد والحداثة. والأولويّة دائماً للدّراسات الفكريّة المستحدثة.
  - أن لا تنقص عن عشر صفحات، ولا تزيد على الخمسين، والصّفحة الواحدة تتضمّن (٢٥٠) كلمة.
  - أنْ تُرفق المقالة بخلاصة لها في صفحةٍ واحدة.
- الآراء الواردة في ما يُنشر لا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع أو المجلة.
- تسلسل الموضوعات المنشورة يخضع لاعتبارات فنّية محضة.
- لا تعاد المقالات المرسلة إلى المجلة، نُشرت أم لم تنشر.

محتويات العدد

□ كلمة التحرير

*** الربيع العربي، هل يكون خريف القـرآن والقـدس والمقدسات؟!**

التحرير **٤**

□ ملف العدد: قضايا الأمة الاستراتيجية

*** الأمة الإسـلامية وقضـاياها الاسـتراتيجية، علـى ضوء كلمات الإمام الخامنئي** دام ظله

إعداد: علي أحمد الحسن **١١**

*** ميادين الجهاد ومقومات إدامته**

أ. شهاب الدين محمد الحسيني **٣٨**

□ دراسات فكرية

*** زبدة البيان في نقد أسطورة تحريف القرآن**

السّيّد أحمد صولي الحسيني **٦٢**

*** النبي آدم** عليه السلام **بين العصمة وظاهر القرآن/ القسم الأول**

السيد حسين إسماعيل **١٠٣**

*** التسعير بين الرؤية الإسلامية والليبرالية**

د. علي زعيتر **١٢٧**

*** مصطلحات فكرية عامة، القسم الثاني**

إعداد: المحرر الثقافي **١٤٥**

□ في رحاب بقية الله

* الانتظار رؤية حضارية

..... الشيخ علي الأسدي ١٦٨

* فطرية العقيدة المهدوية

..... الشيخ معين دقيق ١٨٨

□ قضايا المسلمين في العالم

* إطلالة على واقع الوحدة الإسلامية في ساحل العاج

..... الشيخ علي ناصر ١٩٩

* الإسلام في الأرجنتين، أندلسيون يعثرون على الحقيقة الضائعة في الأرجنتين

..... د. نضير الخزرجي ٢١٧

□ وجهة نظر

* طامّة السلفية، نعوذ بالله من سبات العقول

..... أ. هلال آل فخر الدين ٢٢٥

* مصير الشعب السعودي

..... د. محمد عبد الكريم ٢٣٨

* الكيان الصهيوني والإرهاب العلمي

..... أ. أحمد بابكر عبد الرحمن ٢٤٤

المجمع العالمي لأهل البيت

المشرف العام
الشيخ محمد حسن اختري

تصدر عن
المعاونية الثقافية ـ إدارة المجلات

رئيس التحرير
الشيخ معين دقيق

مدير التحرير
الشيخ علي محسن

العدد الثالث والسبعون
السنة التاسعة عشرة
ربيع سنة
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م

المطبعة: مجاب ـ طهران
☎ ٠٠٩٨ ـ ٣٦٦٧٥٢٩٥

الربيع العربيّ

هل يكون خريف القرآن والقدس والمقدّسات؟!

التحرير

بالأمس عادت جنود الظلام وجيوش الاستكبار الأمريكيّ لتنتهك حرمة القرآن الكريم من جديد..

بالأمس رأت عيوننا المصحف الشريف الذي أُنزلت آياته على قلب نبيّنا الكريم ' تعبث به أيدي الإجرام، المسمّى في عصرنا هذا ـ وللأسف ـ (ديمقراطيّة)!!

وبالأمس ـ أيضاً ـ انتُهكت حرمة المسجد الأقصى من جديد.. واقتحمه جنود الصهاينة والأنجاس المتطرّفون من المستوطنين المحتلّين لأرض فلسطين ليعيثوا فساداً فيما كان قبلة المسلمين الأُولى، ومسرى رسول الله ' ، ومهوى أفئدة المجاهدين على امتداد التاريخ، وعاصمة وملهمة الخطّ الإسلاميّ المقاوم..

وكالعادة ـ أيضاً ـ لم يصدر من أمّة (المليار ونصف المليار مسلم) شيء يُذكر..

اللّهم إلّا تصريحات قليلة هنا أو هناك تشجب هذه الجريمة، وبيانات وخطابات وكلمات تستنكر هذا الخطب الجلل، وبنبرة عالية ومرتفعة، (ولكنّها طبعاً لا ترتفع فوق مستوى الحدث)، يرافقها احتجاجات ضئيلة متواضعة ومحدودة تنطلق في الشارع في هذا البلد أو ذاك لتثير بعض الصرخات وترفع بعض الشعارات والهتافات..

هذا فقط.. ولا شيء أكثر منه.. حتى كأنّنا لسنا معنيّين أصلاً بما جرى...

ومن يدري؟! فلعلّ ما جرى أصلاً قد جرى على كوكب المرّيخ ـ مثلاً ـ، وإذ كان كذلك، فليس عليه أن يكدّر صفو عيشنا أو يجعلنا نغيّر شيئاً في روتين حياتنا!! ومن يدري أيضاً، فلعلّ حديث: «**من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء، ومن شهد رجلاً ينادي: يا لَلمسلمين، فلم يجبه، فليس من المسلمين**»[1]، لا يشملنا، ولا يعنينا، ولسنا نحن المخاطبين به!!!

نعم، ليس هذا القعود والتخاذل والخنوع والاستسلام بالشيء الجديد..

فَلَكَم انتُهكت مقدّسات المسلمين من قبل، ولَكَم عبثت بها أيدي العابثين والطامعين، وجلسنا ـ نحن المسلمون ـ لا نحرّك ساكناً:

ـ يكتفي بعضنا بالنظر في وجوه بعض، والتأمّل للحظاتٍ قصيرة سريعة، ثمّ متابعة كلٍّ منّا حياته اليوميّة المعتادة وكأنّ شيئاً لم يكن!

ـ ويتقدّم بعضنا الآخر عن ذلك بخطواتٍ؛ إذ ينشغل طيلة يومه ونهاره ـ مثلاً ـ بالاستغفار والاسترجاع والحوقلة والتحسّر والتأسّف والبكاء على أطلال أمجاد الماضي التليد!

ـ فيما يكاد بعضنا الآخر لا يسمع ـ أصلاً ـ بهذه الانتهاكات والاعتداءات السافرة؛ لانشغاله بهمومٍ أُخرى (أكثر أهميّةً)! كأن يكفّر بعضنا بعضاً، أو يفجّر بعضنا مساجد بعض، أو يُضعف بعضناً بعضاً، أو ينتصر لمذهبه على مذهب الآخر، وهكذا.... وأمّا تلك الأمور الأُخرى ـ (الأقلّ أهمّيّةً)!! ـ كالمصالح

الإسلاميّة الكبرى، وهموم الأمّة كأمّة واحدة، ومواجهة الظلم والفساد، ومعالجة ظواهر الفقر والجهل وتفشّي الأمراض و..، والتصدّي لهجمات الأعداء الحاقدة التي لا تستثني أحداً، فهي أمور تفصيليّة جزئيّة لا يسعنا أن نفعل شيئاً تجاهها، وبالتالي: فليس علينا أن نشغل أنفسنا بها!!

هذا كلّه ـ على فداحته ـ لا جديد فيه كما قلنا..

وإنّما الجديد في هذه الآونة الأخيرة، هو أنّ كثيراً من العرب والمسلمين بات لهم اليوم انشغالات واهتمامات أُخرى، في ظلّ ما يُسمّيه البعض بـ «الربيع العربيّ»، فهم اليوم ينشغلون بالأوضاع الداخليّة الحسّاسة لبلدانهم، وبالاستحقاقات الكبيرة المطلوبة منهم، من إجراء انتخاباتٍ، أو إقرار دستور، أو محاكمة رئيس، أو القضاء على بقايا فلول نظامٍ مستبدّ بائد، أو.. إلى غير ذلك من الشؤون التي هي ـ على عظمتها وأهمّيّتها وشدّة الحاجة إليها ـ قد لا تزيد في الأوقات الأكثر حساسيّة وتعقيداً ـ كالأوقات التي نعيشها اليوم ـ عن كونها مجرّد شؤون داخليّة محلّيّة أو إقليميّة، ولا ينبغي لها أن تأخذ كلّ اهتمامنا إلى درجة أن تشغلنا عن سائر القضايا المصيريّة الكبرى، تلك القضايا التي بها يتقوّم وجودنا ومصيرنا وبقاؤنا كأمّةٍ محترمةٍ في أعين أبنائها، ومهابةٍ في أعين أعدائها والطامعين بها، والتي تتجاوز كلّ الحدود الجغرافيّة واللّغويّة والعرقيّة و.. وتتخطّى كلّ الحسابات السياسيّة والأطماع الفئويّة و..

ولسنا هنا بصدد أن ننتقد الاهتمام بهذه الشؤون الداخليّة، أو أن ندعو إلى التقليل من شأنها وعدم الاكتراث بها، ولا حتى إلى إسقاطها من سلّم الأولويّات والاهتمامات..

كلّا..

بل إنّ هذا أمر واجب ومطلوب ولا غنى عنه؛ إذ إنّ هذه الشؤون تُعدّ أثراً مهمّاً من آثار وثمار الثورات التي حدثت، ومن كلّ التضحيات والدماء التي

بُذلت فيها..

وإنّما نحن هنا بصدد أن ننتقد حالة النوم أو السكر أو الغيبوبة أو فقدان الوعي الجماعيّ الذي تعيشه اليوم شرائح واسعة من الشعوب الثائرة هنا أو هناك، تأثّراً بحلاوة بعض الشعارات والعناوين المطروحة، من قبيل عناوين: الثورة، والربيع العربيّ، والمطالبة بالحقوق والحرّيّات، وتحسين أوضاع المعيشة، وما إلى ذلك من الشعارات والعناوين الحقّة والمطلوبة، هذه الغيبوبة الجماعيّة التي جعلت الكثير منّا يغفل عن العدوّ الحقيقيّ، فيحصره فقط في طبقة الحكّام الفاسدين وأزلامهم ممّن استهدفتهم تحرّكات الثورات العربيّة، ويغفل عن القضايا المركزيّة التي تعني شرف الأمّة ككلّ، كقضيّة فلسطين والاحتلال الصهيونيّ والمطامع الغربيّة والأمريكيّة في منطقتنا وإحلال وتكريس الأهداف الإسلاميّة والدينيّة والإنسانيّة الكبرى، ويجعل قضيّته المركزيّة ـ بدلاً من ذلك كلّه ـ مجرّد الوصول إلى حلولٍ لبعض المشكلات الموضعيّة ذات الطابع الداخليّ المحض...

ويدلّنا على هذه الحالة المتردّية والمؤسفة في أوساط الشارع العربيّ (الثائر!!)، أنّنا لم نشهد تظاهراتٍ واحتاجات عارمةٍ تشتعل بذلك الحجم المطلوب في الساحات والميادين التي لا تزال تحتضن الثوّار، لا في اليمن السعيدة، ولا في مصر أمّ الدنيا، ولا في تونس الخضراء، فضلاً عن ليبيا المشغولة حاليّاً بحروبها العشائريّة، وسوريا التي يتظاهر اليوم بعض أهلها في ظلّ العصابات المسلّحة المدرّبة والتدخّلات الخارجيّة والاختراقات الأمنيّة المشبوهة والواضحة، وفضلاً عن سائر الساحات والميادين في مختلف دول العالمين: الإسلاميّ والعربيّ...

لا يسعنا هنا إلّا أن نعلن دهشتنا واستغرابنا لما جرى ويجري..

إذ كيف نكون حقّاً في (ربيع عربيّ)، ونحن نسينا القضيّة العربيّة الأمّ، قضيّة

القدس والأقصى واحتلال فلسطين؟!!

وكيف تكون ثوراتنا هذه مُجديةً حقّاً، ونحن فقدنا غيرتنا على مقدّساتنا وقرآن نبيّنا؟!!

وكيف لنا أن ندّعي أنّنا نحارب أنظمة الاستبداد والارتهان؟!! ونحن ـ اليوم ـ نترك تلك القوى المتغطرسة، وهي التي صنعت تلك الأنظمة وموّلتها ودعمتها واحتضنتها على امتداد عقودٍ طويلة من الزمن، نتركها تعيث فساداً في أرضنا وإنساننا وعقول أجيالنا، وتعتدي على حرماتنا ومقدّساتنا، وفي المقابل، تتزلّف إلينا وتتقرّب وتتلوّن، وتعطينا من طرف اللّسان حلاوةً، فيعود الكثير منّا لتنطلي عليه ـ مجدّداً ـ وعودها المعسولة الكاذبة، وشعاراتها الممجوجة الخاوية، التي لطالما ارتُكبت باسمها وتحت غطائها أشنع الفظائع والجرائم..

إنّنا في ثوراتنا المباركة التي نسير بها حاليّاً، وفي سعينا المقدّس والميمون نحو إحلال التغيير والإصلاح الشامل في بلداننا الإسلاميّة والعربيّة، لا ينبغي أن يغيب عن نواظرنا، ولو للحظةٍ واحدة، أنّ قوى الإرهاب والشرّ، المتمثّلة بالإدارة الأمريكيّة وأذنابها في العالم، هي القوى المنكوبة والمفجوعة حقيقةً جرّاء ما حدث من تزلزل عروش الطواغيت من أزلامها، وسقوط الأنظمة الفاسدة القمعيّة التي كانت ـ على الدوام ـ تقوم بحمايتها وتقديم الدعم لها، وهي ـ هذه القوى ـ قد عوّدتنا دائماً على أنّها لا تنسى، ولا تترك ثأرها، ولا تنام عن الانتقام لخسائرها، الأمر الذي يعني: أنّ الشعوب المسلمة اليوم، وبلا استثناء، باتت، أكثر من ذي قبل، غرضاً للمخطّطات الدنيئة والمؤامرات الحاقدة التي ستعمل تلك القوى على تنفيذها في الواقع الميدانيّ...

والحقيقة: أنّ ثوراتنا هذه لكي تكون ناجحةً حقّاً، ولكي تكون ربيعاً حقّاً، فإنّها يجب أن تستمرّ في كفاحها إلى النهاية؛ لتصل في عمليّة الإصلاح والتغيير إلى كفّ أيدي تلك القوى الاستعماريّة عن منطقتنا العربيّة والإسلاميّة؛ لأنّ

تلك القوى هي الشيطان الأكبر، وهي رأس الهرم في الظلم والقمع والعدوان، وهي قمّة الفساد والتسلّط والاستبداد، وهي التي صدّرت إلينا زمرة الحكّام الفاسدين الذين قضت عليهم الثورات إلى غير رجعة... وبانتظار المزيد... فالثورات ما لم تقضِ على المصدر الحقيقيّ للفساد، فهي لن تكون ـ في واقع الأمر ـ سوى ثوراتٍ شكليّة وصوريّة، فالشكل شكل ثورة، ولكنّها في الواقع فارغة من حيث المضمون، وغير قادرةٍ على إحلال أيّ تغيير حقيقيّ ومؤثّر على الأرض، وعلى كافّة الصعد... والأمر الوحيد الذي ستُسفر عنه هذه الثورات ـ حينئذٍ ـ هو إجراء التغيير على مستوى بعض الوجوه والأسماء والشخصيّات، ولكن مع بقاء النهج القمعيّ والاستبداديّ الاستسلاميّ على حاله، وكما هو عليه، لا بل، سيزداد هذا النهج ـ والحال هذه ـ نفاقاً وضراوةً، وسيعتمد وسائل وآليّاتٍ أكثر تعقيداً، وستكون خدعه ومؤامراته أكثر دقّةً، وشبهاته أكثر إقناعاً، وسيكون هو أكثر خبرةً ومراساً!!

هذا ما يجب علينا فعله...

وإلّا..

فهل يُعقل أن يكون للعرب والمسلمين ربيع في ظلّ خريفٍ مكفهرٍّ يعصف بالحرمات والمقدّسات؟!!

وهل سنرضى بأن يكون عصر (الربيع العربيّ) هو العصر الذي يُهدم فيه المسجد الأقصى؟!

وكيف لثوّار ما يُسمّى بـ (الربيع العربيّ) أن يرضوا بأن تحصل في ربيعهم هذا كلّ الموبقات والجرائم التي لم يحدث مثلها أصلاً حتى في أسوأ وأحلك عصور أنظمة الاستبداد والاستسلام البائدة؟!!

وهل يكون (الربيع العربيّ) خريفاً للقرآن وسائر المقدّسات؟!!

إذاً، فبئس الربيع هو.. وبئست الثورات هي...

* * *

الهوامش:

(١) انظر ـ مثلاً ـ: العلّامة المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٧٢: ٢١، تحقيق: السيّد إبراهيم الميانجي، محمّد الباقر البهبودي، الطبعة الثالثة المصحّحة، ١٤٠٣ هـ، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان.

الأمّة الإسلاميّة وقضاياها الاستراتيجيّة

على ضوء كلمات الإمام الخامنئي دام ظله

إعداد: علي أحمد الحسن

تمهيد

الاستراتيجيّة في مفهومها العامّ البسيط هي تلك الرؤية البعيدة المدى التي تتبنّاها حركة أو مؤسّسة أو تيّار أو اتّجاه، أو حتى الأمّة نفسها، والتي تهدف إلى تحقيق برامج شاملة ترتكز على عناصر تتمتّع بالثبات، ولو نسبيّاً.

ويقابل الاستراتيجيّة في الاصطلاح: مصطلح التكتيك، والذي يعني ـ في مدلوله العامّ ـ: تلك الخطوات التفصيليّة القصيرة المدى، والتي تكون بمثابة الخادم لتلك الاستراتيجيّة، لجهة تقديمها آليّاتٍ فاعلة على مستوى مراكمة الإنجازات لصالح تلك الاستراتيجيّة، وذلك لا يكون إلّا من خلال اتّصاف تلك الآليّات بصفة المرونة والقدرة على التغيّر والتكيّف السريع بما يلبّي كافّة احتياجات وأهداف وبنود الاستراتيجيّة المعتمدة والمتبنّاة.

وها هو اليوم عالمنا الإسلاميّ يشهد بروز العديد من الحركات الإسلاميّة

السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة الفاعلة والناشطة في غير واحدٍ من المجالات الحيويّة والأوّليّة التي تُعدّ من ضرورات الحياة المعاصرة لأمّة المسلمين.

ولكن، وبالرغم من تعدّد هذه الحركات وكثرة تنوّعها واتّساع دائرة الاختلافات فيما بينها على مستوى التوجّهات والتطلّعات ومسارات العمل، إلّا أنّ هذه الحركات ـ مع ذلك ـ يربطها فيما بينها الكثير الكثير من القواسم المشتركة، ولا يقف الأمر عند حدّ الالتقاء في بعض القواسم المشتركة فحسب، بل هي ـ هذه الحركات ـ لها في الحقيقة الأهداف والأغراض نفسها، وهي تواجه التحدّيات ذاتها، وتتعرّض لسلسة الأخطار والهجمات ذاتها، ويتربّص بها ذات العدوّ المشترك..

وفي ملخّص القول: فإنّ التنوّع الذي يطبع هذه الحركات بألوانه العديدة وأطيافه المختلفة لم يستطع أن يُلقي بظلاله على ما بينها من مشتركات، فضلاً عن أن تكون له القدرة أصلاً على أن يُلغي هذه المشتركات أو أن يبطل مفاعيلها، بل إن وُضعت مشتركاتها وموارد التقائها في كفّةٍ، ووُضعت الفوارق وجهات الاختلاف في كفّةٍ أُخرى، لكانت الكفّة الراجحة ـ بلا كلام ولا جدال ـ هي كفّة المشتركات وموجبات الالتقاء والتقارب، ولكان الاتّحاد ـ لا محالة ـ هو السمة الغالبة والمهيمنة عليها، وهو المصير الحتميّ لها، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ كلّ ما يتطلّبه الأمر حينئذٍ من أجل توحيد هذه الحركات، فضلاً عن التقريب فيما بينها، فهو موجود ومتوافر، وبالشكل المطلوب، لا بل أزيد من ذلك بمستوياتٍ ومراتب.

وبالنظر إلى هذا الوضع القائم، كان ينبغي أن نرى ـ في الواقع الميداني والعملي ـ هذه الحركات وهي تسلك سبلاً متقاربة، وتتّجه في الاتّجاه نفسه، وتحمل النوايا نفسها، تلك النوايا التي توصل إلى الأهداف نفسها..

أو على الأقلّ: كان ينبغي أن يكون التباين الموجود فيما بينها تبايناً إيجابيّاً لا

يخرج من إطار الاختلاف والتنوّع المثري للمشهد الإسلاميّ العامّ والمخرج له عن حيّز الجمود والخمول إلى حيّز النشاط والحراك المتفاعل..

أو لا أقلّ من أن يُقال: كان ينبغي لهذا التباين أن يكون بحيث لا يُفسد للودّ قضيّة، ولا يُعكّر صفو التلاقي والتقارب فيما بين تلك الحركات التي ترفع ـ كلّها ـ مبادئ الإسلام شعارات لها.

ولكن، ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه..

إذ نجد أنفسنا اليوم أمام واقعٍ مؤسف وأليم؛ فهذه الحركات تعاني من تشتّت كبيرٍ في مواقفها، واختلافٍ شاسع في وجهات نظرها حول قضايا جوهريّة ومصيريّة واستراتيجيّة لا مجال للخلاف بشأنها، وبخاصّةٍ: تلك القضايا التي تقتضي من المسلمين كافّةً وحدة الموقف والكلمة.

وانطلاقاً من قول الله عزّ وجلّ في كتابه الكريم: { وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }[آل عمران: ١٠٣]، فقد ارتأينا في هذا المقال، أن نسلّط الضوء ـ وبإيجازٍ ـ على جملةٍ من أهمّ المواقف والقضايا الاستراتيجيّة والأساسيّة والمحوريّة التي يجب للأمّة بأجمعها أن تتّحد ويكون لها موقف موحّد ومنسجم بشأنها، والتي نرى أنّ الأمّة إن توحّدت حولها، فلن يضيرها أبداً ما قد تختلف بشأنه لاحقاً من القضايا الأُخرى.

ونعتمد هنا في ترسيم هذه القضايا ودراسة حدودها وعناصرها، وفي ترتيبها ومقاربتها، وفي تحديد أولويّاتها وخطوطها الرئيسيّة على كلمات متفرّقة وردت في خطابات مختلفة كان قد ألقاها قائد الأمّة الإسلاميّة ووليّ أمر المسلمين الإمام آية الله العظمى السيّد علي الحسينيّ الخامنئي دام ظله، وفي أكثر من مناسبة.

ونشرع في الحديث عن هذه القضايا تباعاً:

القضيّة الأولى: قضيّة احتلال فلسطين:

تُعتبر قضيّة فلسطين المظلومة والجريحة من المحاور الرئيسيّة، وذات الأهمّيّة الكبرى، التي ينبغي أن تقع في سلّم اهتمامات الأمّة وأولويّاتها، وفي مقاربة هذه القضيّة ينبغي التركيز على جهاتٍ ثلاث:

١) النشأة الممسوخة وغير الطبيعيّة للكيان الصهيونيّ الغاصب، فهو (على خلاف نشأة كافّة دول العالم) كيان لقيط، حيث تمّ تجميع وتكديس اليهود (الصهاينة) فيه من كافّة أنحاء العالم، لينشأ هذا الكيان بصورةٍ غير طبيعيّة تحت وطأة ظروف صعبة مرّ بها العالم الإسلاميّ خصوصاً بعد الحرب العالميّة الثانية، وذلك من أجل تحقيق أغراض استعماريّة خبيثة في العالم الإسلاميّ، العالم الذي كانت الحرب قد مزّقت كيانه، وذهبت بوحدته وهيبته وقوّته.

وقد نهج هذا الكيان الهجين ـ منذ ولاته المشؤومة تلك ـ منهج العدوانيّة والتوسّع وفرض الهيمنة على المنطقة، ومنعها من إحراز التقدّم العلميّ والصناعيّ والاقتصاديّ، ومن بناء قوّتها العسكريّة والسياسيّة وإعادة توحيد صفوفها من جديد.

وبالطبع: لم يكن الكيان الصهيونيّ في أيّ وقت من أوقاته وحيداً في تنفيذ وإعمال هذه السياسات الكيديّة، بل ثمّة ربط عضويّ غير قابل للتفكيك بين هذا الكيان الغاصب وبين حلفائه من قوى الشرّ والاستكبار العالميّ، وعلى رأسهم: الشيطان الأكبر: الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بما تمثّله من إدارةٍ متغطرسةٍ تحكمها إرادات اللّوبيات الصهيونيّة الإجراميّة.

٢) شموليّة الأهداف الاستعماريّة والعدوانيّة للكيان الصهيونيّ الغاصب، وعموميّتها لكافّة الدول الإسلاميّة، وعدم انحصارها في الدول العربيّة خاصّة، وهي فيما تستهدفه شاملة لكافّة الجوانب: السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والدينيّة والأخلاقيّة والمعنويّة، كما أنّها تطال كافّة الشعوب الإسلاميّة،

ولا تقتصر على الشعوب العربيّة فحسب، كما قد يحلو للبعض أن يتصوّره، وعلى أساس ذلك يتمّ طرح القضيّة الفلسطينيّة بوصفها قضيّة قوميّة عربيّة فحسب، ولا صبغة أُخرى لها، وبالتحديد: مع إنكار أن تكون هذه القضيّة قضيّة المسلمين كلّ المسلمين، وقضيّة الإسلام كلّ الإسلام، بما يمثّله هذا الدين الحنيف من قيم سماويّة رائعة تُعلي من شأن الإنسانيّة وتكرّم الإنسان، كلّ إنسان، وتعظّم حقوقه وتحترمه.. والحال أنّ قصر هذه القضيّة على جهةٍ معيّنة، مع إنكار أو إغفال أو استبعاد سائر الجوانب والجهات ليس هو في حقيقة أمره إلّا تقزيماً لهذه القضيّة، وتحجيماً لها، وتضييقاً لمساحتها، فالقضيّة الفلسطينيّة ليست قضيّة نزاع على حدود جغرافيّة أو توزيع ديموغرافيّ معيّن، بل هي ـ في الوجدان الإسلاميّ المستقى من تعاليم هذا الدين الحنيف ـ قضيّة إسلاميّة بامتياز، بل هي أمّ القضايا، بل قضيّة الدين نفسه، فهي أهمّ القضايا المبدئيّة التي يجب أن تفرض نفسها، وبقوّةٍ، على العقل الإسلاميّ المعاصر..

٣) البعد الدينيّ في مواجهة هذا الكيان الغاصب ومواجهته، وإنّنا نعتقد جازمين بأنّ الشعوب المسلمة عندما تعتمد على الإسلام وتعاليمه التحرّريّة والمشعّة بالنور، وتصمّ آذانها عمّا سواه من المذاهب والتوجّهات الباطلة، شرقيّةً كانت أم غربيّة، فإنّها حينئذٍ ستتحرّر من أسر الصهيونيّة والاستكبار العالميّين.

إنّ (إسرائيل) اليوم تمثّل بؤرة فساد ضخمة، وغدّة سرطانيّة سامّة، تمّ زرعها في قلب الأمّة الإسلاميّة من قبل الدّول الكبرى، وإنّ جذورها الفاسدة تهدّد ـ بشكلٍ يوميّ ـ بانتهاش عالمنا الإسلاميّ، فالواجب لذلك هو العمل على اقتلاعها من الجذور، ولا يكون ذلك إلّا بهمّة جميع البلدان الإسلاميّة، وكافّة الشعوب المسلمة العظيمة.

ومن هذا المنطلق، فإنّنا نرى أنّ هناك ارتباطاً وثيقاً جدّاً بين تحرير فلسطين ونصرة القضيّة الفلسطينيّة وبين امتلاك المسلمين فرصتهم الحقيقيّة في إحراز

التقدّم والتطوّر المادّيّ والمعنويّ، فإنّ الاحتلال الصهيونيّ إذا كان يعمل في سبيل إيجاد العقبات والحواجز التي تعيق الازدهار الإسلاميّ، فمن الطبيعيّ جدّاً أن يكون العمل من أجل التخلّص من هذا الاحتلال عملاً في سبيل رفع تلك العقبات، والوصول إلى التطوّر المنشود.

وهنا ـ أيضاً ـ تتحوّل القضيّة الفلسطينيّة لتكون هي المؤشّر على عزّة المسلمين وكرامتهم ومكانتهم بين الشعوب والأمم على وجه الأرض.

وعلى هذا الأساس، فإنّ الموقف الإسلاميّ الداعم والمحتضن والمتبنّي للقضيّة الفلسطينيّة يحثّ المسلمين على اعتبارها ديناً يدينون به، وليست مجرّد شعار سياسيٍّ يستهلكونه اليوم لأغراض مرحليّة ويتركونه غداً بعد أن يقضوا منه وطراً...

ففلسطين تختصر كلّ القرن الذي مضى، وفلسطين تختصر كلّ آلام الأمّة، وكلّ أحلامها، وطموحاتها، وتطلّعاتها، وكلّ الأحلام بغدٍ مشرق ومستقبل أفضل تسقط دونها شكٍّ عندما تسقط فلسطين...

فلسطين ـ باختصار ـ هي قصّة أن تكون الأمّة أو لا تكون!! هي قصّة الكيان الإسلاميّ الذي يراد له أن يعود قويّاً مقتدراً موحّداً متماسكاً، وأن تعود كلمته هي العليا، كما كان كذلك في السابق، عندما كان المسلمون مع الإسلام، ينظرون بعيونه، ويتحرّكون على ضوء إرشاداته، ويمشون تحت رايته، ويتفيّؤون ظلاله الوارفة.

القضيّة الثانية: الوحدة الإسلاميّة:

رغم أنّ الإسلام يدعونا للتعاون على البرّ والتقوى، والاعتصام بحبل الله جميعاً، وعدم التفرّق والتنازع، وموالاة المسلمين ونصرتهم، إلّا أنّ هناك عزوفاً واضحاً من قبل قيادات الحركات الإسلاميّة بشكلٍ عامّ عن محاولة إيجاد إطار

عملٍ إسلاميٍّ موحّد، ضمن استراتيجيّة إسلاميّة شعبيّة تتكفّل بمواجهة الأخطار والتحدّيات، والتصدّي لهجمات أعداء هذه الأمّة، وما أكثرهم.

وربّما أصبح من المألوف في كثيرٍ من الأوساط أن يعبّر المسلمون عن إحباطهم ويأسهم من محاولة تحقيق الوحدة الإسلاميّة، ولو حتى في أضيق أطرها، بل أصبح كثير من المسلمين اليوم يستنكفون الحديث عن مثل هذه الوحدة، حتى كأنّها عندهم ضرب من الخيال، أو أمر مستحيل التحقّق!!

ولكنّ هذا خطأ فادح، وأيّما خطأ؛ إذ هو يندرج في إطار الطعن في مصداقيّة التزامنا بالإسلام الذي دعانا إلى الوحدة والولاء. فالله عزّ وجل لم يأمرنا بما يستحيل علينا القيام به، ولا بما هو فوق قدرة المسلمين وطاقتهم، ولذلك، فإنّ المسلمين في هذا العصر، كما في كلّ عصر أيضاً، قادرون على تحقيق وإنجاز وتكريس هذه الوحدة، ولكن شريطة أن يجتهدوا ويعملوا جاهدين على وضع الخطط والبرامج من أجل ذلك.

ثمّ هل يُعقل أن يتّحد أعداء الإسلام على محاربة الإسلام والمسلمين والانقضاض على بلادنا وإذلال شعوبنا، بينما نغرق نحن في مزاعم عجزنا عن أن نجتمع على مواقف موحّدة تمكّننا من الدفاع عن ديننا وأنفسنا وبلادنا؟!!

وفي الحقيقة، فإنّ الحديث عن موضوع الوحدة الإسلاميّة يطول كثيراً، ولا يستطيع أحد أن يجادل في أنّ الوحدة الإسلاميّة هي ضرورة شرعيّة وعقليّة وعقلانيّة أيضاً.

ولذلك، نكتفي هنا بالإشارة إلى أنّ الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة يمكن أن تقوم على أساسين اثنين:

١. **الأساس الدينيّ**: حيث نصّ القرآن الكريم على أنّ الأمّة الإسلاميّة أمّة واحدة: { إِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ }[الأنبياء: ٩٢]، ويجمع هذه الأمّة الواحدة إطار مقدّس شريف واحد، وهو: شهادة أن لا إله إلّا

الله، وأنّ محمّداً ' رسول الله، وهذا الإطار الواحد ينضوي على فروعٍ كثيرة مشتركة، منها: وحدة الكتاب، ووحدة القبلة، ووحدة الفرائض (الصلاة والصيام والحجّ والجهاد والزكاة وغيرها..) و...

٢. **الأساس السياسيّ**: وذلك أنّ التحدّيات والأخطار التي تواجه الأمّة الإسلاميّة إنّما تواجهها كأمّة واحدة، ولا يُنظر فيها إلى كلّ أمّةٍ على حدة. ومن البديهيّ لذلك أنّها لن تكون قادرةً على مواجهة تلك التحدّيات والأخطار وتنتصر إليها، إلّا إذا واجهتها مجتمعةً، وكأمّة واحدة، ولن تستطيع المحافظة على استقلالها، ولا الدفاع عن مصالحها، ولا حماية مقدّراتها وثرواتها، ولا صيانة كرامة أبنائها وعزّتهم، إلّا بتوحيد صفوفها، واجتماع أطيافها كافّةً للدفاع عنها في خندقٍ واحد. وبالجملة: فإنّ الطابع العدوانيّ الذي فرضته طبيعة النشأة والأهداف الاستعماريّة التوسّعيّة للكيان الصهيونيّ اللّقيط، هو نفسه، هذا الطابع، يفرض تعميم المواجهة وتوسعة دائرتها.

الفضيّة الثالثة: الصراع الثقافيّ والفكريّ مع الاستعمار:

الثقافة هي الممرّ الوحيد ـ الحصريّ والقهريّ ـ للإصلاح، ولا يمكن للإصلاح أن يبدأ إلّا بها، ومن عندها، وعلى هذا: فإنّ الثقافة تقع على رأس كافّة الأمور فيما يتعلّق بالشأن العامّ، وهي من الخطورة بمكانٍ، بحيث نستطيع أن نقول: إنّ نافذة عبور الاستعمار وأعداء الدين إلى الأمّة الإسلاميّة إنّما هي الثقافة.

وهنا، لا يسعنا إلّا أن نعجب لتلك الحركات الثوريّة التي تبرز هنا أو هناك، وهي تدّعي الاهتمام بالتحرّر السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ من الاستعمار، ولكنّها في الوقت عينه، تتجاهل التبعيّة الفكريّة، بل نراها تتبنّى الثقافة الغربيّة بشكلٍ تامّ، وتعمل على الترويج لها، وتحترف استخدام مفاهيمها وأدواتها

وأساليبها في العمل السياسيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ والإعلاميّ، وفي سائر شؤون الحياة في البلاد الإسلاميّة، وكلّ ذلك ـ بطبيعة الحال ـ على حساب ثقافتنا وهويّتنا وأصالتنا وحضارتنا الإسلاميّة ومفاهيمها وأدواتها وأساليبها ومناهجها، ويتنفّس القائمون على هذه الحركات من خلال الوعي الأجنبيّ، الغربيّ أو الشرقيّ، ولا يرون الأمور إلّا بمنظاره، ومن خلال فكره وأدواته ومناهجه الفكريّة والسياسيّة، فيعيشون بذلك حالةً من انفصام الشخصيّة، ولهذا يفشلون في كسب الجماهير وتحريكهم بقوّة في قضايا التحرير وبناء النهضة الوطنيّة والقوميّة.

إنّ الشعوب الإسلاميّة ما لم تحصل على استقلالها في الجوانب الفكريّة، فلن يكون بوسعها الحصول على الاستقلال أيضاً في الجوانب الأُخرى، ولهذا، لنا أن نعتبر التحرّر من التبعيّة الثقافيّة أصعب مهمّات ومسؤوليّات ووظائف كلّ الحركات الإسلاميّة الناشطة والفاعلة.

الفضيّة الرابعة: الصحوة الإسلاميّة:

لا تزال قضيّة الصحوة الإسلاميّة، وعلى امتداد سنين طويلة، تشكّل الهاجس المرعب الذي يقضّ مضاجع القوى الغربيّة التي تشكّل مجموعة الدول العظمى بحسب تصنيف النظام العالميّ المعاصر.

يدلّنا على ذلك: ما يصدر عن مراكز التخطيط والدراسات الاستراتيجيّة التابعة لمراكز القرار في هذه الدول من إحصائيّات ودراسات وتقارير..

وتزداد ثقتنا بأهمّيّة هذا الموضوع وحساسيّته أكثر فأكثر فيما نسمعه أيضاً من خطابات قادة العالم الغربيّ عامّةً وزعمائه وسياسيّيه وأحزابه وقواه، وفيما يكتبه ويقرّره كتّابه ومؤرّخوه وكبار المنظّرين والمفكّرين فيه.

حيث تُجمع هذه الدراسات والتقارير والخطابات والكلمات والكتابات على

تبنّي لسانٍ تخويفيّ شديد اللّهجة، يحذّر الغربيّين من يومٍ عسيرٍ يمكن ـ بزعمهم ـ أن يعود بالويل والثبور على العالم كلّه، وهو اليوم الذي تعود فيه اليقظة لتحلّق في سماء العالم الإسلاميّ، وذلك معرفةً منهم بالبديل الحضاريّ الممتاز الذي يمكن للإسلام النقيّ والأصيل أن يقدّمه للعالم، والذي من شأنه ـ لو تمّ بيانه وتقديمه للناس بالشكل الصحيح والمناسب ـ أن يقلّص دائرة النفوذ الغربيّ والأطماع الغربيّة إلى حدٍّ كبير، وأن يقلّل من فرص تفوّق الغرب على سائر الشعوب، والتي تحثّه على المزيد من التعالي والعنجهيّة والطغيان.

وبالرغم من كلّ تلك المحاولات المشبوهة التي تعمل بعض الجهات على بثّها والترويج لها، عملاً بأجندات واضحة في بعض الأحيان، وبسبب السذاجة والبساطة والإهمال واللّامبالاة في أحيان أُخرى، بالرغم من ذلك كلّه، فإنّ ظاهرة «الصحوة الإسلاميّة» عادت اليوم لتكرّس نفسها حقيقةً عمليّة واضحة وناصعة لها تداعياتها وآثارها في شتّى المجالات من المجتمع الإسلاميّ، من قبيل: التصوّرات عن الكون والحياة، وعن الدور الذي يمكن للإسلام أن يلعبه في صياغة وصناعة مستقبل الأمّة، وعن قدرة الإسلام على إرشاد الأمّة وتوجيهها على امتداد مسيرتها السياسيّة والاجتماعيّة والحضاريّة..

كما أنّ لهذه الصحوة آثارها الواضحة أيضاً على صعيد عودة الجماهير والشعوب المسلمة إلى رحاب الإسلام ومفاهيمه ونظمه وقيمه، والدعوة إلى تطبيق هذه المفاهيم والقيم في كلّ الساحات والميادين، وصولاً إلى طرح مسألة وجود الحلّ الإسلاميّ للمشاكل المتنوّعة التي تعاني منها الأمّة.

فها نحن اليوم، وبالرغم من ازدياد مظاهر الفساد والانحلال في المجتمعات الإنسانيّة عامّةً، نشهد اتّساعاً غير مسبوق لظاهرة التزام المسلمين وإقبالهم نحو المزيد من التقيّد بالتقاليد والشعائر الإسلاميّة في قبال ما يحاول البعض التسويق له على الساحة الاجتماعيّة الإسلاميّة من أساليب متنوّعة أقلّ ما توصف به أنّها:

غريبة عن ذهنيّة المسلمين وبعيدة كلّ البعد عن أنماط عيشهم وتفكيرهم وذوقهم العامّ!

ولا أدلّ على هذا الاتّساع الكبير في دائرة عودة المسلمين إلى أحضان دينهم والتعاليم الإسلاميّة من المظاهر المشهودة التي تشكّل مؤثّراً واضحاً على فقدان الطروحات والأفكار الغربيّة ما كان لها في السابق من قدرة تأثيريّة عند الشعوب الإسلاميّة، وهي التي تُعلن اليوم ـ هذه الشعوب ـ وفي أكثر من مناسبة، رأيها الحازم وقرارها الواضح بمعاداة الفكر الغربيّ بمظاهره المتهتّكة وقيمه المتحلّلة، لكون هذا الفكر قد اختار طريق الغزو والاستعمار كأداة لانتشاره بينهم، بدلاً من اعتماد الدليل والمنطق والحوار والعقلانيّة والأسلوب الهادئ والموضوعيّ..

كما لا تنفكّ الشعوب الإسلاميّة تُعلن عن تشكيكها وتحفّظها وعدم وثوقها تجاه كلّ ما يفِد إليها من الأفكار والمشاريع والبرامج من ناحية الدول الغربيّة والمؤسّسات الدوليّة التابعة لها، وبالأخصّ: ما يأتي من قِبَل الولايات المتّحدة الأمريكيّة، معتبرين أنّ الكيديّة الواضحة التي تمارسها الإدارة الأمريكيّة وحلفاؤها في سياساتها ضدّ خيارات الشعوب المسلمة، والانحياز التامّ الذي تظهره أمريكا والغرب عموماً نحو الكيان الصهيونيّ الغاصب والمحتلّ وضدّ القضايا المحقّة للعرب والمسلمين، وسياسة الكيل بمكيالين، والتدخّل السافر في الشؤون السياديّة للدول والشعوب، سياسيّاً وأمنيّاً وعسكريّاً، و... كلّ هذا، يُسقط جميع آمال الغربيّين وأحلامهم في لعب أيّ دورٍ وسطيّ أو مركزيّ تجاه قضايا المنطقة والعالم، كما أنّه يجعلهم في عيون أبناء الأمّة الإسلاميّة في مصافّ العدوّ الذي يراهن على هزيمة هذه الأمّة وتراجعها وفشل خياراتها، لا في موقع المدافع الحريص عنها، أو الصديق الرؤوف بها، على خلاف ما تحاول أمريكا والدول الغربيّة والأوروبيّة والأنظمة العربيّة الرسميّة المتأمركة والمتعاملة مع

قوى الشرّ على حساب أوطانها وشعوبها، ما تحاول جاهدةً أن تقنع به الإنسان العربيّ والمسلم، ولكن عبثاً ومن دون جدوى.

والنقطة المضيئة التي أرى أنّه يجدر هنا الوقوف عندها مليّاً والعمل على تعزيزها وتطويرها وتجذيرها أكثر فأكثر في أعماق وعينا الإسلاميّ، هي أنّ دراسة التاريخ البشريّ دراسةً متأنّية ومتجرّدة تحتّم علينا الاعتقاد بالنتيجة التالية، وهي: حتميّة الفوز في هذا الصراع الحضاريّ الكبير لصالح الأهداف المعنويّة النبيلة والمحقّة، وأنّنا عندما نكون صادقين حقّاً وحقيقةً في تحرّكنا نحو إنجاح هذه النهضة والصحوة الإسلاميّة المباركة، فإنّ الغد أمامنا سوف يكون مشرقاً لا محالة، عملاً بالوعود القرآنيّة القطعيّة بالنصر المؤكّد المبين والمؤزّر.

الفضيّة الخامسة: العدالة الاجتماعيّة ومعاداة الاستبداد

يمرّ عالمنا العربيّ والإسلاميّ في الوقت الراهن بالعديد من الأزمات الخطيرة الداهمة، التي استطاعت أن تستوطن المجتمعات العربيّة عميقاً، وأن تتغلغل بعيداً لتعشعش في الأذهان، وتقتل كلّ ما كان تبقّى من مظاهر الوعي واليقظة العربيّة (المأسوف على شبابها!!!).

وقد أثّرت هذه الأزمات ـ بالتالي ـ تأثيراً بالغاً في الحيلولة دون وصول العالم العربيّ إلى تحقيق الحدّ الأدنى من تطلّعاته وأهدافه السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، تطلّعاته بأن يرتقي بواقعه إلى مستوى الحياة اللّائقة أسوة بباقي شعوب وحضارات العالم.. وأن يعيش معها بسلام وعدل وتكافؤ إنسانيّ.

ولعلّ أهمّ تلك الأزمات التي تعرّضت لها الشعوب العربيّة على امتداد الوطن العربيّ، وعلى مدار تاريخها السياسيّ الحديث، هي أزمة وجود الأنظمة الشموليّة الاستبداديّة التي لم يكن لها أن تصل إلى سدّة الحكم والسلطة إلّا بقوّة السلاح والمال، والتي تسلّطت على رقاب العباد والبلاد باعتماد مختلف أشكال

العنف والهيمنة اللّاشرعيّة، وحافظت على استمرار طغيانها وبقاء وجودها عن طريق السيف والتعسّف والاستبداد والقمع.. الأمر الذي جعل المزاج العامّ عند الشعوب العربيّة يميل إلى اعتماد الخنوع والركون على مبدأ السلامة أسلوباً للعيش، وألجأها إلى التزام أقصى حدود الانضباط والصمت في مواجهة جحافل الأمن والجيوش وأجهزة الاستخبارات العربيّة السوداء.

من هنا ـ وفي مواجهة ما يحدث ـ يمكن أن نعتبر أنّ صمت الشعوب العربيّة على كلّ تلك الهزائم والمآسي السياسيّة والاجتماعيّة ما هو إلّا نتيجة طبيعيّة ومنطقيّة لكلّ تلك الممارسات الظالمة التي ارتكبت بحقّها، على قاعدة أنّه لا ينبغي أن يُتوقّع من مواطن جائع خائف محبط مستضعف، عاطل عن العمل، وفاقد للأمل، أن يخرج معارضاً أو مناصراً لمبدأ أو لقضيّة معيّنة؛ إذ بالتأكيد سيكون لديه في هذه الحالة ما يكفيه من الهموم والمخاوف والأزمات والابتلاءات والضغوطات اليوميّة على الأصعدة: المعيشيّة والشخصيّة والاجتماعيّة، ثمّ يوم يفرغ منها، (هذا إن بقي حيّاً إلى ذلك اليوم!!)، فقد تصل النوبة به حينئذٍ إلى أن يختار سلوك سبيل التفكير بقضايا المجتمع ومسائل الشأن العامّ!!

إنّ (الاستبداد) ـ في رأينا ـ بمثابة سرطانٍ خطير يتأكل جسد أمّتنا الإسلاميّة في وقتنا المعاصر، وإنّ بقاء الشعوب العربيّة والإسلاميّة مسجونةً في قفص الاستبداد صنع العديد من الحواجز النفسيّة والفكريّة والتاريخيّة العميقة التي تعيقها عن الحركة الإيجابيّة نحو بناء المستقبل المشرق، والتي تبقيها قابعةً تحت سيلٍ كبير من ركام التخلّف والاهتراء الحضاريّ.

فالاستبداد والتسلّط بمختلف ألوانه وأشكاله أمر أعمى يسير في عكس اتّجاه حركة التاريخ والحضارة والحياة الإنسانيّة الطبيعيّة.. لأنّه يناقض حرّيّة الإنسان، ويكبّل قدرته على تحقيق الاختيار السليم، بل إنّه يشلّ طاقة التفكير

واستخدام العقل والفطرة الصافية عنده، ويرهن مصيره للمجهول، ويجعله أسيراً بيد الجهل والتخلّف..

وهنا، عندما يفقد الإنسان حريته، تقع الكارثة الكبرى؛ لأنّه بفقده لها يفقد كلّ شيء جميل في الحياة.. يفقد العزّة والكرامة والأخلاق والعلم، ليكون مصيره الحتميّ هو الموت في حال الحياة، أو ـ إن أردنا تلطيف العبارة ـ: الحياة على الهامش!! ذلك لأنّ طاقة الإنسان حينئذٍ لا تكون موجّهة نحو العمل المنظّم الفاعل المنطلق من خلال ضرورة ممارسة واجب النقد والتصحيح لحركة الذات، وإنّما تكون موجّهةً أساساً باتجاه تحقيق غرض واحد، وهو تحصيل الحدّ الأدنى من لقمة العيش اليوميّة.

وفي ظلّ وجود مناخ عامّ كهذا مليء بالقهر والقسر والطغيان والاستبداد السياسيّ، فإنّه لا يمكننا أن نتصوّر أبداً أن تقوم الدول والمجتمعات المصابة بتلك الآفة الخطيرة بأيّ منجز حضاريٍّ مشهود لها، أو حتى تحقيق أيّ استثمار فعّال لطاقتنا الحيّة في الخلق والابتكار في هذا الموقع أو ذاك إلّا فيما ندر.. ، على اعتبار أنّ تلك المجتمعات تحوّلت مع الزمن إلى مجتمعات ميتة سياسيّاً، وممزّقة اجتماعيّاً، وفقيرة اقتصاديّاً، وبائسة ومحبطة وتابعة ثقافيّاً.. ولذلك فهي قليلة الفاعليّة والأثر، لا فيما يجري على الساحة العالميّة فحسب، بل حتى في قضايا العرب المصيريّة.

وقد رفض الدين الإسلاميّ الاستبداد بنحو مطلق، على اعتبار أنّه إنّما جاء أساساً لإخراج الناس جميعاً من ظلمات الجور والاستبداد إلى نور الحرّيّة والعدل في ظلّ الحكم الصالح، والمجتمع الصالح العادل.. كما ونظر الإسلام نظرة سلبيّةً للظلم والظالمين، وعرّفهم للناس جميعاً على أساس أنّهم أحقر الناس وشرّهم في مقام الحكم الإلهيّ، وقد ورد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ' : «**شرّ الناس يوم القيامة: الذين يُكرمون اتّقاء شرّهم**»[1]..

ونؤكّد هنا على أنّ امتلاك الأمّة لقوىً وقدراتٍ كامنة في داخلها وإن كان يؤهّلها للعب أدوار حضاريّة وإنسانيّة قويّة متعددة في عالم اليوم والغد، (كما في حالة أمّتنا العربيّة والإسلاميّة التي هي من أغنى دول وحضارات العالم في الثروات الطبيعيّة والإمكانات البشريّة) إلّا أنّه أمر غير كافٍ على الإطلاق، حيث إنّ كلّ الأمم تمتلك قوىً كامنة غير منظورة في داخل جسمها الحضاريّ، بل إنّه يحتاج إلى إعادة بناء مجتمع يأمن فيه الأفراد على آرائهم واعتقاداتهم ومختلف أفكارهم، ولا تكون حياتهم فيه مقترنة بالاضطراب والقلق والإحباط واليأس؛ إذ هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق ونيل السعادة الحقيقية والكمال الواقعيّ الفرديّ والاجتماعيّ..

والعدالة الاجتماعيّة هي القوّة الوحيدة التي تستطيع أن تبعث الاطمئنان والهدوء إلى النفوس، وتهب الأشخاص الأمن والسكينة والاستقرار، وهي لا يمكن لها أن تتوفّر إلّا في ظلّ الدولة التي يسوسها القوانين الإلهيّة العادلة، والتي يكون المسؤولون فيها تحت القانون، ومنفّذين له قبل غيرهم، ولا يسمحون لأنفسهم بأقلّ انحراف أو تجاوز على حقوق الآخرين..

الفضيّة السادسة: الحكومة الإسلاميّة

لعلّ من أهم المواضيع المطروحة في المجتمعات البشريّة عموماً، قديماً وحديثاً، هو البحث عن ضرورة الحكومة وحاجة الإنسان إليها. حيث يكتسب هذا الموضوع أهمّيّته هذه من جذورٍ له منغرسة في أعماق الطبيعة الإنسانيّة؛ فمن جهة: للإنسان حياة اجتماعيّة عامرة، وهو اجتماعيّ بالطبع، ولا يستطيع ـ عادةً ـ أن يعيش لوحده في عزلةٍ عن البيئة والمحيط.

ومن جهة أُخرى، فلكلّ فردٍ من أفراد الإنسان ميول خاصّة ورغبات غير محدودة، فإذا ما أراد كلّ واحدٍ من بني البشر أن يحقّق رغباته وميوله كافّةً،

لكانت النتيجة الحتميّة حينئذٍ هي الاصطدام مع الآخرين، وإحداث مشاكل لهم.

ولهذا وذاك، يحتاج الإنسان حاجةً ماسّةً إلى قانون وأسلوب ينظّم له حياته الاجتماعيّة ويحدّ من طغيان ميوله ورغباته على حياة الآخرين، ويمنع حصول الهرج والمرج، و يحول دون تعدّي الناس بعضهم على حقوق بعض.

والقانون ـ أيّ قانون ـ لا يمكن أن يؤتي أكله، ويكون له أثر عمليّ في حياة البشر إلّا إذا دخل عمليّاً حيّز التطبيق والتنفيذ، فلا بدّ من جهازٍ معنيٍّ بالإشراف على تطبيقه وحُسن تنفيذ بنوده، وتُسمّى هذه الجهة عادةً باسم (الحكومة).

إنّ حاجة المجتمعات إلى الحكومة هي حاجة دائمة ثابتة وأساسيّة، بحيث لا يمكن لأيّ مجتمع أن يستغني عنها بحالٍ من الأحوال، فحتى لو صحّ لنا أن نفرض أنّ الناس في مجتمعٍ ما قد تطوّروا اجتماعيّاً وعقليّاً ونفسيّاً إلى حدٍّ لم يعد أحد منهم يظلم أحداً، ولم يعد بعضهم يتعدّى على بعض أبداً، وباتوا جميعهم يراعون العدل والإنصاف، (وهو فرض يستحيل حصوله عادةً)، فإنّ هذا المجتمع، مع ذلك، لن يكون في غنىً عن الحكومة؛ إذ حتى في هذه الحالة المفروضة، يبقى هناك سلسلة من الاحتياجات العامّة التي لا يمكن توفيرها وتأمينها من دون وجود نظامٍ وقانون، وبالتالي: من دون وجود سلطةٍ وحكومةٍ تسهر على إحلاله وتطبيقه، وهذه الاحتياجات من قبيل: تأمين أسباب الرفاهيّة، وتحسين الظروف الصحّيّة، والتخطيط المتقن في المجالات التربويّة والتعليميّة، والعمل الجادّ والمدروس في المجالات الصناعيّة والتقنيّة والزراعيّة، واتّخاذ المواقف الحاسمة والشجاعة والديناميكيّة في مجال الاتّصالات والسياسات الخارجيّة والعلاقات الدوليّة، إلى غير ذلك من متطلّبات الحياة الضروريّة التي تتطلّب أزيد من الجهود الفرديّة أو الاجتماعيّة الضيّقة، بل تحتاج

ـ كما ذكرنا ـ إلى جهةٍ اجتماعيّة كبرى، إلى دولةٍ ذات مؤسّسات كبيرة منسجمة ومتناسقة فيما بينها، لتعمل على تحقيق هذه المتطلّبات والاحتياجات بشكلٍ تدريجيّ متوازن.

وبالرغم من تصوّر البعض بأنّ (الحرية) وقيام (السلطة الحكوميّة) أمران متناقضان لا يجتمعان أبداً، وأنّ صيانة الحرية الفردية تقتضي ـ بالضرورة ـ أن تحذف (الحكومة والدولة) من قاموس الحياة البشرية، وبالرغم من تصوّر البعض أيضاً بأنّ الدول والحكومات لا تتألّف ـ غالباً ـ إلّا من الأقوياء، ولا تراعي إلّا حقوقهم ومصالحهم، على حساب حقوق الضعفاء ومصالحهم، وكذلك، بالرغم من تصوّر البعض أنّ الإنسان طيّب ذاتاً وأنّه مخلوق عاقل وعالم فلا حاجة إذاً إلى وجود دولة تنظم أُموره وتدبّر شؤونه وتحفظ مصالحه، بالرغم من جميع تلك التصوّرات والمزاعم التي تكشف عن نوع من السفسطة والسذاجة، ولا تنتج سوى الفوضى والهرج والمرج؛ فإنّ ضرورة وجود حكومة في حياة البشر في غاية الوضوح بحيث لا يحتاج إلى دليل وبرهان أبداً.

إنّ الضرورة تقضي بقيام دولة تصون الحرّيّات الفرديّة إلى جانب المصالح الاجتماعيّة وتسعى في تنظيم الطاقات وتنمية المواهب، وتوقف جميع أبناء المجتمع على واجباتهم، وتجري القوانين وتسهر على تنفيذها، بل حتى على فرض أن لا يكون هناك صراع طبقيّ، أو تناقض مصلحيّ بين مختلف شرائح المجتمع، حتى على الفرض، فإنّ ضرورة وجود الحكومة لأجل إدارة المجتمع للقيام بحوائجها الاجتماعيّة أمر لا مناص منه، فحتى المجتمع الذي زال فيه الصراع الطبقيّ لا يشذّ عن سائر المجتمعات في احتياجه إلى من يدير أُموره، من تأمين سكنه وصحّته وتعليمه وتربيته ومواصلاته البرّيّة والبحريّة والجوّيّة، والفصل في خصوماته فيما لا يرجع إلى الأُمور الطبقيّة، إلى غير ذلك من الشؤون التي لا مناص منها لإقامة المجتمع مما يحتاج إلى المؤسسات، وإدارة

شؤونها. فلا بدّ من مؤسسات تقوم كلّ واحدة منها بناحية من هذه الأُمور وتنظيمها، ولا نعني من الحكومة إلّا هذا.

إنّ حفظ النظام الاجتماعيّ والحضارة الإنسانيّة وتعريف أفراد المجتمع بواجباتهم، وما لهم وما عليهم من الحقوق، ورفع أيّ نزاع وتصارع في حياة الجماعة، هي أُمور تحتاج إلى مرجع قوي يقوم بهذه المهامّ الضخمة، وهذا الواجب الإنسانيّ الشريف، ويحفظ ـ بالتالي ـ أساس الحضارة الذي هو حفظ النظام الاجتماعيّ وصيانته من التقهقر والانحطاط.

وعن الحكومة في الشأن الإسلاميّ، فحيث إنّ الإسلام ليس إلّا سلسلة من الأُصول والفروع المنزلة من جانب الله تعالى، والتي كلّف رسول الله ' بدعوة الناس إليها وتطبيقها على الحياة في الظروف المناسبة، وحيث إنّ تطبيق طائفة من الأحكام التي تكفل استقرار النظام في المجتمع لم يكن ممكناً من دون تشكيل حكومة وقيام دولة؛ لذلك فقد أقدم النبيّ ' ، بحكم العقل، وبحكم ما كان له ' من الولاية المعطاة له من قبل الله، على تشكيل دولة.

وهذا كلّه يدلّ على أنّ الحكومة ضرورة عقليّة، وعقلائيّة، واجتماعيّة، وهي كذلك ضرورة إسلاميّة، لا بل، وفي صميم أهداف الرسالة الإسلاميّة.

الفضيّة السابعة: سياستنا عين عبادتنا

الإسلام هو المنهج الشموليّ، المتحرّك، الواسع النطاق، الذي طُرح كرسالةٍ خاتمة، كمشروعٍ نهائيٍّ أُريد له أن يكون وصفة العلاج المُثلى والأنجع لمعالجة كافّة الأمراض والآفات والأسقام التي ابتُليت، أو قد تُبتلى، بها البشريّة، في مسارها التاريخيّ الطبيعيّ والتكوينيّ الذي قُدّر لها أن تسلكه.

ولأنّ الإسلام خاتم الأديان، ولأنّه الوصفة النهائيّة التي لا بديل ولا ثاني لها ولا ما يحلّ محلّها، لأنّه كلّ ذلك وأكثر، فقد أُريد له أن يكون شريعةً متماسكة،

ومنهجاً متكاملاً، وخطّةً مدروسة الخطوات، ومشروعاً إصلاحيّاً تتداخل فيه الأدوات المُختلفة الأبعاد، ليكون كلٌّ منها مكمّلاً لدور الآخر في سبيل تحقيق الهدف الأسمى والأوحد، وهو إصلاح الإنسان وتقويمه والارتقاء به إلى حيث تكون له منزلة الخلافة، خلافة الله على أرضه، ليُقيم فيها حدود الله وأحكامه، وليؤسّس بنيان الكون كلّه على قواعد المنهج الربّانيّ الذي أراده الله تعالى، وبكلمةٍ: ليكون بأفعاله وبإرادته التكوينيّة مجسّداً ومنفّذاً ومطبّقاً لإرادة الله التشريعيّة، وبالتالي: ليكون كلمة الله في أرضه.

إنّ الجانب الروحيّ في الإسلام، ليس، ولا يمكن له أن يكون مفصولاً عن الجانب المادّيّ، وكذا الجانب الفرديّ ليس مستقلاً عن الجانب الاجتماعيّ، وكذا الحال في الجانب العباديّ الذي يُوليه الإسلام أهمّيّةً كبرى، فإنّه ليس مفصولاً ولا أجنبيّاً ولا مستقلاً عن الجانب السياسيّ والبعد الحياتي والعمليّ للإنسان، مجتمعاً وفرداً.

وإنّما احتجنا إلى أن نفترض لوناً من التواصل والتكامل بين كلّ هذه الجوانب المختلفة والمتعدّدة؛ لأنّ أيّ مشروعٍ أو دعوةٍ أو منهجٍ يحمل راية الإصلاح، إصلاح الإنسان وترقيته إلى المستوى الذي يتمّ معه تهيئته لحمل أعباء الخلافة الإلهيّة، لا يمكن أن يُوفّق أو أن يُكتب له النجاح في رفع هذه الراية إلّا إذا كان فيما يدعو إليه منسجماً مع واقع الإنسان الذي يخاطبه، والذي يشكّل المحور الذي يتوجّه إليه هذا المشروع في دعوته وفي تعاليمه والتكاليف، تماماً كما أنّ كلّ دواءٍ ينبغي أن يكون متناسباً مع حال الجسد المصاب بالداء، وكما أنّ كلّ وصفة علاجٍ يُفترض بها أن تأخذ بعين الاعتبار نوعيّة المرض وطبيعة ومناعة الجسد الحامل له.

ومن هذا المنطلق، نرى أنّ كلّ قراءةٍ في الإسلام تتعامل مع تعاليمه وأحكامه وتشريعاته بشكلٍ مجزوءٍ ومقطعيّ، تبقى قراءةً ناقصةً وقاصرة، ولا يمكن لها أن

تثمر وتؤتي أُكلها إلاّ بعد أن يتمّ فيها ملاحظة ما هو قائم بين هذه التعاليم والأحكام والتشريعات من الترابط والانسجام والتكامل والتزاوج والتراصّ. ذلك أنّ الإنسان الذي هو المخاطب بتعاليم الإسلام وتكاليفه ليس مخلوقاً ماديّاً فقط، ولا مخلوقاً روحانيّاً فقط، بل إنّما هو خليطٌ من المادّيّة والروحانيّة، ومزيجٌ بينهما؛ كما أنّه ليس مخلوقاً ذا منحىً شخصيٍّ وفرديٍّ فقط، بل لديه طبع اجتماعيّ أيضاً يمكّنه، بل ويفرض عليه، الانخراط في المجتمع والمشاركة فيه، تأثّراً وتأثيراً، وهو أيضاً كائن امتزجت فيه العواطف والمشاعر والأحاسيس بالعقل والمنطق والبرهان.

وإذا كان الإنسان كائناً معقّداً ومركّباً، تمتزج فيه الأبعاد وتتكامل، فلا يمكن لأيّ مشروعٍ يدّعي إصلاحاً وتقويماً له، ونهضةً وارتقاءاً به، إلّا أن يكون على شاكلته ومن سنخه، وبنفس طبيعته، فيكون المشروع بدوره معقّداً ومركّباً، تمتزج فيه الأبعاد وتتكامل، فلا يخاطب روح الإنسان مجرّدةً عن بدنه، ولا العكس، ولا يقصر خطابه له على الناحية الفرديّة فقط، ولا على الاجتماعيّة فقط، بل ينبغي أن يكون الخطاب متّسماً بالطابعين معاً، فهو يراعي خصوصيّة الإنسان وانطواءه على نفسه وميله إلى الشخصانيّة، في نفس الوقت الذي ينظّم له شكل حياته في المجتمع وعلاقته بالآخرين وكيفيّة تعاطيه وتفاعله معهم، كما أنّه يمزج بين تنظيم العاطفة وإدارتها، حبساً أو إثارةً، وبين العقلانيّة القائمة على المنطق والدليل والبرهان.

وعلى هذا الأساس، نجد من الخطأ الفادح أن يُقال: إنّ للإسلام دائرته وآفاقه، وللدّنيا دائرتها وآفاقها، وإنّ كلًّا من الدين والدنيا لا يحقّ له أن يتجاوز حدود دائرته ويتعدّاها إلى دائرة الآخر، على قاعدة: أنّ ما للدين هو لله، وما هو خارجٌ عن الدين فليس لله، بل لقيصر!!

إنّ هذه المقولة، لا تنتمي إلى عقيدة المسلمين وذهنيّتهم ولا تمتّ إليهم بصلةٍ

أبداً؛ إذ ليست الدنيا خارجةً عن الدين الإسلاميّ، وليس ثمّة منطقة تركها الإسلام فارغةً من حُكمه ورأيه وتشريعه، ولو بالإباحة والترخيص والتخيير، وليس ثمّة دائرة من الدوائر التي تخصّ الإنسان وترتبط به يُحظّر دخول الإسلام إليها، وهذه هي الخلفيّة التي تقف وراء المقولة التي ننادي بها، أعني: مقولة: (سياستنا عين عبادتنا).

الفضيّة الثامنة: ضرورة العودة إلى الإسلام والمعنويّات

عندما نتحدّث عن الأمّة الإسلاميّة، فإنّنا نتحدّث عن مجموعة كبيرةٍ من المسلمين موزّعةٍ على عددٍ من الشعوب المتآخية والمتعاطفة، والتي وإن اختلفت في الانتماء إلى أعراق سوداء أو بيضاء أو صفراء، وإن كانت تتكلّم بعشرات اللّغات، إلّا أنّها تعتبر نفسها كلّها أجزاءاً متساوية من الأمة الإسلاميّة، فهم متساوون في الانتماء الدينيّ الذي يوحّد بين قلوبهم فيجعلهم صفّاً واحداً متراصّاً، وهم يفتخرون بأنّ قلوبهم ووجوهم تتوجه كلّها في كلّ يوم إلى قطبٍ واحد، وإلى جهةٍ واحدة، وتتضرّع إلى الله تعالى بلغةٍ واحدة، وهي لغة العبوديّة والإقرار بالوحدانيّة، كما أنّهم بأجمعهم ضيوف على مائدة كتابٍ سماويٍّ واحد، يستلهمون منه بأجمعهم الدروس والعبر، ويطلبون فيه السكينة والطمأنينة والراحة.

إنّ هذه المنظومة التي تسمّى بـ (الأمّة الإسلاميّة) لها ثقافة غنيّة، وحضارة إنسانيّة رائعة، كما أنّها تمتلك تراثاً زاخراً ومتألّقاً ومشرقاً إشراقاً استثنائيّاً ومتميّزاً. وهي تتمتّع إلى جانب التنوّع وهامش التعدّديّة والاختلاف الواسع فيها، تتمتّع بوحدةٍ وانسجامٍ مذهلين، نابعين من شموليّة الإسلام نفسه، ومن مبدأ التوحيد، الذي هو المبدأ الحاكم والمهيمن على جميع منظومته القيميّة والأخلاقيّة والتشريعيّة والعقائديّة والاجتماعيّة وغيرها، وهو مبدأ متغلغل

وحاضر بقوّةٍ أيضاً في جميع أركان هذه الأمّة، وفي جميع أجزائها ومناحيها.

ولدى الأمّة الإسلاميّة أدوات ووسائل عديدة للدفاع عن حقّ وجودها، فالمسلمون اليوم جماعة كبيرة، ولديهم ثروات هائلة، وفيهم نخب وعلماء ومفكّرون وقياديّون وشخصيّات بارزة، ولديهم رصيد معنويّ كبير يمكّنهم من الصمود أمام تعدّيات العتاة وتجاوزاتهم. كما أنّ لديهم الكثير من الطاقات والإمكانيّات والقدرات، ولذلك فهم قادرون قدرةً كامنة على الوصول إلى أيّ مكانةٍ يشاؤونها في عالم اليوم، وهم قادرون على أن يكوّنوا أمّةً عزيزة مقتدرةً ومستقلّة يهابها ويحترمها العالم كلّه، ولكن شريطة تمسّك بدينهم وبالتوحيد الذي يجمعهم، والتوكّل على الله تعالى والتيقن من العون الإلهيّ، الذي هو وعد إلهيّ لا شكّ في إنجازه { وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ } [الحجّ: ٤٠]، فعلى المسلمين الخوض في غمار العمل والنشاط والسعي وبذل الجهد في ظلّ هذا الوعد الإلهيّ وبالاعتماد عليه.

إنّنا على يقينٍ تامٍّ بأنّ المسلمين إذا ما اتّحدوا واستيقظوا من سباتهم وتعرّفوا جيّداً على أنفسهم، وعلى حقيقة القدرات والمؤهّلات التي يمتلكونها، وعندما يؤمنون بأنّ الواقع الراهن، كائناً ما كانت الصعوبات والتحدّيات التي فيه، فهو واقع يمكن دائماً تغييره نحو الأفضل والأحسن والأكمل، وبأنّهم راشدون وأسياد لأنفسهم، وبالتالي: فلا يحتاجون إلى وصايةٍ أو إشراف من أحد من القوى الخارجيّة والأجنبيّة، بل يمكنهم تحديد خياراتهم بأنفسهم، والإمساك بزمام أمورهم وتحديد مصائرهم، عندئذٍ فقط، سوف تنتهي مصاعب العالم الإسلاميّ، وسوف يعود المسلمون بقوّةٍ إلى أرض الواقع السياسيّ الدوليّ والعالميّ، ليكونوا قوّةً لا مثيل لها، وليتخلّصوا من كلّ أشكال الهيمنة الاستكباريّة عليهم، تلك الهيمنة التي لطالما كرّست الجهل والكسل والفشل في ذهنيّات وسلوكيّات أبناء المجتمعات الإسلاميّة، والتي أيضاً لطالما كانت سبباً

مباشراً في الكثير من المشاكل والآفات، التي ليس أوّلها الفقر والبطالة، ولا آخرها الفساد والتردّي الأخلاقيّ والتحلّل من القيم والتفكّك في الروابط الاجتماعيّة والأسريّة.

إنّ التوسّلات والخضوع والاستسلام والمفاوضات ونحوها من الطرق التي يقترحها البعض بسذاجةٍ على المسلمين، كلّ هذه، لن تحلّ شيئاً من الأزمات التي يعيشها المسلمون اليوم، ولن تخلّصهم من مآسيهم؛ ذلك لأنّها طرق تدفع بهم نحو المزيد من التبعيّة والارتهان للغير، ونحو المزيد من الانكسار النفسيّ الملازم لهدر الطاقات والثروات والإمكانيّات الداخليّة والنفسيّة.

العلاج ـ فيما نراه ـ يكمن في شيء واحد فقط، وهو اتحاد المسلمين، وإصرارهم على التمسّك بإسلامهم، الذي هو أغلى ما يملكون، وبالقيم والمبادئ الإسلاميّة التي تقدّم لهم عوناً كبيراً على صعيد المقاومة والمواجهة إزاء الضغوط والشدائد، وسحب البساط من تحت أقدام الأعداء على المدى البعيد.

إنّ الحلّ بالنسبة للعالم الإسلاميّ اليوم يكمن في العودة إلى الإسلام، وفي التركيز على الجانب المعنويّ، الذي يختصر إنسانيّة الإنسان، ويجسّد حقيقته وقيمته الواقعيّة، وفي إعادة تكريس الأحكام الإسلاميّة الأخلاقيّة والعمليّة بوصفها عنصراً فاعلاً وحيّاً على ساحة العمل والتطبيق، إلى جانب الاتّحاد والانسجام والتنسيق التامّ بين المسلمين، هذا الاتّحاد الذي هو بحدّ ذاته واحد من أهمّ دساتير الإسلام وأحكامه، حيث شدّد الإسلام على الوحدة بين المسلمين والابتعاد عن البغضاء والأحقاد والتفرقة وكلّ ما يكدّر صفو العلاقات فيما بينهم.

الفضيّة التاسعة: ضرورة استعادة الأمّة ثقتها بنفسها:

منذ أن وُلدت الأمّة الإسلاميّة حتى انبثقت معها منظومة ثقافيّة وفكريّة

حملت في طيّاتها عقيدتها وأخلاقها وآمالها ومسار حركتها الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة.. علماً بأنّ الثقافة مصطلح حديث يُراد به كلّ ما يميز الأمة في فكرها ومشاعرها وتعاملها مع الكون والحياة، فهي ما يحكي حقيقةً عن هويّة الأمة ومظهر أصالتها، وهي المعبّرة عن وجودها وحياتها.

وعلى مرّ العصور، تعمّقت هذه الثقافة وتجذّرت في المجتمع الإسلاميّ شيئاً فشيئاً، واتّسعت دائرتها بعد أن أخذت جهود المسلمين في مجال الفكر والتجارب والدراسات العلميّة تغذّيها وتزيدها عمقاً وتجذّراً.

يُضاف إلى ذلك: تلك المرونة المتميّزة والاستثنائيّة، التي يمكن اعتبارها من أبرز خواصّ وملامح الثقافة الإسلاميّة، حيث إنّها مرونة، في عين أنّها لا تخدش مبدأ الأصالة والعراقة ولا تتنكّر لمكوّناتها الثقافيّة والحضاريّة الأصيلة، في عين ذلك، لا يعيقها شيء عن الانفتاح الفاعل على الثقافات الأخرى، ونريد من الانفتاح الفاعل: الانفتاح الإيجابيّ، الذي لا يقتصر دوره على الانفعال وردّة الفعل، بل يعمل على وفق انتقائيّةٍ مدروسة بشكلٍ منهجيّ وموضوعيّ ومنطقيّ، انتقائيّة عقلانيّة أقرّتها القاعدة القرآنيّة في قوله تعالى: { ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ } [الزمر: ١٨]..

ومن الواضح: أنّ أحد أهمّ العوامل التي لعبت دوراً حاسماً في صيانة الثقافة الإسلاميّة على مرّ التاريخ يتمثّل في اعتزاز المسلمين وأبناء هذه الأمّة بهويّتهم، وإحساسهم بمكانتهم وبمسؤوليّتهم على الساحة العالميّة، فهم ـ من وجهة نظرهم التي يستندون فيها إلى تجارب عصر صدر الإسلام، وإلى وعيهم لما يمكن للشريعة الإسلاميّة أن تتركه من آثار ـ قادة مسيرة البشريّة على طريق كلّ كمال إنسانيٍّ وعلميّ، وهم فوق ذلك: هداة، ودعاة، وهم الأمّة الشاهدة على بقيّة الأمم، وهم أمّة الوسطيّة والاعتدال في حركة التاريخ... من دون أن يستلزم ذلك الانغلاق على ما عند الآخرين من العلم والمعرفة والفكر

والحضارة، ولو كان في أقاصي الأرض، ومهما كانت المسافات التي تفصل فيما بينهم، كما في الحديث المشهور عن رسول الله ' : «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى بعضه تداعى سائره بالسهر والحمّى»[٢]..

غير أنّ ظروفاً وتعقيدات كثيرة تاريخيّةً وثقافيّةً وغيرها أدّت إلى أن يعيش المسلمون في القرون الأخيرة عصوراً مكفهرّة مظلمة تسودها الهزائم والخيبات المتتالية، وعلى المستويات كافّةً: العسكريّة والسياسيّة والاقتصاديّة والعلميّة..

ولكنّ الأفظع من ذلك كلّه: هو انهزامهم النفسيّ أمام التيّارات والاتّجاهات الفكريّة الأُخرى، فقد أدّى تقلّبهم من هزيمة إلى هزيمة إلى أن يفقدوا إحساسهم بالعزّة والانتماء، وإلى أن تُفارقهم مشاعر الافتخار بالهويّة الإسلاميّة الأصيلة المتميّزة، ليفقدوا بذلك شعورهم بالمكانة والدور والمسؤوليّة التي هم جديرون بها..

وبديهيّ أنّ ارتكاساً وانهزاماً نفسيّاً كهذا من شأنه أن يمعن أكثر فأكثر في دفع تلك الأمّة إلى مهاوي اليأس والقنوط وانعدام الثقة بالنفس، ما يجعلها تقتنع بأنّها أمّة هامشيّة، لا تمتلك المؤهّلات الكافية، ولا الموارد والطاقات اللّازمة، وبالتالي: فيجب عليها لأجل المحافظة على حياتها أن تستعين بالغرب تارةً، وبالشرق أُخرى، وهو عبارة أُخرى عن ارتهانها للقوى العظمى، وتحوّلها إلى أمّةٍ لا تنتج، بل تستهلك ما ينتجه لها الغير، ولا تفكّر، بل تتلقّى بالقبول كلّ ما يفكّر به الغير..

وقد كانت هذه الهزيمة النفسيّة نتيجةً لـ (غزو ثقافي) مدروس ومخطّط له، جنّد له الغزاة والمستعمرون القدامى جيشاً جرّاراً، ولكن من نوع آخر، هو ليس جيشاً من العسكريّين والمتمرّسين في ساحات القتال، وإنّما هو هذه المرّة جيش من الإعلاميّين ووسائل الإعلام والمستشرقين والأدباء والكتّاب وأصحاب الفنون والمتخصّصين في الدراسات والاستشارات النفسيّة والاجتماعيّة.

هذا الغزو الثقافيّ شكّل غنيمةً بحقّ للقوى الكبرى، حيث كفاهم مؤونة ما كانوا يتكلّفونه من الغزو العسكريّ والمرهق لما كان يجرّه من حروبٍ باهظة الكلفة، وما كان يستتبعه من أحقادٍ وما يستثيره من مشاعر الكراهية للمستعمرين من قبل الشعوب المستعمَرَة والمحتلّة؛ بل إنّ الغزو الثقافيّ أيضاً تقدّم خطوات كثيرة إلى الأمام، حيث جعل المسلمين يقبلون، وعن قناعة بضرورة الخضوع إلى تلك القوى الكبرى واستجدائها، والعيش على فتات موائدها، وصولاً إلى المحاربة تحت لوائها، والتآمر معها حتى على من هم إخوتهم في الوطن والدين!!

وعلى هذا الأساس، ومن خلال قراءة ما يجري حولنا في العالم من أحداث نرى أنفسنا في مواجهة فرصةٍ ذهبيّة قلّ نظيرها، فاليوم تعود إلى الواجهة مفردات الانتصار والصحوة والنهوض والوعي وما إلى ذلك، وتعود مع هذه المفردات تلك المشاعر القديمة التي كادت أن تُدفن للأبد، المشاعر بالعزّة الإسلاميّة وبالفخر بالانتماء إلى هذا الدين، تعود لتتأجّج في النفوس والقلوب، وتعود معها نسائم الثقة بالنفس من جديد، وهو ما نراه السبيل الوحيد لعودة الأمّة إلى طريق العزّة والكرامة والحرّيّة والسيادة، والسبيل الوحيد للتخلّص من هذا الغزو الثقافيّ الذي كاد أن يأتي على مستقبل المسلمين وأملهم بحياة أفضل في ظلّ تعاليم الدين الإسلاميّ.

لذلك فإنّنا نحثّ الجميع، كلّ من موقعه، وبحسبه، على ضرورة التفكير مليّاً في كيفيّة استغلال هذه الفرصة السانحة، وعلى أكمل وجه، فالفرص لا تُعطى للإنسان المرّة تلو المرّة، بل هي تزوره، فإن تلقّفها وتشبّث بها، مكثت، وإلّا، رحلت إلى غير رجعة.

ونكتفي بهذا المقدار من القضايا الاستراتيجيّة والحسّاسة التي نرى من اللّازم على جميع المسلمين أن يمتلكوا الوعي الكافي تجاهها واتّخاذ مواقف

متقاربة ومنسجمة ومدروسة بشأنها.

والحمد لله أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً...

* * *

الهوامش:

(١) انظر: الشيخ الكليني، ثقة الإسلام، محمّد بن يعقوب، أصول الكافي ٢: ٣٢٧، باب من يتّقى شرّه، الحديث رقم ٤، تحقيق وتصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، الطبعة الرابعة، ١٣٦٥ هـ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران.

(٢) انظر: المجلسيّ، المولى محمّد باقر، بحار الأنوار ٥٨: ١٥٠، تحقيق: محمود الباقر البهبوديّ، الطبعة الثانية المصحّحة، ١٤٠٣ هـ، ط مؤسّسة الوفاء، بيروت، لبنان.

ميادين الجهاد

ومقوّمات إدامته

الأستاذ: شهاب الدين محمّد الحسيني (*)

تمهيد

المعركة مع الطواغيت مفروضة على المجاهدين ولا يمكن لهم أن يتّقوها ويتجنّبوها إلاّ بالحذر الدائم والمواصلة الدائمة للجهاد والثبات في كلّ جوانب المعركة وفي كلّ أزمانها؛ لأنّ الطواغيت لن تتركهم إلاّ أن يتركوا منهجهم كلّيّةً ويعودوا إلى منهج الطواغيت، منهج الجاهلية والانحراف والرذيلة، فالطواغيت لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقلّ، والطواغيت لا يطلبون منّا أن نكفّ عن طرح متبنّياتنا الإسلامية، ولا يطلبون منّا أن ننزوي عن الميدان فحسب، ولكن يطلبون منّا أن نعود إلى ملّتهم وأن نذوب في منهجهم ونندمج مع كيانهم، فقد تغيّرت أهدافهم المعلنة وغير المعلنة، فإذا كانوا يكتفون من الإسلام بأن يكوّن علاقة فرديّة بين الإنسان وخالقه، فهم الآن وبعد أن أصبح الإسلام قوّةً كبرى، لا يريدون حتّى العلاقة الفرديّة بين

(*) باحث إسلاميّ/ العراق.

الإنسان وخالقه؛ لأنّ هذه العلاقة ستكون مقدّمة لإعداد العدّة والقوّة لكي يتّخذ المسلمون موقعهم الحقيقي في قيادة البشرية والتمهيد للدولة الإسلامية العالمية التي يقود زمامها المهديّ المنتظر عجل الله فرجه الشريف.

التوحيد أساس المفاصلة والجهاد

إنّ إعلان كلمة (لا إله إلا الله) يفهمها الطواغيت أنّها الثورة وأنّها الجهاد عليهم وعلى كلّ أنواع الجاهلية والظلم والانحراف، وإذا فقدت هذه الكلمة العظيمة مدلولها الحقيقي لدى أغلبية المسلمين، وخصوصاً بعد سيطرة الكفّار والطواغيت على بلادنا الإسلامية في بداية هذا القرن، فإنّها عادت من جديد إلى واقعها الحقيقي، وهي الخطر المحدق بكلّ ركائز الطواغيت في بلادنا.

فإذا كان الطواغيت يرون أنّ الحول والقوّة بأيدهيم، فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله.

وإذا كانوا يرون أنّ الضرر والنفع بأيديهم، فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا ضارّ ولا نافع إلاّ بإذن الله.

وإذا كانوا يرون أنّهم يدخلون الخشية والخوف في قلوبنا فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا خشية ولا خوف إلاّ من الله.

وإذا كانوا يرون أنّهم المشرّعون، فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا مشرّع إلاّ الله.

وإذا كانوا يرون أنّهم الحكّام على الناس، فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا حاكم إلاّ الله.

وإذا كانوا يرون أنّ الأرض ملك لهم بخيراتها ومعادنها، فإنّ (لا إله إلاّ الله) تعني: لا مالك إلاّ الله.

فالمعركة إذن قائمة ما دمنا مع الله وما داموا مع الشيطان، ولا يمكن الالتقاء في منتصف الطريق.

ميادين الصراع

بعد الصحوة الإسلامية وظهور التيار الإسلامي كقوّة عالمية، وبعد اتّحاد جميع القوى الطاغوتية لمنازلة الإسلام ومطاردته والقضاء عليه، علينا أن نكون على حذر دائم وجهاد دائم لكي تبقى راية لا إله إلاّ الله محمد رسول الله خفّاقة في أرجاء الأرض، وأن نعدّ العدّة المادية والمعنوية لنخوض الصراع في جميع ميادينه: ميدان النفس والفكر، وميدان الحضارة والنظم، وميدان الجهاد المسلّح.

فعلينا أن نعمل ونجاهد لنؤدّي ما علينا من مسؤولية شرعية، لكي نفوز برضوان الله تعالى، ولا نفكّر بالنصر المادّي فقط، وأن لا نفكّر بالربح والخسارة، فالذي يؤدّي واجبه الشرعي فهو الذي ربح التجارة الحقيقية مع الله.

إنّ حساب الربح والخسارة الظاهرية والمادّية والذاتية يصلح للتجارة ولكنّه لا يصلح للعقيدة وللمنهج الربّاني، فالعقيدة حقّ نعتنقها لذاتها، والمنهج الربّاني حقّ ننتمي له لذاته، وكلّ منهما يحمل جزاءه في ذاته.

وعلينا أن لا نقصر النصر والنجاح على صورته الظاهرية المعهودة لدى أغلب بني الإنسان، وإنّما نترقّى إلى صورته الحقيقية، وهي تقرير مبادئ الإسلام وقيمه في الحياة وأداء المسؤولية الشرعية فهي النصر الحقيقي، فالإسلام منتصر ما دمنا نحمله عقيدة ومنهجاً وسلوكاً.

إدامة الجهاد

الصمود والصبر من ضرورات الجهاد في جميع مراحله وظروفه، فيجب أن نكون على مستوى رفيع من الارتباط بالله والتوكّل عليه، وأن نندكّ بالإسلام اندكاكاً حقيقياً في ساعات اليسر والعسر والرفاه والشدّة، وأن تكون جميع تصوّراتنا وأخلاقياتنا إسلامية، وعلينا أن نجاهد في كلّ الميادين، أن نجاهد

أنفسنا، وأن نجاهد أعداءنا، وأن نستمرّ في الجهاد مهما طال الطريق وبَعُد الهدف؛ لأنّ ذلك هو سنّة المجاهدين في طريقهم الشاقّ الطويل، وإنّ المسؤولية عظيمة، ونحن وحدنا أمام كلّ قوى الشرّ والعدوان {وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩]، {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ} [آل عمران:١٤٢]، فالله سبحانه وتعالى يأمرنا بأن نجاهد دون ضعف أو كلل أو ملل، ودون وهن أو ضعف، ودون تراجع أو تردّد، ودون أن نحيد أو نميل عن الحقّ؛ لأنّنا الأعلى دائماً، وأعداؤنا لا يتوقّفون عن ممارساتهم اتجاهنا، وإنّهم يملكون كلّ وسائل المعركة، من قوّة عسكرية واقتصادية وإعلامية واستخباراتية وتقنية، فلا بدّ لنا أن نجتاز كلّ المعوقات التي يعيقوننا بها عن طريق الحقّ والفضيلة، ولا بدّ أن نواجه جميع أساليبهم الماكرة بالارتباط بالله واستمداد العون منه والتغلّب على جميع هواجس النفس التي تدعونا إلى الراحة والرخاء والانعزال عن ميادين الصراع، وأن نعيش حياة هامشية، نأكل ونشرب وننام، وإذا ركنّا إلى الراحة فما هي إلاّ راحة ظاهرية، فلو تسلّط علينا أعداء الإسلام فإنّنا سنفقد كلّ شيء حتّى أكلنا وشربنا ونومنا، وسنكون عبيداً أذلاء. وهذا لا نقبله ولن نقبله ما دمنا على الحقّ والله معنا.

وبما أنّنا نريد القضاء على الفساد والانحراف، الفساد في التصوّر، والفساد في الضمير، والفساد في السلوك، والفساد في الروابط والمعاملات، والفساد في السياسة والاجتماع والاقتصاد، فهذا يعني إعلان الحرب على كلّ أعداء الإسلام، من المستكبرين وعملائهم الذين يتّخذون المنهج الطاغوتي منهجاً لهم في الحياة، فإنّهم سيقفون بكلّ قواهم لإبقاء الفساد وتعميمه في كلّ الأرض وسيدافعون بكلّ ما لديهم، بل سيدافعون بتخطيط جديد وإمكانيات جديدة، كما يدافع الكائن الحيّ عن نفسه حينما يهدّده خطر الموت، فمسؤوليتنا عظيمة،

ولا بدّ أن نتحمّل تكاليف هذه المسؤولية، وأن نثبت ونستقرّ على قاعدة ثابتة ونهجٍ ثابت لا يتخلّف ولا يتزحزح ولا يتأرجح، الثبات بلا قلق ولا زعزعة، وأن نكون على ثقة بوعد الله الحقّ في انتصار الإسلام على الكفر، والحقّ على الباطل، والاستضعاف على الاستكبار، وأن نجتاز كلّ ما يعيق هذا الانتصار من عقابيل وعراقيل تمتدّ إلى أنفسنا وقلوبنا لتزرع فيها اليأس، وأن ننجح في كلّ مراحل الصراع، وأن نضع لكلّ أسلوب من أساليب المعركة أسلوباً يجعلنا ثابتين على النهج، ومستمرّين إلى نهاية الشوط.

أساليب الصراع

الإسلام واضح لا لبس فيه ولا غموض... إنّه دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ. إنّه إنذار لإيقاظ القلوب الحيّة المستعدّة لتلقّي العقيدة والمنهج المستقيم. إنّه دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلى عقيدة لا لفّ فيها ولا دوران. والمسلم والمجاهد يجاهد لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح الإسلام للمجاهدين أن يستخدموا الوسيلة غير الشريفة في عملهم التغييري والجهادي؛ لأنّهم يملكون الحجّة الواضحة على حقّهم، أمّا أعداء الإسلام من مستكبرين وطواغيت، فإنّهم يتمسّكون بكلّ الشبهات والألاعيب والأساليب الملتوية من أجل سيادة عقائدهم الفاسدة؛ لأنّهم لا يملكون حجّة ولا برهان على باطلهم، فهم لا يتورّعون عن استخدام أيّ أسلوب يرونه ناجحاً في تحقيق مآربهم، فأسلوب الإسلام واحد، وهو الاستقامة والموعظة الحسنة وأساليب أعدائه متعدّدة بتعدّد الممارسات الشيطانية، ومن هذه الأساليب:

الخداع والتضليل والدعاية

حينما يصدع المسلم بالحقّ ويدعو إلى الله وإلى إقرار عقيدته ومنهجه في حياة

الإنسان سينتفض الطواغيت لإيقاف هذا الصدع وتحجيمه في مهده، فيقومون بخداع المستضعفين ومن ليس لهم قوّة عقلية وفكرية، وسيضلّلون من يرغب في حياة كريمة من أجل أن يغلقوا أبواب الفطرة بوجه المسلم فيبدؤون بالدعاية ويتفنّنون في إشاعتها من أجل أن تجد لها مجالاً في أسماع الناس وفي عقولهم وقلوبهم من أجل أن لا يكونوا قاعدة للمنهج الحقّ، وتبدأ الدعاية لتحجيم المسلم الرسالي، ويبدأ التشوية للإسلام كعقيدة ومنهج ونظام للحياة، ثمّ التشوية للأهداف والأغراض، ثمّ التشويه للمسلم الرسالي وإلصاق التهم به، وتشويه سمعته أمام الناس عن طريق اتّهامه بشتّى أنواع التهم التي يمكن أن تدخل في قلوب الجهلاء، تهمٌ في نواياه، وتهمٌ في أخلاقه، وتهمٌ في عائلته، لكي يكونوا محلّ استهزاء وسخرية، ولكي ينشغل عن مسؤوليته بدفع الاتهامات وتفنيدها أو التحجّم والانحسار والانعزال وترك المسؤولية حينما يرى أنّ المكذّبين له والمشوّهين لسمعته هم الذين يريد إنقاذهم من الضلالة ويعمل من أجل إسعادهم في الدنيا والآخرة؛ لأنّ تكذيب الصادق مرير على النفس، والتكذيب حالة وأسلوب راسخ للطواغيت وأتباعهم، وقد رافق كلّ مراحل الصراع في كلّ زمان ومكان.

قال تعالى: { وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ }[الحج: ٤٢ـ ٤٤]، وقد اتّهم مشركو قريش النبيّ الأكرم ' بشتّى أنواع التهم، واتّهم أمير المؤمنين عليه السلام من قبل المنافقين بأنّه يكذب على رسول الله، وأنّه يريد التسلّط على المسلمين، واتّهم بأنّه لا يصلّي، واتّهم الحسين عليه السلام بأنّه خارجي، وأنّه يريد أن يشقّ صفوف المسلمين بعد وحدتها!

وهكذا كانت التهم موجّهة إلى جميع الرساليين على مرّ التاريخ.

وفي عصرنا الراهن، أصبح للدعاية وللإشاعة مراكز متعدّدة، وجنّد

الطواغيت لذلك عدداً كبيراً من الصحفيين ومن أصحاب الاختصاصات في علم السياسة وعلم النفس وعلم الاجتماع، واستخدموا جميع وسائل الإعلام من مذياع وتلفاز وصحف ومجلات لتمرير أكاذيبهم وإشاعاتهم ضدّ الإسلام وضدّ العاملين المجاهدين قيادةً وكوادر وقواعد، فاتّهموا الإسلام بأنّه فكر رجعي يخالف العلم والحضارة والمدنيّة، واتّهموا قادة الإسلام والمجاهدين بالرجعية والعمالة، وفي خضمّ تلك الأحداث قد يرى المجاهد نفسه وحيداً في معترك الصراع، يتحرّك في مجتمع لا يستمع له ولا يتقبّل منه ناهيك عن الاستهزاء به واتّهامه في عقيدته وسمعته، فلا بدّ وأن يستمرّ على نهجه؛ لأنّه مرتبط بالعليّ الأعلى، ويعمل من أجل إعلاء كلمة الله في الأرض بخطىً واثقة ومستقيمة، ولا يتوقف؛ لأنّه يستمدّ القوّة والعون والإسناد من الله تعالى، وأنّ الله سيرعاه في كلّ الأزمات ويكون عوناً على طول الطريق، {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ }[الأنفال:٣٠].

فيبقى صامداً؛ لأنّ مكر الذين يعادون الإسلام قصير، وستنكشف مخطّطاتهم، وسيلتفّ الناس حول العامل للإسلام والمجاهد في سبيله، وهذا هو النصر الحقيقي في ميزان الله تعالى.

فالإسلام يدعو المجاهد إلى عدم الضعف وعدم الوهن، ويدعوه إلى الإعراض عن الجاهلين، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فتكون العاقبة له، وقد صوّر أحد العلماء المجاهدين مسيرة العاملين والمجاهدين وتخطّيهم للصعاب وصمودهم أمام التكذيب في شعرٍ رسالي، جاء في بعضٍ منه:

ثمّ عدنا وابتدأنا دربنا عبر الرسالات العظيمة...
وخطونا نحوها أوّل خطوة وأثرنا الوعي في عزم وقوّة...
فالتقينا بالأساليب القديمة بحكايات أبي جهل اللئيمة...
بتعابير جديدة وضلالات عنيدة إنّها دعوة رجعيّ مكابر...

إنّه الأفيون قد جاء لتخدير الضمائر...
غير أنّا سوف ندعو للأساليب الكريمة...
وستندكّ مع الفجر الأساليب القديمة...

الإغراء

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أيّها الناس، إيّاكم وحبّ الدنيا، فإنّها رأس كلّ خطيئة، وباب كلّ بليّة، وقران كلّ فتنة، وداعي كلّ رزيّة**»[1].

العامل للإسلام، والمجاهد في سبيل الله، ليس ملاكاً من الملائكة، ولا هو معصوم من المعصومين، وإنّما هو إنسان متكوّن من عقل وشهوة، وإنّ الله ألهم نفسه فجورها وتقواها، ففيه عناصر الخير وعناصر الشرّ في آنٍ واحد، ولديه الرغبة في التمتّع بالحياة الدنيا بما فيها من طعام وشراب ومال وأملاك وجنس ووجاهة ورئاسة، وهذه مغريات تستجيب لها الغريزة، وهي أمور لا محذور فيها إن أُشبعت عن طريقها المشروع، وهي محذورة حينما تلتبس بالحرام أو تكون مقدّمات الحصول عليها من الحرام.

وسيبقى الإنسان عرضةً للانزلاق في مهاويها، وهي الثغرات التي يتصيّدها الطواغيت للنفوذ إلى داخل نفس العاملين والمجاهدين، وهي أسلوب خطر يلوّح به الطواغيت، وهي مقدّمة قد تصل بالإنسان العامل للإسلام لأن يترك واجبه الشرعي في العمل للإسلام أمام هذه الإغراءات التي يقدّمها له الطواغيت، وقد لا يكتفون منه بتركه لمسؤوليته وإنّما يستمرّون بالإغراء لكي يكون طريقاً للانحراف الكامل، وهو التخلّي عن الإسلام كليةً والاندماج في منهج وكيان الطواغيت.

والعامل للإسلام والمجاهد في سبيله قد يجد نفسه أحياناً بلا مال، وبلا مأوى، وليس لديه زوجة يسكن إليها، وليس له مصدر عيش يقوّم به حياته،

وقد يمرّ بضائقة مالية لا يستطيع أن يحصل على لقمة العيش له ولعائلته ولأطفاله، ويجد الآخرين يتنعّمون بكلّ نعم الحياة وهو محروم من أبسط مقوّماتها، فقد تضغط عليه الحاجة لكي يشبعها، ويدبّ فيه الوهن والضعف النفسي ويستسلم داخلياً لهذه الضغوط ويجد من يلبّيها له فينجرف وراءها.

فعلى المسلم الرسالي أن يحصّن نفسه دائماً من ذلك، وأن يزن الأمور بالميزان الشرعي، وأن يشبع حاجاته من طريقها المشروع، وأن لا تغرّه الحياة الدنيا، وأن لا يهن ولا يضعف أمام مغرياتها، ويتمّ ذلك التحصين بالارتباط بالله تعالى والاستمساك بحبله المتين، وأن يكون ذاكراً لله في كلّ الأحوال، وأن يطلب منه العون ليصارع مغريات الحياة، وأن يدعوه تعالى لتثبيته على الاستقامة، وأن يقتدي بالأنبياء والأئمة والصالحين في سيرتهم، وأن يلتزم بتعاليم القرآن الكريم وتعاليم المعصومين عليهم السلام، وأن يكون على حذرٍ دائم من الدنيا. قال رسول الله ' :«**لتأتينّكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم كما تأكل النار الحطب**»[٢]. وأن يتذكّر دائماً أنّ الدنيا زائلة، وأنّه خُلِق للآخرة ذات النعيم الدائم، فعليه أن يأخذ من الدنيا ما يحتاجه لكي يواصل طريقه ضمن تكليفه ومسؤوليته الإلهية: { ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ } [الحديد:٢٠].

فالرسالي لا بدّ له أن يرتبط ارتباطاً حقيقياً بالله تعالى، ويتعالى على الإغراءات الدنيوية، وأن لا يشبع حاجاته إلاّ بالطريق المشروع، وأن يعلم أنّ الدنيا دار بلاء واختبار، وعليه أن يجتاز ذلك الاختبار بنجاح، فلا تغرّنا مغريات الطواغيت لأنّها زائلة، وإذا انجرفنا وراءهم وتركنا مسؤوليتنا فإنّهم سيسيطرون على ثرواتنا، ويبتزّوا أموالنا وأملاكنا ويجعلونا مستهلكين لبضائعهم التي مصدرها الموادّ الخام من بلادنا والتي يستثمرونها لصالحهم،

وهذا هو حال أغلب مجتمعات المسلمين، والواقع يؤكدّ هذه الحقيقة.

إضافةً إلى ذلك فإنّ كثيراً من الهامشيين الذين غرّتهم الحياة الدنيا وركنوا إلى الراحة وأطاعوا الطاغوت، عاد الطاغوت إليهم ليبتزّ أموالهم، إمّا عن طريق الضرائب أو التبرّعات الإجبارية لمشاريع الطواغيت الإعلامية والعسكرية وهدر طاقاتهم وممتلكاتهم في معارك ليست في صالحهم، وإنّما هي في صالح الطاغوت ورغباته الطائشة.

فالحذر الحذر من الإغراءات، والحذر الحذر من الوهن والضعف والاستكانة. فلتكن الدنيا مهانة لدى الرساليين؛ لأنّ من أهان الدنيا هنّأه الله العيش الكريم وأعزّه فيها وفي الآخرة.

المساومة وأنصاف الحلول

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون].

الإسلام إسلام، والكفر كفر، والحقّ حقّ، والباطل باطل، والاستقامة استقامة، والانحراف انحراف. والفارق بينهما بعيد، فلا لقاء ولا التقاء من ناحية العقيدة والتشريع، فهما نهجان مختلفان وطريقان متناقضان، والعلاقة بين أتباع الإسلام وأتباع الطاغوت علاقة انفصال تامّ لا التحام فيه، وافتراق لا التقاء فيه، واختلاف لا تشابه فيه. وإنّ المسلم الرسالي هنا وهم هناك، فلا جسور بينهما ولا قناطر للعبور.

وقد تمرّ على الطاغوت ظروف تدفعه لأن يغيّر من أساليبه التي لا تجدى نفعاً مع المسلم الرسالي، ويلتجئ إلى أسلوب المساومة وأنصاف الحلول حينما يرى أنّ المسلم الرسالي والجماعة الإسلامية بدأت تشقّ طريقها متجاوزةً كلّ

المعوّقات فيلتجئ إلى هذا الأسلوب، فيطلب من الرسالي العامل والمجاهد فرداً كان أو جماعة تعديلات بسيطة وطفيفة في العقيدة أو التشريع أو الموقف لكي يتمّ اللقاء في نقاط مشتركة بعد حصول التعديلات، وقد ينخدع البعض بذلك فيرى أنّ الخير يكمن في الالتقاء مع الطاغوت في منتصف الطريق وضمن المساحات المشتركة أو المصالح المشتركة، ويوهمه عقله القاصر بأنّه يمكن تطبيق الإسلام وإنقاذ المجتمع الإسلامي، وأنّ إحياء المعالم الإسلامية يتمّ بالتنازل عن الجزء لكسب الكلّ، فينجرّ وراء ذلك ويتنازل عن الجزء البسيط والطفيف، ويرى أنّه سيصل إلى هدفه المنشود، فإذا وجد الطاغوت أنّ التنازل بدأ يدبّ في نفسية ومشاعر وعقل المسلم الرسالي يبدأ باستدراجه حتّى يتنازل تنازلاً كلياً؛ لأنّه كلّما تنازل في جزء مقابل تنازل الطاغوت سيتنازل في الجزء الآخر وهكذا، والتنازل في الجزء الضئيل والبسيط ثغرة للطاغوت وثغرة لأعداء الرسالة وثغرة للجهلاء وأصحاب المصالح، وهو هزيمة روحية يفقد من خلالها الرسالي هيبته أمام أتباعه وأمام الناس الذين يتحرّك في وسطهم.

وإنّ هذه الهزيمة لا يمكن أن تحقّق النصر نهائياً، ولا يمكن أن يكون عمل الطاغوت مقدّمة للانتصار.

فلا مساومة، ولا أنصاف حلول، ولا مداهنة، ولا لين مع أعداء الإسلام وعملائهم في مجال العقيدة والتشريع والموقف، وفيما عدا ذلك فالرسالي أليَن الخلق جانباً، وأحسنهم معاملةً، وأبرّهم بالناس، وأحرصهم على الحبّ والصفاء لبني الإنسان، فليكن الارتباط بالله تعالى والالتزام بأوامره والانتهاء بنواهيه هو الطريق الوحيد لتحقيق الهدف وأداء المسؤولية.

ويختلف الموقف من ظرف لآخر، فلو كان للإسلام دولة فلا مانع من إقامة العلاقات السياسية والاقتصادية مع الدول غير الإسلامية وفق الموازين الشرعية. أمّا إذا لم تكن للإسلام دولة، وكان المسلم الرسالي في دروب الجهاد

والعمل التغييري، فإنّ موقفه يختلف، وإنّ أيّ علاقة مع غير المسلمين وخصوصاً الدول الكافرة ودول الطواغيت مرفوضة رفضاً قاطعاً لا يقبل المناقشة.

فالنصر المادي أو المعنوي أو كلاهما حقّ للمسلمين، وهو من الله العزيز الحكيم، ولكن ضمن أسبابه الطبيعية من العمل الجادّ والجهد الدؤوب، وهو حقّ يؤخذ ولا يمنح من قبل الآخرين، ولا يمكن تحقيقه بالمساومة والوهن والاستكانة.

المحاصرة والمقاطعة والتهجير

قال تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ } [البقرة].

لا يتورّع الطاغوت عن استخدام أيّ أسلوب يراه مناسباً لإيقاف مسيرة العاملين والمجاهدين، ولا تأخذه أيّ رحمة ولا رأفة. ومن هذه الأساليب: المحاصرة والمقاطعة أو التهجير من البلاد. فالمحاصرة تكون في جميع المجالات، خصوصاً في الجوانب المقوّمة للحياة الطبيعية والتضييق عليهم في لقمة العيش والمسكن، ابتداءاً بطردهم من أعمالهم ووظائفهم وطرد ذويهم وأقاربهم والمتعاطفين معهم، وانتهاءاً بمصادرة أموالهم أو هدم دورهم، ثمّ مقاطعتهم اجتماعياً عن طريق منع وتخويف أبناء المجتمع من اللقاء بهم وإقامة العلاقات معهم من أجل إعاقتهم لكي لا يستمرّوا في تحرّكهم وجهادهم ومن أجل إضعاف روحيّتهم وإسقاط الهمّة في نفوسهم ودفعهم للتنازل الداخلي عن كرامتهم.

وفي خضمّ ذلك يتمحّص المؤمنون، فيصمد من يصمد، ويتنازل من يتنازل،

ولا يتنازل الذي جعل كلمة الله هي العليا في عقله وضميره وشعوره، وارتبط بالله ارتباطاً حقيقياً، واستمدّ العون والإسناد من الله تعالى، ووطّن نفسه لتحمّل تكاليف المسؤولية؛ لأنّ الطاغوت لا يمكن له أن يستذلّ الناس إلاّ برغبةٍ منهم؛ لأنّ لديهم القابلية على الإذلال، ولكن لا يستطيع إذلال من استعان بالله وصبر وصمد وواصل الطريق الشائك، طريق العزّة والكرامة والإباء، واقتدى بالسلف الصالح من الرساليين الذين صبروا وواصلوا الطريق.

واستخدم الطواغيت التهجير لصدّ الرساليين عن هدفهم عن طريق إبعادهم عن الناس وإبعادهم عن وطنهم، ولكنّ من يستعين بالله يجعل الله له مخرجاً، وسيستثمرون الموطن الجديد لمواصلة العمل في سبيل الله إلى أن يحكم الله، والله خير الحاكمين.

تفتيت الوحدة وشقّ الصفّ

قال لويس التاسع ملك فرنسا: «إنّه لا يمكن الانتصار على المسلمين من خلال الحرب، وإنّما يمكن الانتصار عليهم بواسطة السياسة باتّباع ما يلي: إشاعة الفرقة بين قادة المسلمين، وإذا حدثت فليعمل على توسيع شقّتها ما أمكن حتّى يكون هذا الخلاف عاملاً في إضعاف المسلمين»[٣].

وقال أرنولد توينبي: «إنّ الوحدة الإسلامية نائمة، لكن يجب أن نضع في حسابنا أنّ النائم قد يستيقظ»[٤].

يتصيّد الطواغيت كلّ حجّة وكلّ شبهة لينفذوا منها إلى الطعن في صحّة الرسالة وصحّة عمل الرساليين لكي يبلبلوا الأفكار ويشيعوا الاضطراب في العقول والقلوب، وإنّ أفضل الثغرات هي الفرقة والتمزّق، فإذا حدثت في داخل الصفّ الإسلامي، سواء كان سببها من داخل الصفّ الإسلامي كقلّة الوعي والتعصّب وانحراف السلوك وحبّ الوجاهة، أم من خارج الصفّ

الإسلامي من الطواغيت وعملائهم، فهم يعملون على توسيع التمزّق والنفخ في نار العداوة والخلافات وإشغال العاملين بعضهم ببعض وإبعادهم عن هدفهم الحقيقي وحرف مسيرتهم.

فعلى العاملين والمجاهدين أن يوحّدوا صفوفهم وأن يتعاونوا على البرّ والتقوى لكي يستمرّوا في عملهم وجهادهم، ومن يعتصم بالله تعالى ويتسلّح بالوعي واليقظة والحذر ويترك الخلاف والتعصّب، فإنّه يسدّ الثغرات أمام الطواغيت ويزرع الأمل في نفوس العاملين ويستقطب أفراداً جدد للاندماج في الرسالة الإسلامية والكيان الإسلامي.

الوحدة سلاح المسلمين العاملين والمجاهدين، وإنّ الارتباط بالله تعالى وحده يؤدّي إلى التماسك والتكاتف والتآزر ورفض الوهن والضعف نتيجة التمزّق: { وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ } [آل عمران:١٠٣].

الإرهاب

{ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ } [العنكبوت].

الإيمان بالله تعالى وتقرير مبادئه في الحياة لتجسيد ذلك الإيمان مسؤولية عظيمة وتكليف شاقّ، إنّه أمانة ذات أعباء وجهاد وإنّها سنّة الله في الحياة، ولابدّ من تعذيبٍ وقتل يمارسه الطواغيت بحقّ المؤمنين. فالطواغيت حينما يحسّون بأنّ كيانهم بدأ يتزلزل وبدأت ركائزهم تتهاوى، فإنّهم سيقومون بممارسة شتّى أصناف التعذيب والتقتيل من أجل ردع الخطر المحدق بهم بالقتل الفردي والجماعي وبالإرهاب بكلّ أنواعه وصنوفه، فلا بدّ وأن يعلم العاملون للإسلام والمجاهدون في سبيل الله أنّ طريقهم محفوف بالمكاره، مليء بالأشواك والأشلاء والدماء والقتل والجراح والمثبطات والمعوّقات. إنّها الفتنة

بكلّ حذافيرها، وأنواعها، ومجالاتها، وفي كلّ الأزمان والأمكنة.

فتنة أن يتعرّض المؤمن الرسالي للأذى والتعذيب من سجنٍ ومن تشريدٍ ومن تعذيب جسدي ونفسي، ثمّ لا يجد النصير الذي يناصره والمعين الذي يعينه، ولا المدافع الذي يدافع عنه، ثمّ لا يجد النصرة لنفسه، ولا يجد القوّة التي يواجه بها الطاغوت، ويجد أنّ الطاغوت يقتل المؤمنين بالجملة، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ ويدمّر مدناً بأكملها بمختلف أنواع الأسلحة ويجد نفسه وحيداً في وسط مجتمع لا يعينه، بل قد يقف مع الطاغوت خوفاً او طمعاً أو جهلاً.

فتنة الأهل والأحبّة، فتنة والديه وزوجته وأطفاله الذين يخشى عليهم من الأذى والتعذيب والقتل بسببه، وهو لا يملك قوّة يدافع بها عنهم، وهم يثبطونه عن عزمه ويدفعونه للاستسلام أو المسالمة أو الانزواء عن ساحة الصراع وينادونه باسم الرحم والقرابة والحبّ والحنان.

فتنة الشعور بالوحدة في الطريق الطويل، حيث يرى كلّ من حوله غارقاً في الرذيلة والانحراف ولا يريد النور والإسلام والفضيلة.

فتنة إقبال الدنيا على الطواغيت وكثرة أعوانهم وأتباعهم وكثرة أسلحتهم وتنامي قوّتهم العسكرية والإعلامية والاستخباراتية، وهو وحده مع ثلّة من المؤمنين الذين لا حول لهم ولا قوّة.

فتنة الدولة الغارقة في الانحراف ولكنّها متطوّرة في حضارتها المادية ومتقدّمة في علومها وصناعتها.

فتنة الفتن، وهي النفس ورغبتها الجامحة للخلود إلى الراحة والسكون، تجذبها أثقال الأرض والرغبة في المتاع والسلطان أو في الدعة والاطمئنان وصعوبة الاستقامة على الطريق الطويل الذي يبدو كأنّه بلا نهاية.

فتنة الانتكاسات العسكرية الظاهرية للمؤمنين والانتصار الظاهري

للطواغيت في كلّ ميادين الصراع، وفتنة الذين توقّفوا في منتصف الطريق.

فتنة النكوص، حيث يرى بعض الذي سبقوه في الإيمان وفي الوعي وفي العمل الجهادي، وكانوا قدوة له، يتراجعون عن هدفهم، ويتنصّلون عن مسؤوليتهم، وينحنون أمام الإرهاب، وينثنون أمام التعذيب، وينكصون ويحيدون عن طريق الحقّ، ويسالمون ويستسلمون، بل يتحوّلون إِلَى أعوان للطاغوت وأعداء للمؤمنين.

كلّ هذه الفتن تمرّ به ولا يجد ناصراً ولا معيناً، بل لا يجد سلاحاً يدافع به عن مبدئه وعن نفسه، بل لا يجد مأوىً يركن إليه وينطلق منه للاستمرار في الجهاد وتضيق به الأرض بما رحبت.

الحصن الحصين في مراحل الجهاد

ففي خضمّ هذه الفتن يناديه الطاغوت بالاستسلام حفاظاً على حياته وشبابه ومستقبله الوهمي، فلا يبقى له معين ولا ناصر إلاّ الله تعالى، فهو ركنه الركين وحصنه الحصين، فإذا التجأ إليه نال السعادة في الدنيا وحسن ثواب الآخرة. فالذي يتّصل بالقوّة الكبرى لا تفتنه القوّة العارضة التي لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً، والذي يخشى من القوّة الإلهية لا ترهبه القوّة البشرية، وحينما لا يجد ناصراً فإنّه يتوجّه إلى الله لينصره، وحينما لا يجد ملجأً يتوجّه إلى الله ليلتجئ إليه ويطمئنّ بمناجاته، وحينما يرى نفسه وحيداً يلتجئ إلى نور المستوحشين في الظلم، وحينما يرى إقبال الدنيا على المبطلين والطواغيت يلتجىء إلى الله تعالى مالك الدنيا ويملي على الظالمين ليزدادوا إثماً ومأواهم جهنّم، وبئس المصير.

ولا تفتنه الأموال والأقارب والأبناء؛ لأنّه يتوجّه إلى من أنعم عليه بالمال والأولاد، فيحرص على شكره والحمد له، ويوجّه أمواله وأولاده في طاعة

المنعم الكريم.

ويلتجىء إلى الله تعالى في كلّ الأحوال، ويستمدّ منه العون ويلتزم بأوامره، ويسير على نهجه، ويعدّ العدّة والقوّة ليعيد الكرّة على الطواغيت إلى أن يقضي الله بما هو قاضٍ وقد أدّى تكليفه ومسؤوليته، وما النصر إلاّ من عند الله وهو أرحم الراحمين وأرحم بعباده وبدينه، فهو يعدّ القوّة بمثل قوّة الطاغوت، ويزيد عليها قوّة الإيمان والاتّصال بالله تعالى مالك القوّة جميعاً، الذي قال في كتابه الكريم: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩].

الثبات في جميع الظروف

الثبات وقود الجهاد في جميع مراحله، مهما طال الطريق وتباطأ النصر، فلا بد من صبر وصمود أمام الصعوبات والتحديات، وينبغي الثبات أمام البلاء والإبتلاء، وإنّ المسلم أو المجاهد يبتلى على قدر درجة إيمانه وتديّنه. سئل رسول الله ' عن أشدّ الناس بلاءاً في الدنيا؟ فقال:«**النبيّون ثمّ الأماثل فالأماثل، ويبتلى المؤمن على قدر إيمانه وحسن عمله، فمن صحّ إيمانه وحسن عمله إشتدّ بلاؤه، ومن سخف إيمانه وضعف عمله قل بلاؤه**»(٥). وقال الامام الكاظم عليه السلام: «**المؤمن مثل كفتي الميزان كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه**»(٦).

فلا بدّ من صبر وتحمّل وصمود في شتّى المجالات؛ لأنّه زاد المؤمن الرسالي في طريقه الطويل:

الصبر على شهوات النفس وأطماعها، وعلى أذى الناس وتكذيبهم والتواء نفوسهم، وعلى قلّة الناصر، وعلى وساوس الشيطان في ساعات الشدّة، وعلى طول الطريق، وعلى مرارة الجهاد.

وأفضل الصبر هو الصبر الجميل الذي لا يرافقه ملل ولا سأم ولا يأس ولا قنوط، الذي لا تراجع فيه ولا تردّد، والذي ليس فيه شكوى إلى الناس،

والصبر على ضبط النفس في ساعات السرّاء والضرّاء والرخاء والشدّة.

والصبر مقدّمة للانتصار على الأعداء الذي وعدهم الله تعالى به. ذلك النصر العزيز الذي لا يتنازل عنه المؤمن، وقد اشتروه بالدماء والأرواح لتصبح راية الإسلام عزيزة، أرخصوا الدماء والأرواح لها لا لأنفسهم.

الأمّة تقدّم كل ما لديها، ولكن يتباطأ النصر لتزيد من ارتباطها بالله تعالى وتتجرّد في نيّتها خالصة، ولكي تشعر في وجدانها أنّها لا تملك من الأمر شيئاً، وأنّ قواها وحدها لا تكفي بدون سند من الله الذي يتكفّل النصر وحده.

ولا يتحقّق النصر في الواقع إلاّ بعد تحقّقه في الضمير والنفس. فالله هو الناصر وهو الوليّ في النصر بعد أن تتوفّر مقوّماته المادية والمعنوية. والمسلم الرسالي لا ترهبه قوّة الطواغيت؛ لأنّ الله معه وسيلقى في قلوبهم الرعب، وسيأتيهم من داخل أنفسهم، فلا تنفعهم قواهم المادية، وأسلحتهم المتطوّرة، وحصونهم المنيعة، فيدخل الرعب في قلوبهم فيهزمون من داخل أنفسهم ويستسلمون، {فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ} [الحشر:٢].

والمسلم الرسالي والمجاهد الحقيقي لا توهنه المحن، ولا توهنه قوّة الأعداء؛ لأنّها زائلة، ولا ترتكز على الركائز التي يرتكز عليها في طريقه الطويل: {مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ} [العنكبوت:٤١].

والمسلم الرسالي لا يوهنه كيد الطواغيت والكافرين؛ لأنّ الله معه يرعاه ويسدده ويثبّت خطاه: {ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ} [الأنفال:١٨].

فعلى جميع الرساليين والمجاهدين أن يتوجّهوا إلى الله توجّهاً صادقاً، وأن يتجرّدوا عن كلّ عوائق الدنيا وأثقال الأرض، وأن يكونوا بمستوى المسؤولية المناطة بهم، والتي تبنّوا حملها وأداءها، فلا يتسرّب الضعف إلى قلوبهم، والوهن إلى نفوسهم؛ لأنّ قوّة الله وحدها هي القوّة، وما عداها واهنٌ وهزيل مهما علا

واستطال، ومهما تجبّر وطغى، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل.

وإنّ المجاهدين أقوى من هذه الكثرة الهائجة المدخولة العقيدة، والمضطربة التصوّر، والمتأرجحة العقول، والمتقلّبة الشعور، وإنّ الكثرة ليست دائماً تكفل النصر.

وليعلم المجاهدون أنّ المعركة جزء من معارك عديدة، وقد لا يتحقّق النصر في واحدة أو أكثر من المعارك؛ لأنّها تختلف نتائجها ثمّ تنتهي بعد مرّ السنين وكرّ الأعوام إلى الوعد الذي وعده الله لرسوله وللصالحين والمجاهدين، ووعد الله لا يتخلّف ولو قامت قوى الأرض كلّها في طريقه، الوعد بالنصر والغلبة والتمكين. فإذا خسروا في معركة أو أكثر فليعلموا أنّ الخلل فيهم وليس في الوعد الإلهي؛ لأنّ وعده حقّ، ولعلّ المصلحة تكمن في تأجيل النصر؛ لأنّ الله يعدّهم للنصر في معركة حاسمة، ويهيىء لهم الظروف ليؤتي النصر يومئذٍ ثماره في مجال أوسع وفي أثر أكثر دواماً، وقد يتحقّق النصر في صورة لا يدركها العقل البشري؛ لأنّه يطلب المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدرك النصر الحقيقي، وهو انتصار المنهج الإلهي في الحياة؛ لأنّ الانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي لا قيمة له ولا وزن له في ميزان الله ما لم يقدم كلّه على أساس منهجه في الانتصار على النفس، والانتصار على الهوى، والانتصار على الشهوة، وتقرير المبادئ التي أرادها الله في واقع الإنسان؛ ليكون كلّ نصر نصراً لله، ولمنهج الله، وليكون كلّ جهد في سبيل الله، ومنهج الله، وإلاّ فإنّ ما عدا ذلك لم يكن إلا انتصار طاغوت على طاغوت، وانحراف على انحراف، وجاهلية على جاهلية. فالنصر الحقيقي هو انتصار المبادئ والقيم، وقد يكون الانتصار العسكري انتكاسة للمبادئ والقيم. فالحسين عليه السلام خسر المعركة العسكرية، واستشهد هو ومن معه، وتغلّبت الجاهلية، وانتصر المنحرفون،

ولكن في الميزان الحقيقي انتصر الحسين عليه السلام بانتصار المبادئ وتقرّرها في الحياة، انتصر بانتصار مبادئه.

وفي عصر الأمويّين، وعلى الرغم من كثرة الفتوحات، نجد أنّ كثيراً من أهل الكتاب الذين أسلموا من خلال الفتوحات عادوا إلى دياناتهم السابقة؛ لأنّهم لم يجدوا قيماً حقيقية في تعامل الفاتحين معهم.

وإنّ الصبر والصمود على تكاليف المبادئ، وإنّ التغلّب على الوهن والضعف هو انتصار في حدّ ذاته، وقد صبر الأنبياء على التكذيب والتعذيب، وحملوا أعباء الرسالة وتكاليفها وحدهم، وخرجوا يدعون إلى الله، ولا معين لهم إلاّ الله.

والحسين عليه السلام حينما وجد الانحراف وصل حدّاً تجاوز فيه الحاكم أكثر المعايير الإسلامية، ولا يمكن تقويمه بالنصح والإرشاد، ورفض الخضوع له والركون إليه، قال كلمته المدوّية: «**لا والله، لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد**»(٧). وقد هاجر من وطنه وتحمّل عناء الهجرة، وتحمّل أهل بيته ونساؤه وأصحابه ما تحمّله هو من وعطش وقتل، وقدّموا كلّ ما لديهم حتّى أطفالهم، وتركوا نساءهم من أجل العقيدة والمنهج الإلهي.

وبقي عليه السلام صابراً صامداً وهو وحيد في أرض المعركة، وسيفارق أسرته التي تذهب أسيرة إلى معقل المنحرفين، والحسين لم يهن ولم يضعف كما وصفه من شهد معركة الطف: «**فوالله ما رأيت مكثوراً قطّ قد قُتل ولده وأهل بيته أربط جأشاً ولا أشدّ بأساً من الحسين، فلقد كانت الرجّالة تشدّ عليه فيشدّ عليها فتنكشف من بين يديه انكشاف المعزى إذا شدّ فيها الذئب**».

وهذا العباس عليه السلام يجاهد على الرغم من الجراح وكثرة الأعداء، وهو يقول:

والله إنْ قطعتم يميني إنِّي أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبيِّ الطاهر الأمينِ(٨)

وهذا مسلم بن عوسجة رضوان الله عليه يخاطب إمامه وقائده قائلاً: «**أما والله، لو علمت أنّي أُقتل، ثمّ أحيا، ثمّ أُحرق، ثمّ أحيا، ثمّ أُذرّى، يُفعل ذلك بي سبعين مرّة، ما فارقتك حتّى ألقى حمامي دونك**»[٩].

وكانت المرأة في الطفّ تحثّ زوجها أو ابنها على الجهاد والاستمرار على تكاليفه، فشابّ لم يبلغ الحلم قُتل والده في المعركة، فكرِه الحسين عليه السلام أن يلحق بوالده لئلّا تبقى أمّه وحيدة، يجيبه ذلك الشابّ: إنّ أمّي هي التي دفعتني للقتال.

وزينب عليها السلام اجتازت المحنة بنجاح، وواصلت الجهاد الإعلامي بالكلمة الهادفة، وبإيقاظ الضمائر الميّتة، فلم تضعف ولم تهن، كما يصوّرها بعض الرواة، بل رفعت الجسد الشريف، وقالت: «**إلهي، تقبّل منّا هذا القربان**». ووقفت بصلابة أمام طواغيت عصرها توضّح للناس أهداف الثورة، وأهداف الطاغوت المتمثّلة بإعادة الجاهلية وطمس معالم الدين.

وهذا هو ديدن العاملين للإسلام والمجاهدين في سبيل الله، لم يضعفوا ولم يهنوا، وكما قال عمّار بن ياسر رضوان الله عليه: «**والله لو هزمونا حتّى يبلغوا بنا سعفات هجر، لعلمنا أنّا على الحقّ وأنّهم على الباطل**»[١٠]. فهم يجاهدون لينالوا إحدى الحسنيين، إمّا النصر، وإمّا الشهادة.

وكما أعلنها عبد الله بن رواحة:

يا نفس إلّا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنّيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلهما هديتِ
وإن تأخّرت فقد شقيتِ[١١]

والمجاهد الحقيقي لا يصيبه الكلل والملل، ولا التراجع والتردّد، ولا الضعف والوهن، فهو مستمرّ في طريقه، لا ينثني ولا يركن إلى الراحة، ولنقتدِ وليقتدِ المجاهدون بشيخ البطحاء حينما يدافع عن قائد الرسالة:

ولسنا نملّ الحرب حتّى تملّنا ولا نشتكي مِمّا ينوب من النكب
ولكنّنا أهل الحفائظ والنهى إذ طار أرواح الكماة من الرعب[١٢]

المحنة تخلق الرجال وتمحّص النفوس، فالمجاهد الحقيقي يصبر فيها ويصمد ويزداد إصراراً وصموداً، وبالمحنة يزداد الإيمان، ويزداد الإخلاص، وتنصهر النفوس وما فيها من شوائب وأخلاط للتجرّد إلى الله تعالى، وتعدّ العدة لمواصلة الجهاد والعمل.

وقد عبّر أحد الشعراء المجاهدين عن هذا المعنى قائلاً:

قد زدتموني بهذا السجن إيماناً فابنوا كما شئتم للحرّ جدرانا
واسقوا العذاب وبثّوا في عيونكم خوفاً ورعباً فعين الله ترعانا

إلى أن يقول:

ما كنتُ أحسب أنَّ الظلم في وطني ما زال ينسج للأبرار قضبانا
حتّى دهيت ومِمّا زاد في ألمي أنّي لقيت أخي في السجن سجانا
ورغم حبّي وإنّي كنت أحفظه من البلاء بظهري كان طعانا[١٣]

وفي ساعات المحنة يلتجىء المجاهد إلى الله تعالى؛ ليحوّل المحنة إلى لذّة، والمعاناة إلى ارتياح، كما يصوّرها الشاعر:

ويهدّني ألمي فأنشد راحتي في بضع آياتٍ من القرآن
والنفس بين جوانحي شفّافة دبّ الخشوع بها فهزّ كياني
قد عشتُ أؤمن بالإله ولم أذق إِلَّا أخيراً لذّة الإيمان

والمجاهد مطلوب منه أن لا يهن ولا يستكين؛ لأنّه عزيز بمبادئه وقيمه ومواقفه وأهدافه، وكما يصوّرها الشاعر:

كلّ الَّذِي أدريه أنَّ تجرّعي كأس المذلّة ليس في إمكاني
لو لم أكن في ثورتي متطلباً إِلَّا الضياء لأُمتي لكفاني

أهوى الحياة كريمةً لا قيد لا إرهاب لا استخفاف بالإنسان
فإذا سقطت سقطت أحمل عزّتي[١٤]

وقال الإمام علي عليه السلام: «**أمّا بعد، فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة، فتحه الله لخاصّة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنّته الوثيقة. فمن تركه رغبةً عنه، ألبسه الله ثوب الذلّ وشمله البلاء وديّث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأُديل الحقّ منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف. ألا وإنّي قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسرّاً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غُزي قومٌ قطّ في عقر دارهم إلاّ ذلّوا**». الخطبة: ٢٧.

والمجاهد له الدرجة العظمى عند الله تعالى؛ جزاءاً لصبره وصموده وتضحياته: { ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ } [التوبة: ٢٠].

* * *

الهوامش:

(١) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول: ١٥٠، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٨٦هـ.
(٢) الفيض الكاشاني، المحجّة البيضاء ٥: ٣٦١، جماعة المدرسين، قم، ١٣٨٣هـ.
(٣) المؤامرة الصارخة: ٤٧، مركز الرعاية للدراسات التربوية، بغداد، ٢٠٠٧م.
(٤) المؤامرة الصارخة: ٣٣.
(٥) تحف العقول: ٢٧.
(٦) تحف العقول: ٣٠٦.
(٧) بحار الأنوار ٤٤: ١٩١.
(٨) بحار الأنوار ٤٥: ٤٠، محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ.
(٩) بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٣.

(١٠) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٠٤.

(١١) شرح نهج البلاغة ١٥: ٧٠.

(١٢) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٣.

(١٣) الأمل الواقعي: ٢٢، مركز الرعاية للدراسات التربوية، بغداد، ٢٠٠٩م.

(١٤) الأمل الواقعي: ٢٣.

زبدة البيان

في نقد

أسطورة تحريف القرآن

السيّد: أحمد صولي الحسيني (*)

تمهيد

لطالما سمعنا فيما سلف من الأزمنة الغابرة ـ وسنبقى ـ بأساطير عجيبة غريبة، منها ما هو قابل للتصديق والتسليم إلى درجةٍ يُتوهم معها بأنّها حقيقة، إلا أنّها ومع أدنى تأمل وتدقيق سرعان ما تنكشف ليتضح بأنّها لا تعدو كونها أوهاماً وأمنيات. ومنها ما يعتمد في أساس نشوئه على أسبابٍ ودوافع وعلل لا مجال ـ ابتداءاً ـ لإنكارها وردّها؛ لوصفها تارةً بأنّها حقائق علميّة وأُخرى بأنّها بدهيّة، وتارةً أخرى بأنّها مسلّمات وموروثات دينيّة وعقائديّة وعرفيّة وتاريخيّة و...

لكنّنا وفي مقام البحث العلمي الملتزم والجاد والمتحرّر من القيود السابقة

(*) باحث إسلامي/ لبنان.

والحواجز النفسيّة والضغوط الخارجيّة سنكتشف أنّ تلك الحقائق العلميّة والبدهيّات والمسلَّمات المُدَّعاة، ليست سوى أساطير ضُخِّمَت بحيث يُصبح أمر تكذيبها وإسقاطها عن الاعتبار أمراً صعباً، بل قد يُصبح مستحيلاً، وذلك لقوّة الحبكة التي حبكها منشؤها، ولكون تلك الأسطورة قد ضربت ومدت فروعها وأغصانها في عمق التاريخ والزمن الغابر، بحيث تناقلها الخلف عن السلف، والأبناءُ عن الآباء والأجداد.

واعلم أنَّ الأساطير أطياف وأنواع، منها ما لا يترك أثراً في فكر وعقل سامعها فلا تنفع من علمها ولا تضرّ من جهلها، ونوعٌ آخر كالذي جُعل قصةً لطيفةً تتلى وخاطرةً طريفة تروى، فيُستمتع بالاستماع إليها والاستفادة منها، فتصلح في أوقات السهر والسمر، ومنها ما يروى للأطفال وفلذات القلوب قبل الخلود للنوم والاستسلام للراحة، فتُسكن نفوسهم وتُهَدئ روعهم وتطيب خواطرهم، فتترك البسمة على الوجنات والفرح في الخلجات. ومن الأساطير ما يُمكن أن يكون نذير رعبٍ وشؤمٍ وخراب، تضطرب له وتتطير منه الأنفس والأرواح، فلا يترك أملاً وبهجةً، ويجعل الأحلام الورديّة كوابيس شوكيّة، تترك أثرها في الضمير كخدشات المخالب والأظافر على البشرة الناعمة، لينفتح على الآلام ألف أسطورةٍ وهميّةٍ مؤلمة وألف خرافة سوداء مُدلهمة.

ومن أكبر وأخطر تلك الأساطير السوداء والخرافات أسطورةٌ وخرافةٌ نمت وكبرت وتعاظمت لأجل أهداف كبيرة وأمنياتٍ خطيرة. وضخامة هذه الأسطورة وخطورتها تكشف لنا عن أهمية وقيمة المستهدف، أعني كتاب الله المجيد، القرآن الكريم.

فقد انتشرت أسطورةٌ منذ القِدم وتعاظمت واشتدّت كالنار في الهشيم، مفادها أنّ الكتاب العزيز قد أصابته يد التحريف والتزييف والتصحيف، وبذلك فإنّ الكتاب الذي كان ينبغي أن يكون دستوراً شاملاً وأبديّاً سقط عن

الاعتبار، بحيث لا يُمكن الاحتكام إليه ولا الاعتماد عليه، ولا بأس بكونه رائعةً من روائع البلاغة والأدب! وأمثولةً تُحتذى في مضمار التأليف والتصنيف! وكفى!!!

العقل يدحض أسطورة التحريف

ولا يخفى على أولي النهى والألباب والحجى أنّ العقل السليم والفكر القويم لا يقبلان بأن يترك الله ـ تبارك وتعالى ـ القرآن دون حفظٍ وصيانةٍ من التلاعب والتحريف والتزييف، وهو الذي أنزل القرآن الكريم خاتمة الكتب السماوية لهداية الناس، فإنَّ ذلك سيؤدي بالناس إلى التيه والانحراف دون تقصيرٍ أو عمدٍ منهم، وعندها لا مجال لحسابهم ومعاقبتهم. وطالما أنَّ الله تبارك وتعالى قد ختم الرسالات بالإسلام والأنبياء بالنبي الأعظم ' ، فإن قلنا بوقوع التحريف في الكتاب فعندها لا بُدّ من الإقرار بانتقاض الغرض من الرسالات والأنبياء عليهم السلام كافَّةً، وبهذا نكون قد نسبنا اللغويّة والإهمال إلى الله عز وجل ـ والعياذ بالله ـ وهذا ما لا يقول به مسلمٌ، والتالي باطل فالمُقدَّم مثله في البطلان.

ألعاب صبيانيّة وأهواء نفسيّة

والمُضحك المُبكي أنّ البعض يستند في غمزه للقرآن وادعاء وقوع التحريف فيه إلى رواياتٍ رواها كُلٌّ من الشيعة والسنَّة، ومنها ما يتعلق بتشابه أمَّة الإسلام بالأمم السابقة، وأنَّ ما حصل فيما خلا سوف يتكرر ويحصل مرةً أخرى، حيث جاء في مضمون بعض الروايات أنَّ هذه الأمَّة ستتبع سنن الذين من قبلها شبراً بشبر، فقد روى الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه «كمال الدين وتمام النعمة» عن رسول الله ' أنَّهُ قال: «**كُلُّ ما كان في الأُمم السالفة، فإنَّهُ يكون في هذه الأمّة مثله حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة**»[1]، ومن خلال اعتمادهم على مثل هذه

الروايات يدَّعون أنَّ أحد وجوه هذا التشابه هو تحريف أمَّة الإسلام كتابها وقرآنها، فإنَّ هذا الأمر قد وقع فيما سبق وحرفت الكتب السماوية السابقة، فأنقصوا منها وزادوا عليها، وتشهد الآيات البينات على ذلك حيث يقول تعالى:

ـ ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١].

ـ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

ـ ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦].

ـ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٧٥].

ـ ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة ٤١].

وهنا نقول:

إنَّ وقوع التشابه بين أمَّة الإسلام والأمم السابقة أمرٌ طبيعيّ، فالجنس البشري متحدٌ في الكثير من الأحيان في الحاجات، والرغبات، والتطلعات. والمجتمعات وإن تطورت وتبدلت إلا أنَّها تسعى دائماً لحفظ كياناتها وحدودها ومصالحها، وتراها تعتمد الأساليب نفسها في مواجهة التحدّيات والداهمات، وحيث إنّ الأديان أبرز المخاطر المُهَدِّدة والتي تتحدى جبروت المستكبرين وممالكهم ونفوذهم ـ فالأديان أهدافها العامّة واحدةٌ تتلخص بالدعوة إلى التوحيد، والعبوديّة لله عز وجل، ونبذ الظلم، والأمر بالتقوى والإحسان، والسير وفق ما أراده الله منهجاً للتكامل والرقيّ الإنساني ـ ترى هؤلاء

المستكبرين في حالة دفاعٍ مستميت وهجومٍ مضاد على كُلِّ ما له صلة وتعلق بتلك الأديان من أنبياء وكتُب سماويّة ومعجزات و... ، فتسعى إلى طمسها، وضربها، وتحريفها، وتفريغها من محتواها، وتغيير أهدافها إمّا برمي الأنبياء بالكذب أو الشعوذة أو الجنون أو السحر، وإمّا بحرف الكتب السماويّة والتعاليم الدينيّة عن أهدافها وغاياتها ومضامينها، وبذلك ضربٌ لمصداقيتها، والسبيلُ الوحيد لذلك إمّا بتحريفها الفعلي أو ادّعاء وقوع التحريف فيها إن عجزت عن تحريفها فعلاً.

والظاهر أنَّ التشابه المقصود لا يعني محاكاة واقع الأمم السابقة كما مرّت ودون أيّ مغايرةٍ، بحيث يجب أن تحدث تفاصيل التفاصيل ودقائق الأمور وصغائرها، بأنَّ تسير الأمَّةُ مسير أُختها حذو النعل بالنعل، كلا، ليس هذا هو المقصود، وإنَّما المشابهة في الأمور والأحداث الأساسيّة والعامّة والمصيريّة في بعض الأحيان، فهل فعلنا نحن ـ كمسلمين ـ كُلَّ ما فعله بنو البشر ممن سبقنا من أبناء الأُمم السالفة؟ وهل حصلت وتكرّرت معنا أحداثٌ بعينها كانت قد حصلت ووقعت فيما سبق وانقضى، كمحاولة قتل عيسى عليه السلام وصلبه ثم بعد ذلك إنجاؤه بقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ ورفعه إلى السماء؟

وهل كان بيننا فتيةٌ آمنوا بربهم كأهل الكهف والرقيم أنامهم الله ـ تبارك وتعالى ـ عقوداً ثم أحياهم وأخرجهم من سباتهم ليكونوا عبرةً وعظةً لمن يعتبر ويتعظ؟ وهل؟ وهل؟ ...

بديهيٌّ أن يُجاب بالنفي فإنَّ إثبات حصول كلّ تلك الوقائع وتكررها معنا جميعها ضربٌ من ضروب الخيال ومجافاةٌ للحقيقة والصواب والموضوعيّة.

يقول السيّد أبو القاسم الخوئي رحمه الله في «البيان»:

«إنَّ كثيراً من الوقائع التي حدثت في الأمم السابقة لم يصدر مثلها في هذه الأمّة، كعبادة العجل، وتيه بني إسرائيل أربعين سنة، وغرق فرعون وأصحابه،

وملك سليمان للإنس والجن، ورفع عيسى إلى السماء وموت هارون وهو وصي موسى قبل موت موسى نفسه، وإتيان موسى بتسع آيات بينات، وولادة عيسى من غير أب، ومسخ كثيرٍ من السابقين قردةً وخنازير، وغير ذلك مما لا يسعنا إحصاؤه، وهذا أدل دليلٍ على عدم إرادة الظاهر من تلك الروايات، فلا بُدَّ من إرادة المشابهة في بعض الوجوه»[٢].

نعم، التشابه الكبير بين الأمم السالفة والأمَّة الإسلاميّة قد حصل ووقع فعلاً من عدَّة جهات وفي الكثير من القضايا العامّة، فقد كذب الكافرون والمشركون والرافضون للإسلام من الأمّة التي أُرسل إليها الرسول الأعظم ' رسولهم، واتهموه بالجنون والسحر ـ والعياذُ بالله ـ وذلك جرياً على عادة من سبقهم من كفرة وفجرة الأمم السابقة التي واجهها أنبياء الله، ثم عمدوا إلى كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وعندما وجدوا أنَّه محفوظٌ بحفظ الله ومصونٌ بصيانته، ووجدوا أنَّ القرآن الكريم كتابٌ معجزةٌ لا يُمكنُ أن يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأدركوا أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أخذ على نفسه أن يكون هو الحافظ له، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، عندها عمدوا إلى ضرب إمكانيّة الاستفادة التامّة والكاملة منه، وذلك من خلال حرف المعاني بعد عجزهم عن تحريف الألفاظ والمباني، وكتموا تأويل الكتاب الذي يُفصح عن حقائق الأمور وواقعيتها بعد عجزهم عن تزييف وتحريف تنزيله.

وبهذا تكون تلك الأحاديث التي تقول بمشابهة الأمم بعضها البعض قد صدقت، حيث إنَّ المسلمين قد أقاموا حروفَ الكتاب وحافظوا عليها وحرّفوا حدوده ومعانيه عن المرادات الأصليّة للشارع المقدَّس ـ وهذا ما يُشير إليه الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال لسعد الخير: «**أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده، فهم يروونه، ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية،**

والعلماء يحزنهم بتركهم للرعاية»[٣]، وفي هذا إشارةٌ إلى ما حصل ووقع من حذفٍ وإقصاءٍ واستبعادٍ لما ورد عن رسول الله ' وأهل بيته عليهم السلام من تأويل لآيات الكتاب العزيز، وما أنزله الله كتفسيرٍ لها، ومن تلاعبٍ بالروايات الحاكية لشأن نزول الآيات الكريمات، والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه منها.

من هو المستفيد من ترويج دعوى تحريف القرآن؟!!

لقد عمد أعداءُ الإسلام والساعون إلى تقويض أسسه وهدم صرحه إلى اتهام وإدانة معجزة النبي الأعظم ' الأجلى والأبهى، وسعوا إلى الوقيعة به ' وبالإسلام الذي جاء به من خلال رمي القرآن العزيز بالتحريف، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]؛ وذلك لما أوجده ذلك الكتاب المعجزة من جبهة رفضٍ ومواجهةٍ لقشريتهم، وتخلّفهم، وأساطيرهم، وخزعبلاتهم، وحرفهم للحقائق، وطمسهم إيَّاها، وكُلّ ذلك لأجل تسلطهم على المستضعفين في الأرض والاستكبار عليهم تحت غطاء الديانات والشرائع الموضوعة والمتلاعب بها والقدسيّة المفتعلة والمخترعة.

فهم وفي مواجهة القرآن في حربٍ ضروس تهدّد كيانهم ووجودهم، ولأجل إبعاد الخطر عن أنفسهم وعن مشاريعهم ومخططاتهم عملوا على ضرب مصداقيّة الإسلام وحقانيته من خلال زلزلة الدليل على تلك الصدقيّة والحقانيّة والمتمثلة بالقرآن الكريم، وبهذا تتزعزع وتتزلزل ثقة المسلمين بإسلامهم وقرآنهم، وتُثار الشكوك وتكثر الأقاويل والاتهامات، وتشتعل النفوس بالأحقاد والضغائن على خلفيّة اتهام الفرق والمذاهب الإسلاميّة بعضها البعض بتعمد تحريف الكتاب، أو الاعتقاد بذلك التحريف، والترويج له على أنَّه واقعٌ لا بُدَّ من التسليم به.

فالمُخَطّط المُستَهدِف للإسلام والقرآن ـ في آنٍ معاً ـ يقتضي أن تعمد الفرق والمذاهب إلى اتهام بعضها البعض، وبهذا ستُقَدِّم تلك المذاهب الخدمة الجليلة للأطراف المعادية للدين الحنيف على طَبَقٍ من ذهب، وذلك بأن يستحصلوا على إجماعٍ من جميع الأطراف المتنازعة، المتفقة على وقوع التحريف في القرآن الكريم ـ حيث إنَّهم يتقاذفون التهمة فيما بينهم ـ والمختلفة على تحديد الجهة المسؤولة عن ذلك التحريف، هل هي هذه أم تلك. وبغضِّ النظر عن ذلك فإنَّ الثابت الوحيد حينئذٍ هو الإقرار بتحريف القرآن من المسلمين أنفسهم، وإن عمد بعضهم إلى تبرئة نفسه واتهام الطرف الآخر، وبهذا فإنَّ الطرف الكاسب والرابح هم أعداء الإسلام الذين يحصدون ثمار فتنةٍ زرعوها بين المسلمين، فيما الخاسر الأكبر هو القرآن والمسلمون الذين تعهدوا رعاية وإذكاء وتنفيذ مخطط الفتنة. ولهذا لا ينبغي لنا أن نطرب فرحاً أو أن تغمرنا نشوة الانتقام والتشفي، أو أن نشعر بالرضا عن أنفسنا باتهام الطرف المسلم الآخر بأَنَّهُ يقول بالتحريف، أو أنَّ مصادره وروايته تدل عليه، فالمستفيد الأوّل والأخير هم أعداء القرآن.

التشكيك بالقرآن انحرافٌ عن جادة الحقّ الإلهي

وعندما يقع المسلم فريسة تلك الفتنة السوداء وأسير شباكها فإنَّهُ سيُشكّك بقرآنه ودينه، وبالتالي بالنبيّ المرسل بهذا الدين، وعندما يكون ذلك المسلم وفي رتبةٍ سابقة قد اعتقد من قبلُ بانحراف أتباع الأديان السماويّة الأخرى السابقة عن جادة الحق الإلهي والصراط الرباني القويم، وأنَّ سائر الكتب السماويّة قد أصابتها ونالت منها يد التحريف، حينها سيفقد الثقة وسيمتنع عن الاعتماد على كُلِّ ما يُنسب إلى السماء من شرائع سماويّة وأديان إلهيّة، وسيميل إلى وضع نُظُمِهِ وبرامجه ودستوره الخاص، وسيعمد إلى إدارة وترتيب شؤونه وأموره الخاصّة بنفسه بحسب احتياجاته ورغباته ودونما رادع يردعه أو محاسبٍ يُحاسبه،

فيُحتكَمُ حينئذٍ لشريعة الغاب، ولمبدأ الغايات تبرر الوسائل، ولمقولة حق القوي في التهام الضعيف، ولنظرية بقاء الأقوى، ولقاعدة أنَّ الحياة للأقوياء لا مكان فيها للضعفاء، وبهذا ينحرف الإنسان عن جادّة الحق والصراط المستقيم الذي رسمه المولى ـ تبارك وتعالى ـ لعبده في سيره التكاملي ورُقيه في سلم التكامل والترقي نحو الحق ـ جلَّ ثناؤه ـ وهذا هو الهدف الأخطر لهؤلاء المتربصين وقاطعي الطرق وقوى الشر وجنود إبليس الذين عقدوا العزم على أن يقعدوا لابن آدم عليه السلام عند كُلِّ مفترق وفي كُلِّ طريق.

من هنا، قلنا فيما سبق، ونقول: إنَّ القول بتحريف القرآن الكريم ينفع أعداء الإسلام والقرآن، وضرره على الإسلام كُلِّه بجميع مذاهبه، ولهذا ولأجل إنجاح مشروعهم ذاك عمدوا إلى ترويج دعوى تحريف القرآن العزيز، وألصقوها ببعض الشخصيات والجهات والفئات، معتمدين في ذلك على الأرضيّة الخصبة التي أوجدتها إثارة بعض أهل العلم لهذه الشبهة والناشئة لديهم من وجود بعض الروايات التي فهموا منها وقوع التحريف في كتاب الدين الحنيف.

سهم التجني في كبد قوس الافتراء

ولقد كان الشيعة الإماميّة وما يزالون من أكثر الفرق والمذاهب الإسلاميّة عرضةً للهجوم والافتراء والتجنّي ونسبة القول بالتحريف إلى كُلِّ من انتسب إلى هذه الفرقة المحقّة، وذلك على خلفيّة بعض الكلمات التي تحمل على ذلك. ولم يشفع رفض أجلاء الطائفة والجمع الغفير من مراجعها وعلمائها لذلك القول في نفي التهمة الباطلة والنسبة الفاسدة عن التشيع، وإنَّما لاحقتهم وإلى يومنا هذا بالرغم من تبرّؤهم منها وإقامتهم الأدلة والبراهين على بطلانها في حدّ ذاتها وعلى خلو ساحتهم وساحة القرآن الكريم منها.

فالشيعة أهلُ الإسلام الأصيل بعلمائهم وعوامهم لا صلة لهم بهذه القضية لا من قريب ولا من بعيد، وإنَّما افتريت عليهم ورُكِّبت لهم وأُلبِسوها بالرغم من كونهم حماة القرآن وتُلاته والمتمسكين بهديه ونهجه خلفاً عن سلف كما أوصاهم نبي الرحمة ' في حديث الثقلين المتواتر، وأنَّهُ إذا التبست عليهم الفتن كقطع الليل المظلم فعليهم باللجوء إلى القرآن الكريم والاستنارة بنوره؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

مقدمات تمهيديّة

وقبل الخوض في دراسة ومناقشة مسألة تحريف القرآن لا بُدَّ من التعرض لبعض المقدّمات التمهيديّة حول بيان معنى التحريف في اللغة والاصطلاح وبيان بعض أقسام التحريف والمواقف منها، فنقول:

التحريف لغةً: حرف الشيء: طرفه وجانبه، وتحريفه: إمالته والعدول به عن موضعه إلى طرفٍ أو جانبٍ، وحرفته أي أخرجته عن مواضعه واعتداله، ونحيته عنه إلى جهة الحرف وهو الطرف للشيء. وتحريف الكلام أن تجعله على حرفٍ من الاحتمال يمكن حمله على الوجهين(٤).

أما التحريف اصطلاحاً:

التحريف بالترتيب: بمعنى نقل آيةٍ من مكانها إلى مكانٍ آخر، ولا خلاف بين المسلمين في وقوع هذا النوع من التحريف، والقرآنُ الكريم نفسُهُ خيرُ شاهدٍ على هذه المسألة، فإنَّك وبلا أي جهد تستطيع ملاحظة تقدم العديد من السور والآيات المدنيّة على المكّيّة والحالُ أنَّ النزول في مكّة كان قد سبق النزول في المدينة زماناً، وهذا يعني أنَّ ترتيب السور والآيات مخالفٌ حالاً لما نزل واقعاً لجهة الترتيب على سورٍ وآياتٍ أخر، وقد تأخرت أُخريات عن غيرها عما هي بحسب النزول الواقعي، وفي الكثير من الأحيان دون مراعاةٍ لأي مقتضيات

سياقيّة وحاليّة.

وها هو السيوطي يُفردُ مساحةً في كتابه «**الإتقان في علوم القرآن**» يذكر فيها أسماء السور بحسب نزولها لا بحسب ترتيبها وتدوينها[٥]، وسورة المائدة خيرُ مثالٍ على ما نقول، حيثُ يُجمع الفريقان على أنَّها من آخر ما نزل في حين نجدها في أوائل سور القرآن الكريم تدويناً وترتيباً.

وبالرغم من أنَّهم لم يروا كبير مشكلةٍ في هذا الأمر إلا أنَّهُ لا يخلو من تأثيراتٍ في مجال ربط الوقائع والأحداث لاستخلاص النظريات التي يُمكنُ أن نستنتجها من القرآن الكريم فيما لو كانت تلك السور والآيات قد دونت كما نزلت خصوصاً في مجال استنباط الأحكام الشرعيّة، وبالأخص في بعض الآيات التي يُستدل ويُتمسكُ بها في أمورٍ تاريخيّةٍ وعقائديّةٍ، كقضيّة الإمامة والولايّة. فإنَّ فصل بعض الآيات الدالة على مطلبٍ معين بآياتٍ أخرى خارجةٍ عن سياق ذلك المطلب قد أوقع العلماء والمفسرين في بعض المنزلقات وأدخلهم في متاهاتٍ أدت بهم إلى استنتاج نتائج معاكسة لما هو مقصود ومطلوب واقعاً، والذي كان من الممكن الوصول إليه والحصول عليه بيُسرٍ وسلاسةٍ فيما لو كان التدوين بحسب النزول مع المحافظة على السياقات الواقعيّة، وآيةُ التطهير في سورة الأحزاب وآيةُ إكمال الدين وإتمام النعمة في سورة المائدة خيرُ شاهدٍ على ما نقول[٦].

التحريف المعنوي: بأن تُحمل الألفاظ على معانٍ بعيدةٍ عنها لا ارتباط لها بظاهر اللفظ، وذلك بتحليلٍ واستنتاجٍ خاطئٍ، وهذا ما يُعرف بـ «التفسير بالرأي» المنهي عنه إجماعاً، إلا أنَّه واقعٌ من قِبَل جماعةٍ على الرغم من النهي الصريح من النبي ' عنه وتوعده بالنار عليه. قال ' : «**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[٧].

التحريف بالزيادة: بأن يكون بعض ما بين الدفتين ليس قرآناً، وقد اتفق

العلماء وأجمعوا على بطلانه وعدم وقوعه في القرآن الكريم، فلا كلام غير كلام الله ـ تبارك وتعالى ـ في الكتاب العزيز سواء من آدميين أم من غيرهم. فإنَّ الالتزام بوقوع هذا النوع من التحريف منافٍ للجهة الإعجازيّة التي تحدّى الله الإنس والجن على خرقها ونقضها، فقد قال عزَّ من قائل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

التحريف بالنقصان: بمعنى أنَّ ما هو مجموعٌ بين الدفتين ينقصه بعض ما نزل بالتنزل القرآني على النبي الخاتم ' ، وذلك بأن يكون قد ضاع ونقص إما عمداً وإما سهواً ونسياناً. وقد وقع النزاع فيه من حيث الوقوع وعدمه، وهذا النوع من التحريف هو ما يُفترى به على الشيعة، وسيأتي الكلام في دحضه ورده.

نظرةٌ أوليّة في روايات التحريف عند الشيعة

ونحن لو نظرنا إلى الروايات الموجودة في بعض كتبنا نحن الشيعة الإماميّة، والمتعلقة بنقصان القرآن الكريم، لوجدنا أنَّهُ من الممكن حملها على محامل كثيرة بحيث لا تنهض بعد ذلك لأن تكون دليلاً على النقصان، وبالتالي التحريف، فقد يحمل بعضها على مسألة تعدّد القراءات واختلافها، وهناك بعض الأدعيّة والمناجاة النبويّة التي أتى بها النبي الأكرم ' ، وقد التبس الأمر على البعض وتوهمها قرآناً، فبعض الروايات ناظرةٌ إلى نفي القرآنيّة عنها. وهناك ما يدل على ما نزل من السماء بواسطة ملك الوحي جبرائيل عليه السلام، وهو ليس بقرآن كالأحاديث القدسيّة.

يقول الشيخ الصدوق رحمه الله في «الاعتقادات»:

«إنَّهُ قد نزل الوحي الذي ليس بقرآن، ما لو جمع إلى القرآن لكان مبلغه مقدار

سبعة عشر ألف آية. وذلك مثل قول جبرئيل للنبي ' : إن الله تعالى يقول لك: يا محمد، دار خلقي. ومثل قوله: اتق شحناء الناس وعداوتهم. ومثل قوله: عش ما شئت فإنَّك ميت، وأحبب ما شئت فإنَّك مفارقه، واعمل ما شئت فإنَّك ملاقيه. وشرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّه كف الأذى عن الناس... ومثل هذا كثيرٌ، كُلُّهُ وحيٌ ليس بقرآن، ولو كان قرآناً لكان مقروناً به، وموصلاً إليه غير مفصولٍ عنه...»[٨].

والذي يبقى بعد هذه الجوجلة والحصحصة قليلٌ من الروايات غير القابلة للحمل على تلك الأقسام والحصص من نسخ التلاوة والاختلاف في القراءات والحديث القدسي والدعاء والمناجاة، وفي هذه الحال قد يُدَّعى أَنَّهُ لا يمكن حملها إلا على ما ظهرت فيه وهو القول بنقصان الكتاب، وهذا لا يمكن القبول به؛ فإنَّهُ وبمقتضى الصناعة العلميّة لا يمكن الاعتماد على الرواية لكونها رواية وحسب، وإنَّما يجب التدقيق والتحقيق في أسانيد الروايات ودلالاتها وتمييز الغث عن السمين فيها، والصحيح عن السقيم، وعدم معارضتها للكتاب والسنَّة، وما إلى ذلك من شروطٍ ذكرت مفصلاً في محلها في علوم الأصول والرجال والدراية.

مناقشةٌ لبعض الروايات المفضية إلى القول بتحريف النقصان

ولقد أعرض علماء وكبراء وأجلاء الطائفة عن تلك الروايات القليلة المتبقية، حيث ناقشوها وادَّعوا الإجماع على خلافها وعلى تنزيه وصيانة الكتاب مما تفضي إليه، ألا وهو النقيصة والتحريف، وستقف فيما يأتي من سطور على الموقف من بعض روايات التحريف في المصادر الشيعيّة وعلى ما ورد في تأويلها وفي كونها غير صالحةٍ للاستدلال على النقصان، وما قيل في بطلانها وردها.

أولاً: إنَّ بعض تلك الروايات قد ورد فيها لفظ التحريف فيما يخص القرآن

الكريم بصراحةٍ، كما هو الحال في قولهعليه السلام: «**اؤتمنوا على كتاب الله فحرَّفوه وبدَّلوه**»[٩]، ومثل هذه الروايات يمكن حمل التحريف فيها على التأويل الباطل للآيات بخلاف المرادات الأصليّة والواقعيّة، والتلاعب بمعانيها مع بقاء الألفاظ، أي: التحريف المعنوي، وذلك بوجوه الاستحسانات والأوجه الباطلة والفاسدة دونما دليل وبرهان، ويؤيد هذا الفهم ما روي عنهعليه السلام حيث قال: «**وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده فهم يروونه ولا يرعونه**»[١٠]، وهذا تصريحٌ منهعليه السلام بأنَّهم لم يمسوا حروفه وعباراته بشيءٍ، وإنَّما عمدوا إلى تأويله وتفسيره على غير وجهه الحقيقي.

قال السيّد أبو القاسم الخوئيرحمه الله في شأن هذه الروايات: «**هي ظاهرةٌ في الدلالة على أنَّ المراد بالتحريف حمل الآيات على غير معانيها، الذي يلازم إنكار فضل أهل البيتعليهم السلام ونصب العداوة لهم وقتالهم. ويشهد لذلك ـ صريحاً ـ ... ورواية الكافي ... «وكان من نبذهم الكتاب أنَّهم أقاموا حروفه، وحرفوا حدوده»، وقد ذكرنا أنَّ التحريف بهذا المعنى واقعٌ قطعاً، وهو خارجٌ عن محل النزاع، ولولا هذا التحريف لم تزل حقوق العترة محفوظة، وحرمة النبي فيهم مرعية، ولما انتهى الأمرُ إلى ما انتهى إليه من اهتضام حقوقهم وإيذاء النبي فيهم**»[١١].

ثانياً: هناك بعض الروايات يُفهم منها نقصان الكتاب، كقولهعليه السلام: «**ما يستطيع أحد أن يدَّعي أنَّ عنده جميع القرآن كلّه ظاهره وباطنه غير الأوصياء**»[١٢]. فإنَّ مثل هذه الأخبار الموهمة لنقصان الكتاب، قد وقعت محلاً لنقاش العلماء إن من جهة السند وإن من جهة الدلالة، فبين مرسَلٍ وضعيفٍ ومخالفٍ للكتاب والسنَّة وللإجماع.

وتوجيه تلك الروايات بخلاف ما قد يُفهم منها ابتداءاً بالظهور الأولي مُمكنٌ ولا محذور منه، فالروايةُ السابقة ـ مثلاً ـ وإن كانت تُشعر ومن خلال قولهعليه السلام:

«**ما يستطيع أحد أن يدَّعي أنَّ عنده جميع القرآن ...**» بوقوع النقصان في الكتاب، إلا أنَّ ذيل الرواية أي قوله عليه السلام: «**ظاهره وباطنه**» يرفع ذلك التوهم ليُصَوِّبَ الفهمَ الصحيح ألا وهو أنَّه لم يَجمع أحدٌ القرآنَ الكريم نصاً وفهماً، روايةً ودرايةً، ظاهراً وباطناً، غير الأئمة المعصومين عليهم السلام معدن العلم والحكمة، الذين حازوا تلك المعارف والعلوم بالتأييد والإلهام الرباني والتعليم النبوي، وبهذا لا يكون المراد النقص في السور والآيات والكلمات.

ثالثاً: نُطالعُ بعضاً من الروايات التي تُفيد أنَّ بعض آيات الكتاب قد وقع فيها إنقاصُ أسماء بعض الأئمة عليهم السلام، كالرواية التي نقلها الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي الشريف عن أبي بصير عن صادق أهل البيت عليهم السلام أَنَّهُ قال في قول الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ـ في ولاية عليٍّ والأئمة من بعده ـ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ هكذا نزلت[١٣]. فإنَّ المعنى المراد من هذه الرواية ومن نظائرها هو أنَّها نزلت بهذا المعنى، فيكون المراد من الرواية المتقدِّمة أنَّ من أطاع الله والرسول في مسألة ولاية عليٍّ والأئمة من بعده عليهم السلام فقد فاز فوزاً عظيماً. هذا فيما لو سلمت تلك الروايات من المناقشة في أسانيدها، وهو ما لم يحصل، فقد أسقطها كبار العلماء عن الاعتبار بتضعيفها ومنهم الشيخ المجلسي رحمه الله في مرآة العقول، حيث قال رحمه الله في خصوص الرواية المتقدِّمة: **الحديث الثامن: ضعيفٌ على المشهور**، وعلَّق على قوله عليه السلام: «**هكذا نزلت**» قائلاً: **ظاهرُهُ أنَّ الآية كانت هكذا، وربَّما يؤوَّل بأنَّ معناه ذلك أو هي العمدة في ذلك ...**[١٤].

ثم، لو إنَّنا التزمنا القول بصحّة أسانيدها ـ وهذا مما لا طريق إليه ولا دليل عليه ـ فإنَّهُ لا بُدَّ من تأويلها وعدم حملها على ظاهرها؛ لمخالفتها الكتاب والسنَّة لجهة تنزيه الكتاب العزيز عن التحريف، وعندها نقول إنَّ ذِكرَ أسمائهم عليهم السلام فيها لا على نحو نزولها على أنَّها منها، وإنّما كان على نحو التفسير والتدليل على المصاديق التي أرادها الله، لا أنَّها نزلت مع القرآن ثم أُنقصت منه، فتنبه.

قال المولى الفيض الكاشاني﵀: «**ويخطر بالبال في دفع هذا الإشكال ـ والعلم عند الله ـ أنَّ مرادهم﵈ بالتحريف والتغيير والحذف إنّما هو من حيث المعنى دون اللّفظ، فمعنى قولهم﵈: «كذا نزلت» أنّ المراد به ذلك، لا ما يفهمه الناس من ظاهره، وليس مرادهم أنّها نزلت كذلك في اللّفظ فحذف ذلك إخفاء للحقّ وإطفاءً لنور الله**» (١٥).

وقال المولى محمّد صالح المازندراني﵀ في شرحه على أصول الكافي: «**قوله «كذا أنزلت» لا يدل هذا على أنَّ ما ذكره﵇ قرآنٌ؛ لأنَّ ما أنزل إليه ' عند الوحي يجوز أن يكون بعضه قرآناً وبعضه تأويلاً وتفسيراً...**»(١٦).

وَلَنِعمَ ما قاله السيّد الإمام روح الله الخميني﵀ في مقام ردِّه على من تمسك بهذا النوع من الروايات لإثبات وقوع التحريف، حيث قال: «**لو كان الأمر كما ذكره هذا وأشباهه، من كون الكتاب الإلهيّ مشحوناً بذكر أهل البيت وفضلهم، وذكر أمير المؤمنين وإثبات وصايته وإمامته، فَلِمَ لم يحتجّ بواحدٍ من تلك الآيات النازلة والبراهين القاطعة من الكتاب الإلهيّ أميرُ المؤمنين، وفاطمة، والحسن، والحسين﵈، وسلمان، وأبو ذرّ، ومقداد، وعمّار، وسائر الأصحاب الذين لا يزالون يحتجّون على خلافته﵇؟! ولِمَ تشبّث﵇ بالأحاديث النبويّة، والقرآنُ بين أظهرهم؟! ! ولو كان القرآن مشحوناً باسم أمير المؤمنين وأولاده المعصومين وفضائلهم وإثبات خلافتهم، فبأيّ وجهٍ خاف النبيّ ' في حجّة الوداع آخرَ سنين عمره الشريف وأخيرةَ نُزولِ الوحي الإلهيّ من تبليغ آية واحدةٍ مربوطةٍ بالتبليغ، حتّى ورد أنّ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؟! ولِمَ احتاج النبيّ ' إلى دواة وقلم حين موته للتصريح باسم عليٍّ﵇؟! فهل رأى أنّ لكلامه أثراً فوق أثر الوحي الإلهيّ؟!**»(١٧).

ويُضيف﵀ في كتاب «كشف الأسرار»: «**قد أثبتنا في بداية هذه المقالة أنَّ النبي كان يخشى من أن يُضرب القرآن بعده إذا ذكر الإمام فيه بالاسم والرسم،**

أو أن يشتد الخلاف بين المسلمين بحيث يوجب القضاء على الإسلام بالكليّة... إنَّ تلك الأخبار مرجعها إلى التفسير والتأويل، نحن نقول المراد بأُولي الأمر في القرآن، وأهل الذِكْرِ في آياتٍ كثيرة، وأهل البيت في آية التطهير، والصادقين في ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، وحبل الله في آية الاعتصام بحبل الله، وصراط الله، والصراط المستقيم، والمؤمنين، في آية ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ ...﴾والأمانة في آية ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ ...﴾ ومئات الآيات، المراد الإمامة والأئمة لا أنَّ اسم الإمام قد ذكر في القرآن بخصوصه. وما نقوله ليس مستنداً فقط إلى أخبار الشيعة بل نقل أهل السنَّة ذلك أيضاً وهو مسطورٌ في كتبهم فليراجع... نعم هنا شيءٌ هو أنَّ بعض الأخباريين والمُحَدِّثين من الشيعة والسنَّة لم يعتن بشأنهم العلماء قد خُدِعُوا بظاهر بعض الأخبار، وأظهروا مثل هذا الرأي، ولكن ردّهم العلماء ولم يعتن بكتابهم في المجتمع... وقد ذكرنا أنَّ ذكر اسم الإمام في القرآن لم يكن في صالح الدين أبداً»(18).

ويقول السيّد أبو القاسم الخوئي‌رحمه‌الله: «إنَّا قد أوضحنا فيما تقدّم أنَّ بعض التنزيل كان من قبيل التفسير للقرآن وليس من القرآن نفسه، فلا بُدَّ من حمل هذه الروايات على أنَّ ذكر أسماء الأئمة‌عليهم‌السلام في التنزيل من هذا القبيل، وإذا لم يتمّ هذا الحمل فلا بُدَّ من طرح هذه الروايات لمخالفتها للكتاب، والسنَّة، والأدلة المتقدِّمة على نفي التحريف. وقد دلّت الأخبار المتواترة على وجوب عرض الروايات على الكتاب والسنة، وأنَّ ما خالف الكتاب منها يجب طرحه، وضربه على الجدار... وأنَّ ذكر اسم أمير المؤمنين‌عليه‌السلام في تلك الروايات قد كان بعنوان التفسير، أو بعنوان التنزيل، مع عدم الأمر بالتبليغ. ويضاف إلى ذلك أنَّ المتخلفين عن بيعة أبي بكر لم يحتجوا بذكر اسم عليٍّ في القرآن، ولو كان له ذكرٌ في الكتاب لكان ذلك أبلغ في الحجة...» (19).

وروحي فداءٌ لغضبة الإمام الراحل‌قدس‌سره حين يصبّ جام غضبه وسخطه على

القائلين إنَّ القرآن قد حُذف منه شيءٌ حول الإمامة وتسمية الإمام عليه السلام فيه، حيث يقول قدس سره في الرد عليهم وتقريعهم: «**كان على هؤلاء الجهلاء أن يقولوا مع من بحثوا في هذه المقال وعمَّن ينقلون هذه الأجواء السخيفة... مع من تحدثتم في هذه المسألة وأجابكم بهذا الجواب؟! لعلّكم رجعتم إلى بعض الكتب أو بعض الأخبار التي يظهر منها للوهلة الأولى وبالنظرة الساذجة ذلك المعنى من أنَّ القرآن حُذف منه شيءٌ. وهذا من عيوبكم، ترجعون إلى الأخبار مع هذا المستوى الذي لديكم في العلم والعقل، وتقرؤون الكتب العلميّة تريدون فهم الأخبار وكتب العلماء! هذه ليست قصصاً وحكايات يمكنكم مراجعتها وفهمها. إنَّ رجوعكم لتلك الكتب هي بالضبط كرجوع المزارع إلى الفلسفة العليا أو مطالعة الحمّامي للرياضيات العالية. إنَّ فهم الكتب العلميّة يحتاج إلى تخصص، ولمّا دخلتم في عالم الأخبار على عماكم كانت هذه هي النتيجة أنَّ الإمامة مذكورةٌ في القرآن لكن حذفت آياتها!!..**» [٢٠].

رابعاً: هناك روايات دلَّت على أنَّ بعض الآيات قد ذُكر فيها أسماء بعض الشخصيات من النساء والرجال، مبرزةً عيوبهم ومثالبهم، فاضحةً إياهم على ما اقترفوا، وقد حصل التحريف في الكتاب فأُنقصت منه!!

والكلامُ في هذا النوع من الروايات هو عينُهُ الكلامُ المُتقدِّم في النوع السابق، فإنَّها تسقط عن الاعتبار لضعفها، ولمخالفتها للكتاب والسنَّة، ولا ينحصر الكلامُ فيها بحملها على القول بالتحريف، وإنَّما يُمكنُ تأويلها فيرتفع المحذور منها.

قال الفيض الكاشاني رحمه الله في مقام تعليقه على إحدى الروايات التي تقول بوجود أسماء سبعين رجلاً من قريش في المصحف بأسمائهم وأسماء آبائهم، والمعروفة برواية البيزنطي: «**لعلَّ المراد أنَّهُ وجد تلك الأسماء مكتوبةً في ذلك المصحف تفسيراً للذين كفروا والمشركين مأخوذة من الوحي، لا أنَّها كانت من**

أجزاء القرآن... وكذلك كُلُّ ما ورد من هذا القبيل عنهم عليهم السلام، فإنَّهُ كلّه محمولٌ على ما قلناه؛ لأنَّهُ لو كان تطرق التحريف والتغيير في ألفاظ القرآن لم يبق لنا اعتمادٌ على شيءٍ منه، إذ على هذا يحتمل كُلُّ آيةٍ منه أن تكون محرَّفةً ومغيَّرةً، وتكون على خلاف ما أنزله الله، فلا يكون القرآن حجةً لنا، وتنتفي فائدته وفائدة الأمر باتّباعه والوصية به، وعرض الأخبار المتعارضة عليه» (٢١).

وقال أيضاً: «**يحتمل أن يكون ذلك تفسيراً منهم عليهم السلام للقرآن على طبق مراد الله عز وجل ووفق ما أنزل الله جلّ جلاله، لا أن تكون تلك الزيادات بعينها أجزاء لألفاظه المنزلة**» (٢٢).

الشيعة وتنزيه القرآن عن التحريف

الجمهرة الواسعة من علماء الشيعة يعتقدون ويصرّحون أنَّ القرآن الكريم مُنزّهٌ عن التحريف، وأنَّ ما وصلنا إلى يومنا هذا قد وصلنا بالتواتر على أنَّهُ هو القرآن الكريم المُنزل على قلب خاتم الأنبياء والرسل ' حيث لم تتعرض له يد التحريف والتزييف والزيادة والنقصان لا في سورةٍ من سوره ولا في آيةٍ من آياته ولا حتى بكلمةٍ أو حرفٍ واحدٍ من حروفه، وعلى هذا إجماع الشيعة الإماميّة كما يقول الشيخ كاشف الغطاء رحمه الله (٢٣).

ولقد تصدى علماء الإماميّة لمقولة التحريف وأصحابها، فأبطلوا تلك المزاعم، وتعاملوا معها معاملة العدم وكأنَّها لم تكن موجودةً أصلاً؛ فإنَّ صحَّة نقل القرآن الكريم بالنسبة لهم واضحةٌ وجليّةٌ وضوحاً بيناً وجلاءً لا غبار عليه ولا يقبل الشك والترديد، كالقطع بوجود المدن والعواصم والوقائع التاريخيّة العظمى، فهل منا من يُشكك بوجود مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة والكوفة والنجف الأشرف وكربلاء المقدَّسة، وغيرها من المدن والنواحي المشهورة والمعروفة وإن لم يكن قد زارها أو تواجد فيها في حياته ولو للحظةٍ واحدةٍ؟!!

أو هل منا من يُشكك بحدوث غزواتٍ وحروبٍ كبدرٍ وأُحُد والخندق وصفين وغزوات المغول والحروب الصليبيّة والحرب الأولى والثانية، و..؟!!

من هنا، فإنَّ التسليم بمسألة تواتر القرآن الكريم لا يقل بداهةً عن التسليم بوقوع كُلِّ ذلك من الأحداث والوقائع.

يقول الشريف المرتضى علم الهدى عليه السلام: «**قد بيَّنا صحّة نقل القرآن في المسائل الطرابلسيات، وأنَّهُ غير منقوصٍ ولا مُبدَّلٍ ولا مُغيَّرٍ، وأنَّ العلم بأنَّ هذا القرآن الذي في أيدينا هو الذي ظهر على يد رسول الله ' كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المصنَّفة المشهورة والأشعار المُدوَّنة**»[٢٤].

وبالرغم من هذا ينسب المغرضون تهمة التحريف إلى الشيعة، ويتهمونهم زوراً بالاعتقاد بها، وجُلُّ مبتغاهم إشعالُ نار الفتنة بين الشيعة وغيرهم من مُسلمي العالم على خلفيّة هذه الدعوى المُنكرة لتكون ناراً شعواء وفتنةً عمياء تُزهَقُ فيها الأرواح وتُدحرج فيها الرؤوس وتُطاح دونها رادع تحت عنوان الدفاع عن القرآن وصونه، والشيعةُ بُرَآءٌ من تلك الدسيسة مُنزهون من تلك الفرية.

ما لكم كيف تحكمون

ولقد وصلت الأمور إلى أنَّهم وبعد أن دسوا تلك الدسائس وكذبوا تلك الكذبة عمدوا إلى تصديقها وعملوا على إبطالها وتفنيد رأي الشيعة ـ المنسوب إليهم زوراً ـ في مسألة التحريف. فها هو ابن حزمٍ أوَّل المفترين والمتهمين للشيعة بتحريف القرآن، ثم نجد فخر المشككين الرازي وفي مقام تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾، يتصدى لبيان بطلان (رأي الشيعة) حول وقوع الزيادة والنقصان في الكتاب العزيز[٢٥]، وكان في إثرهم غيرهم ممن

ركب موجة الاتهام وامتطى صهوة الافتراء، حتى وصل الأمر بالمستشرقين وحديثي العهد بالاطلاع على الإسلام والمتطفلين عليه إلى أن يلعبوا على ذاك الوتر لشد عصب التناحر المذهبي والتقاتل الطائفي.

ونحن ومع علمنا بتعصب هؤلاء ضدَّ الشيعة كان ينبغي علينا الإعراض عنهم وعن سفاسفهم وتخرصاتهم وسفسطائيتهم، لكن وفي مقام البحث العلمي نقول: من قال لكم إنَّ هذا هو الرأي الذي تقول به الشيعة وتعتقده؟!! ومن لَبَّس عليكم ذلك؟!!

فأنتم إن كنتم تقصدون العوام فلا تنزلوا منزلتهم ولا تجروا مجراهم؛ فإنَّهُ لا عبرة بقولهم في ما يُعتبرُ فيه قول أهل العلم، ولا يؤخذ برأي المفضول على الفاضل.

وإن كنتم تقصدون كبار علماء الشيعة فإنَّهُ ليس لكم عليهم سبيل؛ لأنَّهم لا يقولون بذلك، وسيأتيكم عن قريب قولهم الفصل في هذه المسألة، كالرعد الصاعق والسيل الجارف لكُلِّ تلك التقولات والتخرصات.

وإن كنتم تقصدون النادر الشاذ ممن ذهب هذا المذهب منهم، فإنَّ قولهم ذلك لا يُلزم الجماعة، خصوصاً مع كثرة القائلين بخلاف ما ذهبوا إليه من العلماء ووجوه القوم، وسوف تقفون عن قريبٍ أيضاً على إبطالهم لتلك الأقوال والمزاعم واستسخافهم لها وإعراضهم عنها، فانتظروا ولا تعجلوا فإنَّ السلامة في التأني وفي العجلة الندامة.

كما إنَّهُ لا ينبغي لكم ولغيركم ممن سار على هواكم ونهجكم أن تغفلوا عن وجود مثل ذلك البعض القليل ممن ذهب إلى القول بالتحريف بين علماء العامَّة، هذا وإن كانوا وعلى قلتهم يفوقون القائلين بتلك المقولة من الشيعة عدداً وخطراً فيما انتهجوا وسلكوا. فهل ألزمناكم طائرهم في أعناقكم؟!! وهل ألبسناكم جميعاً ما لبسوا؟!! فإنَّ من كبرائكم من قال: إنَّ فيه لحناً وخطأً[٢٦]،

وهم من خَلَّفَ الكتاب عرضةً للتحريف وتركوا تدوينه إلى زمن الخليفة الثالث ـ لا كما نعتقد وإنَّما كما تزعمون ـ مُنشغلين عن ذلك بأمور الحكم والخلافة والسياسة!!

هل يلتزم العامة ـ فعلاً ـ بصحّة الصحاح؟!!!

وليس خافياً أنَّ العامّة قد ألزموا أنفسهم بصحّة ما في صحاحهم وأنَّهم اعتمدوها واعتبروها بعد القرآن الكريم، بل لا تقل عندهم عنه صحةً واعتباراً، وهذا بخلاف ما ذهبت إليه الشيعة حيث لم يلتزموا بصحّة أيٍّ من كتبهم على نحو الكليّة وإنَّما أخضعوا كتبهم وروايتهم للتحقيق والتدقيق وأسقطوا بعض رواياتها عن الاعتبار وفق الضوابط والقواعد التي وضعوها وارتكزوا إليها في علوم الأصول والرجال والدراية.

وهنا نسأل:

ـ ماذا تفعلون بالروايات التي تقول بوصول يد التحريف إلى الكتاب العزيز والتي شُحنت بها صحاحُكُم التي التزمتم بصحتها، وهي تعدُّ أكثر عدداً وأصحّ سنداً مما هي عليه عندنا؟ فإمّا أن تلتزموا بصحتها لتقولوا بتحريف القرآن وهذا ما لا تقولون به ـ إن شاء الله ـ ونحن معكم، وإمّا أن ترفعوا اليد عن مقولة صحّة صحاحكم وفي هذا الأمر الكثير الكثير من الأمور التي سُتقلَب رأساً على عقب، وعندها سيتسع الخرق على الراقع.

ـ ثم هل تقبلون أن نلزمكم بما تؤدّي إليه تلك الروايات لمجرد روايتها في صحاحكم؟

طبعاً نحن لن نفعل ذلك لأنَّنا نؤمن بما يمليه علينا عقلنا السليم وفكرنا القويم من أنَّ الرواية والنقل لا يدلان على التبني والاعتقاد، فنقل الحديث لا يكشف عن عقيدة ناقله ما لم يصرّح باعتقاده به، وهذا من بديهيّات ألف باء فن

التحقيق، ورواية روايات التحريف لا تعني تبنيها والقول بما فيها والاعتقاد بما تفضي إليه، فها هو الشيخ الصدوق﵀ الراوي لبعض تلك الروايات القائلة بالتحريف يقول إنَّ اعتقاد الإماميّة بالقرآن سلامته من أيّ تحريف، وإنَّ من ينسب إلى الشيعة قولهم إنَّ القرآن أكثر من هذا الموجود بين أيدينا فهو كذّاب(٢٧).

وهذا ما نجده في إجماع العامّة من عدم وقوع التحريف في الكتاب بالرغم من وجود الرواية الصحيحة ـ عندهم ـ في صحاحهم. فلماذا باؤكم تجر وباؤنا لا تجر؟!! ولماذا إجماعكم يُصدَّق ويُبنى عليه وإجماعنا لا قيمة له؟!! فما هكذا تورد الإبلُ ولا يصح صحوٌ ومطرٌ على سقفٍ واحد.

ومن المفيد في هذا المقام أن ننقل برهاناً ذكره الميرزا محمد حسين الحائري الشهرستاني ﷺ في رسالةٍ له يدحض فيها مقولة التحريف، فيقول ما توضيحه:

«إنما تستقيم نسبة عقيدة التحريف إلى هؤلاء الأجلاء إذا تجمعت هناك مقدِّمات أربع ضروريّة:

أولاها: تعهد صاحب الكتاب بصحّة ما يرويه على الإطلاق تعهداً صريحاً وشاملاً.

ثانيتها: ظهور تلكم الأحاديث في التحريف ظهوراً بيّناً بحيث لا يحتمل تأويلاً أو محامل أُخر معتمدةً على شواهد من عقلٍ أو نقلٍ متواتر.

ثالثتها: عدم وجود معارض لها بحيث يترجّح عليها حسب نظر صاحب الكتاب.

رابعتها: حجيّة خبر الواحد عند صاحب الكتاب، كما هو حجّة عند الأخباريين، في مسائل الأُصول والفروع على السواء.

فإذا ما توفرت المقدِّمات الأربع صحّت نسبة التحريف إلى تلكم الكتب المشتملة على روايات التحريف كما زعموا! ولكن أنّى لهم بإثبات ذلك، ودون

إثباته خرط القتاد» (٢٨).

فلا بُدَّ وأن تُدركوا أنَّهُ لا عبرة بالشاذ النادر من الآراء وإنَّما العمدة على ما اشتهر وانتشر، وهو كالنار على المنار وكالشمس في رابعة النهار، وظني بل يقيني يحدوني إلى أنَّكم تعرفون وتحرفون فساء ما تحكُمون وأفك ما تفترون.

يقول الشيخ كاشف الغطاء طاب ثراه: «**حجيته ـ أي القرآن ـ من ضروريات الدين ... لا زيادة فيه من سورة ولا آية من بسملة وغيرها لا كلمة ولا حرف وجميع ما بين الدفتين مما يتلى كلام الله تعالى بالضرورة من المذهب بل الدين وإجماع المسلمين وإخبار النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام وان خالف بعض من لا يعتد به ... لا ريب في أنه محفوظ من النقصان بحفظ الملك الديان كما دلَّ عليه صريح القران وإجماع العلماء في جميع الأزمان ولا عبرة بالنادر، وما ورد من أخبار النقيصة تمنع البديهةُ من العمل بظاهرها ولا سيَّما ما فيه نقص ثلث القران أو كثيرٌ منه، فإنَّهُ لو كان ذلك لتواتر نقلُهُ لتوفر الدواعي عليه ولاتخذه غيرُ أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله. ثم كيف يكون ذلك وكانوا شديدي المحافظة على ضبط آياته وحروفه...**» (٢٩).

ومن هنا، ومن باب سحب الذرائع وحصحصة الحق وإسقاط ما في أيدي المُتَهِمين والمُفتَرين ومُتقولي الزور، ينبغي علينا إبراز آراء العلماء وبيان الخطاب الفصل في هذه المسألة وفي هذا المضمار، تنزيهاً لساحة القرآن، ودفعاً لكيد الأعداء والمتربصين، ودحضاً للتهم والافتراءات عن الشيعة الإماميّة. ومن هنا نستعرض فيما يلي آراء بعض علماء ووجوه الإماميّة في ردّ القول بتحريف الكتاب العزيز:

١) يقول الشيخ الصدوق رحمه الله: «**اعتقادنا أنَّ القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مئة وأربع عشرة سورة... ومن نسب إلينا أنَّا نقول إنَّهُ**

أكثر من ذلك فهو كاذب»(٣٠).

٢) ويقول الشريف المرتضى علم الهدى: «إنَّ القرآن كان على عهد رسول الله مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن»(٣١).

٣) ويقول شيخ الطائفة الطوسي: «والمقصود من هذا الكتاب علم معانيه، وفنون أغراضه وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً، لأنَّ الزيادة فيه مجمعٌ على بطلانها والنقصان منه، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات غير أنَّهُ رويت روايات كثيرةٌ، من جهة الخاصّة والعامّة، بنقصان كثيرٍ من آي القرآن، ونقل شيءٍ منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً، والأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها، لأنَّهُ يمكن تأويلها ولو صحّت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين، فإنَّ ذلك معلوم صحته، لا يعترضه أحدٌ من الأمّة ولا يدفعه ورواياتنا متناصرةٌ بالحث على قراءته والتمسك بما فيه، ورد ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه»(٣٢).

٤) ويقول الشيخ الطبرسي: «الكلام في زيادة القرآن ونقصانه فإنَّهُ لا يليق بالتفسير. فأما الزيادة فيه: فمجمعٌ على بطلانه. وأما النقصان منه: فقد روى جماعةٌ من أصحابنا، وقومٌ من حشويّة العامّة، أنَّ في القرآن تغييراً أو نقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه، وهو الذي نصره المرتضى، واستوفى الكلام فيه غاية الاستيفاء في جواب المسائل الطرابلسيات»(٣٣).

٥) ويقول العلامّة الحلّي: «الحق أنَّهُ لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه، وأنَّهُ لم يزد فيه ولم ينقص، ونعوذ بالله تعالى من أن يعتقد مثل ذلك، فإنَّهُ يوجب التطرق إلى معجزة الرسول المنقولة بالتواتر»(٣٤).

٦) وقال الشيخ البهائي العاملي: «والصحيح أنَّ القرآن العظيم محفوظٌ من

التحريف، زيادةً كانت أو نقصاناً بنصّ آية الحفظ من الذكر الحكيم. وما اشتهر من الإسقاط في مواضع من الكتاب فهو غير معتبر عند العلماء»[٣٥].

٧) وقال خاتمة المحدّثين، الحرّ العاملي﵀: «**إنَّ من تتبع أحاديث أهل البيت﵈، وتصفح التأريخ والآثار، علم علماً يقينيّاً أنَّ القرآن قد بلغ أعلى درجات التواتر، فقد حفظه الألوف من الصحابة ونقله الألوف، وكان منذ عهده ' مجموعاً مؤلفاً**»[٣٦].

٨) وقال الشيخ زين الدين البياضي العاملي﵀: «**عُلِم بالضرورة تواتر القرآن بجملته وتفاصيله، وكان التشديد في حفظه أتمّ، حتى نازعوا في أسماء السور والتفسيرات، وإنَّما اشتغل الأكثر عن حفظه بالتفكر في معانيه وأحكامه، ولو زيد فيه أو نقص لعلمه كُلُّ عاقلٍ وإن لم يحفظه، لمخالفة فصاحته وأسلوبه**»[٣٧].

٩) وقال السيّد عبد الحسين شرف الدين العاملي﵀: «**كُلُّ من نسب إليهم تحريف القرآن فإنَّهُ مفترٍ عليهم ظالمٌ لهم، لأنَّ قداسة القرآن الحكيم من ضروريات دينهم الإسلامي ومذهبهم الإمامي... وظواهر القرآن فضلاً عن نصوصه من أبلغ حجج الله تعالى وأقوى أدلة أهل الحق بحكم البداهة الأوليّة من مذهب الإمامية، ولذلك تراهم يضربون بظواهر الأحاديث المخالفة للقرآن عرض الجدار ولا يأبهون بها وإن كانت صحيحة، وتلك كتبهم في الحديث والفقه والأصول صريحة بما نقول. والقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنَّما هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً، ولا تبديل فيه لكلمةٍ بكلمةٍ ولا لحرفٍ بحرفٍ، وكُلُّ حرفٍ من حروفه متواترٌ في كُلِّ جيلٍ تواتراً قطعياً إلى عهد الوحي والنبوة، وكان مجموعاً على ذلك العهد الأقدس مؤلفاً على ما هو عليه الآن، وكان جبرائيل﵇ يعارض رسول الله ' بالقرآن في كُلِّ عام مرة وقد عارضه به عام وفاته مرتين. والصحابة كانوا يعرضونه ويتلونه على النبي ' حتى ختموه**

عليه ' مراراً عديدة، وهذا كُلُّه من الأمور المعلومة الضروريّة لدى المحققين من علماء الإماميّة، ولا عبرة بالحشويّة فإنَّهم لا يفقهون. والباحثون من أهل السنة يعلمون أنَّ شأن القرآن العزيز عند الإماميّة ليس إلا ما ذكرناه والمنصفون منهم يصرخون بذلك»[٣٨].

١٠) وقال السيّد محسن الأمين العاملي﵀ رداً على ابن حزم ومن تبعه: «لا يقول أحدٌ من الإماميّة لا قديماً ولا حديثاً أنَّ القرآن مزيدٌ فيه قليلٌ أو كثيرٌ فضلاً عن كلهم، بل كُلُّهم متفقون على عدم الزيادة ومن يعتد بقوله من محققيهم متفقون على أنَّهُ لم ينقص منه، ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو كاذبٌ مفترٍ مجترئٌ على الله ورسوله»[٣٩].

١١) وقال الإمام الخميني﵀ : «إنَّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة يقف على بطلان تلك المزعمة. وما ورد فيه من أخبار ـ حسبما تمسكوا ـ إما ضعيف لا يصلح للاستدلال به، أو مجعولٌ تلوح عليه أمارات الجعل، أو غريبٌ يقضي بالعجب، أما الصحيح منها فيرمي إلى مسألة التأويل والتفسير وأن التحريف إنَّما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته. وتفصيل ذلك يحتاج إلى تأليف كتابٍ حافلٍ ببيان تاريخ القرآن والمراحل التي قضاها طيلة قرون ويتلخص في أنَّ الكتاب العزيز هو عين ما بين الدفتين لا زيادة فيه ولا نقصان، وأنَّ الاختلاف في القراءات أمرٌ حادثٌ ناشئٌ عن اختلافٍ في الاجتهادات من غير أن يمس جانب الوحي الذي نزل به الروح الأمين على قلب سيّد المرسلين»[٤٠].

١٢) وقال السيّد محمد حسين الطباطبائي﵀: «إنَّ القرآن أنزله الله على نبيه ووصفه في آيات كثيرة بأوصافٍ خاصّة لو كان تغير في شئ من هذه الأوصاف بزيادة أو نقيصة أو تغيير في لفظ أو ترتيب مؤثر فقد آثار تلك الصفة قطعاً، لكنّا نجد القرآن الذي بأيدينا واجداً لآثار تلك الصفات المعدودة على أتمّ ما يمكن

وأحسن ما يكون، فلم يقع فيه تحريفٌ يسلبه شيئاً من صفاته فالذي بأيدينا منه هو القرآن المنزل على النبي ' بعينه»(٤١).

١٣) وقال السيّد أبو القاسم الخوئيﷺ: «**ومما ذكرناه: قد تبين للقارئ أنَّ حديث تحريف القرآن حديثُ خرافةٍ وخيال، لا يقول به إلا من ضعُف عقله، أو من لم يتأمل في أطرافه حق التأمل، أو من ألجأه إليه حبّ القول به. والحب يعمي ويصم، وأمّا العاقل المنصف المتدبر فلا يشك في بطلانه وخرافته**»(٤٢).

وفي أيامنا هذه ما زال إجماع مراجع وعلماء الإماميّة معقوداً على نفي التحريف عن الكتاب الشريف، ومن أبرز من كتب في هذا المجال مؤخراً في السنوات القليلة الماضية: السيّد مرتضى العسكريﷺ في «القرآن الكريم وروايات المدرستين»(٤٣)، والعلامة الشيخ محمد هادي معرفةﷺ في «صيانة القرآن عن التحريف»، والعلامة المحقّق السيّد جعفر مرتضى العاملي في «حقائق هامّة حول القرآن الكريم»، والسيّد علي الميلاني في «التحقيق في نفي التحريف».

وبالرغم من كُلّ تلك الشهادات لكبار العلماء ممن يُعتنى بقولهم ويوقف عند رأيهم، وبالرغم من سعة صدورنا والإنصاف الذي نتعاطى به، بحيث لا نقبل أن نلزم غيرنا بشيءٍ لمجرد النقل والرواية، كما أنَّنا لا نقبل أن نُلزَمَ بشيءٍ لمجرد روايته، فإنَّ المسلم من أحب لأخيه ما يحب لنفسه، بالرغم من هذا نرى الكثير من المتحاملين على الشيعة قد حملوا قديماً وما زالوا يحملون عليهم ويتهمونهم بالقول بالتحريف لمجرد أن صنَّف أحد علمائهم من المُحدِّثين كتاباً حول تحريف القرآن، أعني كتاب «**فصل الخطاب في تحريف كتاب ربِّ الأرباب**» للميرزا النوريﷺ صاحب المصنفات الكثيرة ومنها «**مستدرك الوسائل**» و«**النجم الثاقب**» وغيرها. وغاب عن هؤلاء أو تعاموا عن حقيقةٍ ناصعةٍ وساطعةٍ ألا وهي أنّ النسبة الأكبر من روايات ذلك الكتاب إنّما نقلها الميرزا النوريﷺ عن كتب العامّة ومن صحاحهم، وأنَّ الكثير من تلك الروايات ناظرةٌ وقابلةٌ

للتأويل والحمل على ما تقدَّم من صنوف الأحاديث القدسيّة والدعاء والمناجاة والقراءات و... وأنَّ القليل الباقي لا يسلم من المناقشة في صحة السند. وأنَّ كتاب الميرزا النوري﵀ «**فصل الخطاب**» لم يكن مورد احترام وقبول واعتماد علماء الإماميّة، وإنَّما ناقشوه وكتبوا ردوداً مباشرة أو غير مباشرة في مقام رد ذلك الرأي وتفنيده.

«فصل الخطاب» في الميزان

لم يكن «**فصل الخطاب**» أوّل مقالٍ حول تحريف الكتاب العزيز، ولم يكن أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام أو أوّل ثلمٍ يُثلمُهُ، إلا أنَّ الضوضاء والصخب والأصداء العارمة التي أحاطت به منذ خروجه إلى حيّز الوجود ـ وحبذا لو بقي في غياهب العدم وسراديب اللاوجود ـ لم يسبق أن أُشيع مثلها لمثيله من كتبٍ ومقالاتٍ حول هذا الموضوع المستنكر، وهذا ما لم يتوقعه وما لم يستنظره أكثر المتفائلين والمتشائمين على حدٍّ سواء، ويُمكنني أن أدَّعي أنَّ الشيخ النوري﵀ نفسه لم يكن يتوقع أو حتى ليحلم بما سيلقى ذلك الكتاب من ردود فعل، وبما سيلقاه من عواصف عاتية حول مزاعمه التي لملم لها شتات الأخبار وضعاف الروايات في ذاك الكتاب.

فالشيعة أنكروا عليه وهاجموه لرفضهم ما ادَّعى، ولغرابة مقولته عن عقيدتهم ومبتنياتهم الدينيّة والفكريّة حول قداسة القرآن الكريم وعلوّ شأنه. وغيرُهُم استغلّ الموقف للتشنيع على التشيّع وأهله، وتحميلهم ما لا يحتملون، وقد لعبت السياسة دورها الخبيث في إذكاء تلك الفتنة وتسعيرها.

مواقف علماء الإماميّة من «فصل الخطاب»

لم يسكت علماء الشيعة عن محنة «**فصل الخطاب**» وإنَّما تصدوا لبيان

اشتباهات الميرزا النوري﵀ بأوضح البيان وأجلى الحجج والبرهان، وقد أنكروا عليه تأليفه ذاك الكتاب وردوه بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، وبيَّنوا فساده وفساد الاستدلال به. ومنذ اليوم الأوَّل اضطربت محافل سامراء العلميّة وماجت في مواجهة نزيلها الشيخ النوري﵀، فهبَّ علماؤها مسارعين في التأليف والتصنيف رداً عليه بأشدّ التعابير وأقساها، وإلى يومنا هذا ما زال علماء الإماميّة يُفَنّدون آراءه ومزاعمه المخالفة لإجماعهم حول صيانة وسلامة الكتاب الشريف من التحريف والتزييف، متفقين على أنَّ كتاب «**فصل الخطاب**» ضعيفٌ في المباني والمعاني يفتقد للقيمة العلميّة، ومع ذلك كان لا بُدَّ من وضع النقاط على الحروف، وبيان عيوبه ومشاكله ليتضح الحق لطالب الحقيقة، ولتُدفع الافتراءات والشائعات الذائعة حول التزام الشيعة بمقولة تحريف القرآن ـ وهم براء ـ ومؤكدين وبالدليل القاطع والبرهان الساطع أنَّ جُلَّ أدلة الكاتب في كتابه إنَّما استقاها من كتب المخالفين للشيعة، وأنَّ الروايات أكثرها يدخل في دائرة القراءات، أو التفسير أو التأويل، أو عن الخطأ في النسخ والكتابة للمصاحف، والكثير من روايات الكتاب تنتهي إلى السياري، الذي يقول فيه الرجاليون إنَّهُ فاسد المذهب، ومنحرفٌ، وغالٍ، وملعون على لسان الإمام الصادق﵇. أو إلى علي بن أحمد الكوفي، الذي قيل فيه إنَّهُ: كذابٌ وفاسدُ المذهب، أو إلى أمثال هؤلاء كـ : مُنَخّل بن جميل الكوفي، و يونس بن ظبيان، ومحمد بن حسن بن جمهور. كذلك فإنَّ الكثير من الروايات هي مكررات نُقلت من أكثر من كتاب مع اتحاد السند تارةً أو اختلاف الطريق أخرى.

ومن جملة من كتب في الردّ عليه من معاصريه:

ـ الشيخ المعرّب الطهراني﵀، في رسالةٍ أسماها «**كشف الارتياب في عدم تحريف الكتاب**»، تقرب من أربعة آلاف بيت في ٣٠٠ صفحة(٤٤).

ـ والسيّد محمّد حسين الشهرستاني﵀ في رسالةٍ أسماها «**حفظ الكتاب**

الشريف عن شبهة القول بالتحريف» ردَّ فيها عليه وأثبت من خلالها صيانة القرآن الكريم[٤٥].

ـ والشيخ الحجّة البلاغي﵀ في مقدِّمة تفسيره «**آلاء الرحمان**» وهناك قال تشنيعاً عليه: «**إنَّ صاحب فصل الخطاب من المحدِّثين المكثرين المجدّين في التتبع للشواذّ، وإنَّهُ ليعدّ هذا المنقول من «دبستان المذاهب» ضالته المنشودة، مع اعترافه بأنَّهُ لم يجد لهذا المنقول أثراً في كتب الشيعة**»[٤٦].

ثم تتالت الردود والانتقادات ومنها:

ـ ما أفاده الإمام الخميني﵀ في أنوار الهداية حيث قال: «**أنّه لو كان الأمر كما توهّم صاحب «فصل الخطاب» الذي كان كَتَبَهُ لا يفيد علماً و لا عملًا، و إنَّما هو إيراد روايات ضعاف أعرض عنها الأصحاب، و تنزه عنها أولو الألباب من قدماء أصحابنا كالمحمّدين الثلاثة المتقدّمين ﵃. هذا حال كتب روايته غالباً كالمستدرك، ولا تسأل عن سائر كتبه المشحونة بالقصص والحكايات الغريبة التي غالبها بالهزل أشبه منه بالجدّ، و هو﵀ شخصٌ صالحٌ متتبّعٌ، إلّا أنَّ اشتياقَه لجمع الضعاف والغرائب والعجائب وما لا يقبلها العقل السليم والرأي المستقيم، أكثرُ من الكلام النافع، والعجب من معاصريه من أهل اليقظة! كيف ذهلوا وغفلوا حتّى وقع ما وقع ممّا بكت عليه السماوات، وكادت تتدكدك على الأرض؟!**»[٤٧].

ولا ينبغي لمهتمٍ في الاطلاع على مناقشة وردّ ودحض ما اشتمل عليه «**فصل الخطاب**» أن يفوته مراجعة ما أفاض به العلمان الكبيران: العلّامة المحقق الشيخ محمّد هادي معرفة﵀ في كتابه «**صيانة القرآن من التحريف**»[٤٨]، والعلّامة المحقق السيّد جعفر مرتضى العاملي في كتابه «**حقائق هامّة حول القرآن الكريم**» وكتابه «**مختصر مفيد**»[٤٩].

هذا أولاً، وثانياً حتى وإن كان الميرزا النوري﵀ قد اعتقد بالتحريف والتزم

القول به فعلاً، فإنَّ هذا الأمر لا يعدو كونه رأي الميرزا النوري﵀ نفسه ولا يُلزم الطائفة بأكملها، فلماذا يؤخذ برأي واحدٍ أو اثنين أو ربما أكثر من ذلك بقليل ويُتغاضى عن رأي العشرات بل المئات بل الجمهرة الواسعة من علماء الإماميّة القائلين بنفي التحريف. فمع وجود الأكثريّة على خلاف الأقليّة لا يؤخذ بالشاذ النادر ولا يُعتمد على القليل المُنحَصِر.

رد علماء الإماميّة لمزعمة التحريف

وهنا لا بُدَّ من مقدِّمات

المقدِّمة الأولى: إنَّ قدسيّة القرآن ومكانته عند المسلمين ضمانةُ عدم تحريفه، فلقد اهتم المسلمون الأوائل وعلى رأسهم الرسول الأكرم ' وأهل البيت﵈ بالقرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وقضية حفظ الكتاب وصونه تدويناً وتدقيقاً والسعي الحثيث والدائم لتجنيبه محاولات الدس والإنقاص والتزييف والتحريف إنَّما كانت الشغل الشاغل للنبي الأكرم ' وأهل بيته الطاهرين﵈، ومثلهم كان عامَّةُ الناس يتابعون القرآن متابعةً حثيثةً ويراعونه مراعاةً دقيقةً، وذلك لما عرفوه وخبروه من وقوع التحريف في الكتب السماوية الأخرى كالتوراة والإنجيل، ولأنَّ القرآن الكريم كتاب ربهم المنزل إليهم وإلى يوم يُبعثون، وهو مفخرتهم التي تحدوا العالم بإعجازه وبلاغته وشموليته، والتي حاربوا وقاتلوا وبذلوا المهج والأرواح على تنزيله وتأويله، فهم قد عرفوا قدر هذه الهبة الربانيّة وهذه المائدة الإلهيّة الرحمانيّة التي إنَّما كانت لأجل هدايتهم وإرشادهم وتنظيم شؤون حياتهم، حتى أنَّ المرأة كانت تجعل مهرها تعليمها سورةً أو أكثر من سور القرآن الكريم.

المقدِّمة الثانية: عمد المسلمون ومنذ اليوم الأوَّل لوجود الوحي القرآني بين ظهرانيهم إلى كتابته وتدوينه على الأخشاب، والأحجار، والجلود، والعظام،

وسعف النخل؛ لأجل حفظه وصونه والاحتفاظ به نصاً مكتوباً له حجيّته حين الرجوع إليه لأجل الاعتماد عليه.

ومسألة الكتابة والتدوين لم تكن شيئاً مستبعداً وصعباً على المسلمين في مرحلة البعثة والدعوة وما تلاها، لتوفر وسائل الكتابة ومعرفتهم بها، وأسباب ودواعي التدوين موجودةٌ عندهم، ومنها:

١ـ حثُّ النبي ' على ذلك ووعده بالأجر والثواب على حفظ القرآن الكريم.

٢ـ المنزلة والمقام المرموق عند الناس للحافظ والتالي لكتاب الله والعالم المتصدي لتعلمه وتعليمه.

٣ـ الموانع من كتابة القرآن وتدوينه وحفظه كانت معدومةً ومفقودةً؛ وذلك لوجود الرغبة الشديدة لحفظ السور والآيات واقتنائها وحفظها عندهم في دورهم ومساجدهم وتجمعاتهم ومحافلهم أولاً؛ والخبرة في هذا المجال ثانياً، فقد خطَّ المسلمون الأوائل الكتب والرسائل والعهود والمواثيق وكتبوها بأدوات الكتابة الخاصّة بوقتهم وزمانهم.

المقدِّمة الثالثة: الرقابة النبويّة لعمليّة تدوين الآيات القرآنيّة، فإنَّهُ من البدهيّ أن يعمد صاحبُ الشيء الثمين والغالي وذي القيمة العالية إلى السعي الدائم في حمايته ورعايته وحفظه وصونه. وأصحابُ الفكر والرأي والعلم يعمدون دائماً إلى كتابة وتسطير أفكارهم وآرائهم وتقويم نصوصها وتنظيمها وطبعها ونشرها وتوزيعها بأبهى حلَّةٍ وأحسن المعايير لتصل إلى أكبر فئةٍ ممكنةٍ من القراء والمتابعين والمهتمين كما هي ودون تحريف وتغيير، فكيف إذا كان هذا الأمر الثمين والغالي هو الوحي المُنزل من الله تبارك وتعالى، والذي لا يأتيه الباطل أبداً كما وعد وأخذ على نفسه تقدَّست أسماؤه؟ وكيف إذا كان كلاماً للخالق ـ تعالى شأنه ـ ولم يكن من كلام المخلوقين؟ فإنَّهُ حتماً وبلا أي تردد وبكُلِّ

اطمئنان سيسعى ذلك القلبُ الذي كان وعاءً نورانيّاً لذلك التنزل الرباني للآيات الإلهيّة، سيسعى جاهداً لحفظها وحمايتها وصونها وإيصالها إلى الخلائق المخاطبة بها كاملةً بلا أي نقيصة أو زيادة. وهذا مقتضى معرفة تلك النعمة ومعرفة قدرها والإخلاص لها، فمن أحبّ شيئاً حفظه ورعاه وحماه ولم يفرّط به ويتركه دون صيانةٍ من أيدي العابثين.

وهكذا كان الرسول الأعظم ' ، الذي عرف قدر القرآن وقدر صاحب ذلك الوحي؛ بحيث أفنى ' حياته المباركة في العيش مع القرآن الكريم والدعوة إليه، وهذه الحقيقة التاريخيّة تبرزها العديد من الروايات التي تنقل لنا كيف أنَّ النبي الأكرم ' قد حثَّ كثيراً على حفظ واستذكار القرآن الكريم، وكيف أنَّهُ ' قد رَغَّبَ به مُبرزاً مقدار الأجر والثواب على ذلك العيش مع القرآن وبمجرد النظر إليه وإلى كتابته وأسطره وكلماته وحروفه وحركاته. فقد روي عنه ' أنَّهُ قال: «**من قرأ القرآن حتى يستظهره ويحفظه أدخله الله الجنَّة، وشفَّعهُ في عشرةٍ من أهل بيته كُلُّهُم قد وجبت لهم النار**»(٥٠).

وكذلك تُبرزُ لنا الروايات كيف أنَّهُ ' كان يقيم مجلساً خاصاً لتدوين وكتابة الوحي القرآني النازل على قلبه الشريف، فيكتب على الرقاق والصحف والعسب والقراطيس، فقد روى الحاكم عن زيد بن ثابت، قال: «**كنّا عند رسول الله ' نؤلف القرآن من الرقاع**» (٥١). ومن شدَّة اهتمامه بكتابة وحفظ وصيانة القرآن الكريم كان ' يقوم بالإشراف المباشر على الكتابة والتدقيق فيها بعد الانتهاء من تسطيرها وتدوينها، فتتلى عليه ويقوم بتصحيحها وتقويمها، ثمّ من بعد ذلك يأذن بنشرها لتتلى على الناس. فقد روى الهيثمي في مجمع الزوائد عن زيد بن ثابت، قال: «**كنت أكتب الوحي لرسول الله ' ... فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرةٍ فأكتب وهو يملي عليَّ... فإذا فرغت قال: إقرأ، فأقرأه فإن كان فيه سقطٌ أقامه ثم أَخرُجُ به إلى الناس**»(٥٢).

وكان ' يعرض ما في صدره من قرآن على ما في صدور الحفاظ، وذلك ليتأكّد ويتبيّن موافقة ما في صدورهم من محفوظات لما في صدره الشريف من آياتٍ وسور. وكذلك كان أصحاب المصاحف المدونة والمكتوبة يعرضون ما لديهم من مدونات على النبي ' ، وكان بدوره يتابعها ويعاينها بمنتهى الرعاية والدقة. وقد حفظ المئاتُ من الصحابة القرآنَ في عهده ' ، ويروى أنَهُ قُتِلَ أربعمئة حافظ في وقعة اليمامة ضدَّ مسيلمة الكذاب، زمن خلافة أبي بكر(٥٣). ويُقال إنَّهُ قد حضر حرب صفين ثلاثون ألفاً من حفاظ القرآن(٥٤).

فمسألة تدوين الكتاب العزيز بأكمله في عهد الرسول الأكرم ' من الأمور الواضحة لدينا، وتدل عليها شواهد عديدة منها الروايات الكثيرة عنه في ثواب من ختم القرآن الكريم، فقد روي عنه أَنَّهُ قال: «**من شهد فاتحة الكتاب حين يستفتح كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله، ومن شهد خاتمته حين يختمه كان كمن شهد الغنائم حين تقسم**» (٥٥).

فمن هذه الوقائع التاريخيّة والروايات نفهم أنَّ القرآن الكريم كان معلوم البداية والخاتمة، معروفاً من أوّله إلى آخره.

ونحن إذ نعتقد ونلتزم بأنَّ القرآن الكريم قد عُرف أوله وآخره وكتب ودوِّن وحفظ في عهد الرسول الأكرم ' ، فإنَّنا نقطع كذلك بأَنَّهُ قد جمعه بأكمله بكُلِّ أمانةٍ، وإخلاصٍ، ورعايةٍ، ودقةٍ، وإتقانٍ، ودون وقوع اشتباهٍ وغفلةٍ ونسيان، وكُلُّ ذلك بمقتضى عصمته وحرصه على حفظ هذا الكتاب العزيز.

وبعد شهادة النبي الأكرم ' وارتحاله إلى جنب الله تبارك وتعالى، نعتقد أنَّ المسلمين وعلى رأسهم مولى الموحدين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قد حفظوا وديعة النبي الأكرم ' ، أي القرآن الكريم، ومنعوه، ودافعوا عنه، واحترموه، وقدَّسوه؛ فهو ذخر دينهم، ووصية نبيهم، ومفخرتهم التي افتخروا بها، ولطالما افتخر العرب بما هو أقلّ من ذلك بكثير، كافتخارهم واهتمامهم

بالقصائد والأشعار والروائع الأدبيّة التي علّقوها على الكعبة المقدّسة، أقدس المقدّسات عندهم ومحجتهم، فكيف لا يفعلون ذلك مع هذا الكتاب العزيز والذي يعتقدون قدسيته وقدسيّة الجهة الصادر عنها؟!!!

يقول الشريف المرتضى علم الهدى﵀: «**ذكرنا أنَّ العناية اشتدت بالقرآن، والدواعي توفرت على نقله وحراسته، وبلغت إلى حدٍّ لم تبلغه في نقل الحوادث والوقائع والكتب المصنّفة... وإنَّ العلم بتفصيل القرآن وأبعاضه كالعلم بجملته وأنَّه يجري في ذلك مجرى ما علم ضرورةً من الكتب المُصنَّفة ككتاب سيبويه والمزني... ومعلومٌ أنَّ العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق من العناية بضبط كتاب سيبويه ودواوين الشعراء...**» (٥٦).

ومن هنا، وبعد كُلِّ ما تقدَّم فإنَّ التسليم بأنَّ يد التحريف قد وصلت إلى القرآن الكريم بسوءٍ، زيادةً أو نقصاناً، ليس بالأمر اليسير ودون إثباته خرط القتاد، فإنَّ أيَّ عمليةٍ من هذا النوع ستكون فضيحةً تضجُّ بها الساحة الإسلاميّة ـ آنذاك ـ وستنكشف بسرعةٍ خاطفةٍ وستثير غضب المسلمين الذين لن يرضوا المساس بأحد أقدس مقدساتهم على الإطلاق.

فالمجتمع الإسلامي المشغوف بذلك الكتاب العزيز والمتعلّق به أيّما تعلّقٍ، هو الضمانة ـ بعد الله عزّ وجل والرسولﷺ ـ في حمايته ورعايته وحفظه وصونه، وما كان المسلمون ليتأخّروا في بذل أرواحهم ودمائهم رخيصةً في الدفاع عنه كما بذلوها على نشره والدعوة إلى مفاهيمه ورسالته.

وهذا الكلام يصدق بلا أدنى شك على المسلمين الأوائل، وهو صادقٌ كذلك على من تبعهم، خصوصاً مع اتساع انتشار الدين الإسلامي الحنيف في البلدان الإسلاميّة التي دخل أهلها في دين الله أفواجاً مع مرور العصور والأزمنة والفتوحات، فيومها ـ وكما هو الحال دائماً ـ كانت الحاجة إلى كتابة القرآن وتدوينه ونشره وإرساله إلى أصقاع الأرض والمسلمين الجدد، حاجةً

مُلحةً وأمراً لازماً، وهذا لم يحدث دون رقابة ورعاية، فمن البديهي أن تكون قد تشكّلت لجانٌ وجهات مختصة اعتنت بمسألة التدقيق في استنساخ الكتاب ومنع أيّ زيادة أو إنقاص، فإنَّ هذا هو الحال في أيامنا، ولا أعتقد أنَّ الأمر كان مختلفاً فيما سبق أيام السلف، فإنَّه لا ينبغي أن يكون حرصهم أقلّ من حرصنا اليوم وفيهم الثقاة والمؤتمنون من أهل الإيمان والتقوى والورع والإسلام الأصيل والاعتقاد المتين.

وليس هذا من باب حُسن الظن بهم وحسب، وإنَّما هو واقع الحال الذي أدركناه من خلال التتبع التاريخي لمسألة تدوين الكتاب العزيز، وعلى مُنكر هذا الواقع أن يقوم بالجهد الكبير وغير اليسير لإقناعنا بخلافه.

الخطاب الفصل وزبدة البيان

مما تقدَّم تبيَّن أنَّ مقولة تحريف القرآن مقولةٌ أسطوريّة خرافيّة وخياليّة، وأمّا العاقل المنصف المتدبر فلا ينبغي أن يشك في بطلانها وخرافيتها.

وينبغي أن يكون قد اتضح لأصحاب العقول النيرة والقلوب الصافية أنَّ الشيعة الإماميّة يعتقدون وكبقية المسلمين أنَّ هذا القرآن الموجود بين الدفتين في أيدي جميع المسلمين، هو القرآن الذي أنزله الله سبحانه على الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ' ، وهو معجزته الخالدة التي تحدّى بها جميع البشر على أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو أن يأتوا بعشر سورٍ من مثله، أو أن يأتوا بسورة من مثله، ولو بمقدار إحدى صغار السور.

وأنَّ روايات التحريف منها ما هو أخبار آحاد، لا تملك أن تقف في وجه تواتر القرآن الكريم الموجب للقطع واليقين بخلو ساحته من أي تحريف بزيادةٍ أو نقصان، ومنها ما يُضَّعف سنداً ودلالةً لمعارضته الكتاب والسنَّة الصارخين بأنَّ القرآن كتابٌ عزيزٌ منيع حصين لا يطرأ عليه التبديل والتغيير والزيادة

والنقيصة، ومنها ما يؤول على خلاف ظاهره والفهم الأولي والبدوي فترتفع محاذيره، وكثيرٌ منها مكررات لما تمَّ نقده ورده ودفعه فلا حاجة إلى حسبانها في عداد الأدلة والشواهد فحكمها حكم أخواتها ومثيلاتها في الردّ والإعراض عنها وضربها عرض الجدار.

وقبل الختم والسلام لا بُدَّ من التنبيه إلى قضيةٍ نراها بديهيّة وحتميّة لا يمكن تخلفها ولا التغافل عنها، ألا وهي إنَّهُ سوف تفشل كُلُّ محاولات التعرض للقرآن ولقدسيته بسوءٍ، وسيجد المغرضون والمعادون أنفسهم وأعمالهم سراباً وضياعاً لا ينتفعون به وإنَّما ستكون ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ ووبالاً عليهم في الدنيا والآخرة.

وإطالةُ الكلام وبسطه في مسألة التحريف مما لا يستسيغه العقلاء والجادون في طلب العلم والعمل والحريصون الضنينون على أوقاتهم وأعمارهم؛ فإنَّهُ وبعد التحقيق في المسألة تصبح القضية من باب السالبة بانتفاء الموضوع، وحينها سيكون الأمرُ صرفاً للوقت والجهد فيما لا ينبغي صرفهما فيه. فقضية تحريف القرآن لا تعدو كونها أسطورة وشبهة في مقابل بديهة، وفي مثل هذه الحالات لا يحتاج المرءُ إلى الجهد الكبير والعمل الكثير، وجُلُّ ما يحتاجه هو التنبيه لبداهة المسألة وزلزلة مقدِّمات الدعوى المخالفة لها، وسرعان ما سينكشف الحق ويظهر الصدق لكُلِّ ذي كياسةٍ وفطنةٍ، وهذا ما حاولنا تقديمه في هذه الصفحات، والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات.

* * *

الهوامش:

(١) كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق، الباب٤٧، ص٥٣٠.

(٢) البيان في تفسير القرآن، للسيّد الخوئي، ص٢٢١.

(٣) الكافي: ج٨، ص٥٣، ح١٦، رسالة أبي جعفر عليه السلام لسعد الخير.

(٤) راجع: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٢، ص١٩٧، مادة «حرف». وكذلك راجع: مفردات ألفاظ القرآن، ص٢٢٨. (بتصرف).

(٥) راجع: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١، ص١٦٥، فصلٌ في ترتيب السور.

(٦) وهذا ما ذهب إليه العلامة الطبابطبائي كما نسبه إليه السيّد محمّد حسين الطهراني في كتابه (الشمس الساطعة) ص٢٤٦ إلى ص٢٥١.

(٧) بحار الأنوار، ج٣، ص٢٢٤، الباب ٦، ح١٤.

(٨) الاعتقادات، للشيخ الصدوق، ص٨٦، باب الاعتقاد في مبلغ القرآن.

(٩) الكافي: ج٨، ص١٢٥، ح٩٥، كتاب الإمام الكاظم عليه السلام لعلي بن سويد.

(١٠) الكافي: ج٨، ص٥٣، ح١٦، رسالة أبي جعفر عليه السلام لسعد الخير.

(١١) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ص٢٢٩.

(١٢) الكافي: ج١، ص٢٢٨، ح٢، باب أنَّه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة عليهم السلام.

(١٣) الكافي: ج١، ص٤١٤، ح٨، باب فيه نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(١٤) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، للعلامة المجلسي، ج٥، ص١٤، كتاب الحجة.

(١٥) المحجة البيضاء، للفيض الكاشاني، ج٣، ص٢٦٣، فصلٌ في عدم تحريف القرآن.

(١٦) شرح أصول الكافي، للمولى محمّد صالح المازندراني، ج٧، ص٨٠.

(١٧) أنوار الهداية في التعليقة على الكفاية، الإمام الخميني، ج١، ص٢٤٥ـ ٢٤٦ـ ٢٤٧.

(١٨) كشف الأسرار، للإمام الخميني، المقالة الثانية في الإمامة، ص١٣٤ـ١٣٥ـ ١٣٦، .

(١٩) البيان في تفسير القرآن، السيد الخوئي، ص٢٣٠ـ٢٣١.

(٢٠) كشف الأسرار، للإمام الخميني، المقالة الثانية في الإمامة، ص١٣٥.

(٢١) الوافي، للفيض الكاشاني، ج٩، ص١٧٧٧، أبواب القرآن وفضائله.

(٢٢) المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، للفيض الكاشاني، ج٣، ص٢٦٤، فصلٌ في عدم تحريف القرآن.

(٢٣) أصل الشيعة وأصولها، للشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، ص١١٣.

(٢٤) الذخيرة في علم الكلام، ص٣٦١.

(٢٥) التفسير الفخر الرازي، ج١٩، ص١٦١، المسألة الرابعة في تفسير الآية ٩ من سورة الحجر.

(٢٦) راجع: كنز العمال، للمتقي الهندي، ج٢، ص٥٧١، جمع القرآن، ح٤٧٨٥.

(٢٧) راجع: الاعتقادات، للشيخ الصدوق، ص٨٤، باب الاعتقاد في مبلغ القرآن.

(٢٨) راجع: صيانة القرآن من التحريف للشيخ معرفة، ص١٠٤. نقلاً عن البرهان: ص١٣٩.

(٢٩) راجع: كشف الغطاء، ج٢، ص٢٩٩، كتاب القرآن وإعجازه.

(٣٠) الاعتقادت، للشيخ الصدوق، ص٨٤، باب الاعتقاد في مبلغ القرآن.

(٣١) مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي، ج١، ص٤٣.

(٣٢) التبيان في تفسير القرآن، للشيخ الطوسي، ج١، ص٣.

(٣٣) مجمع البيان في تفسير القرآن، للشيخ الطبرسي، ج١، ص٤٣، المقدّمة.

(٣٤) راجع: رسائل ومقالات، للشيخ جعفر السبحاني، ص١٩٣، نقلاً عن أجوبة المسائل المهناوية، المسألة١٣، ص١٢١.

(٣٥) راجع: آلاء الرحمان في تفسير القرآن، للشيخ البلاغي، ج١، ص٢٦.

(٣٦) راجع: الفصول المهمة في تأليف الأمّة، للسيّد شرف الدين العاملي، ص١٦٦، تعريباً لكلام الحرّ العاملي في رسالةٍ كتبها بالفارسيّة رداً على بعض معاصريه.

(٣٧) الصراط المستقيم، ج١، ص٤٥، الفصل الثالث في الرد على الاعتراضات على نبوته ' .

(٣٨) الفصول المهمة في تأليف الأمّة، للسيّد شرف الدين العاملي، ص١٧٥.

(٣٩) أعيان الشيعة، للسيّد محسن الأمين العاملي، ج١، ص٤١.

(٤٠) تهذيب الأصول، تقرير الشيخ السبحاني لدرس الإمام الخميني، ج٢، ص١٦٥.

(٤١) الميزان في تفسير القرآن، للعلامّة الطباطبائي، ج١٤، ص١٠٥.

(٤٢) البيان في تفسير القرآن، للسيّد الخوئي، ج١٤، ص٢٥٩.

(٤٣) القرآن الكريم وروايات المدرستين، ج٢، ص٢٢ وما بعدها.

(٤٤) راجع: صيانة القرآن من التحريف، للشيخ معرفة، ص١١٥ـ١١٦.

(٤٥) راجع: صيانة القرآن من التحريف، للشيخ معرفة، ص١١٧.

(٤٦) آلاء الرحمان في تفسير القرآن، للشيخ البلاغي، ج١، ص٢٥، المقدِّمة.

(٤٧) أنوار الهداية في التعليقة على الكفاية، للإمام الخميني، ج١، ص٢٤٤ـ٢٤٥.

(٤٨) صيانة القرآن من التحريف، للشيخ معرفة، من ص٢٠٩ إلى ص٢٨٦، تحت عنوان مزاعم صاحب «فصل الخطاب».

(٤٩) مختصر مفيد، للعلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي، ج١٣، ص١٠٧، تحت عنوان: «فصل الخطاب» في الميزان.

(٥٠) وسائل الشيعة، ج٦، ص١٦٩، باب وجوب إكرام القرآن وتحريم إهانته، ح١٤.

(٥١) المستدرك، للحاكم النيسابوري، ج٢، ص٢٢٩، في أنَّ جمع القرآن لم يكن مرةً واحدة.

(٥٢) مجمع الزوائد للهيثمي، ج١، ص١٥٢، باب عرض الكتاب بعد إملائه.

(٥٣) تفسير ابن كثير: ج٤، ص٩. ومناهل العرفان: ج١، ص٢٤٢.

(٥٤) صفين للمنقري ص١٨٨.

(٥٥) كنز العمال، للمتقي الهندي، ج١، ص٥٤٢، الباب٧، في تلاوة القرآن وفضائله، ح٢٤٣٠.

(٥٦) الذخيرة في علم الكلام، ص٣٦٣ـ ٣٦٤.

النبيّ آدم عليه السلام

بين العصمة وظاهر القرآن

القسم الأوّل

السيّد حسين إسماعيل (*)

تمهيد

قليلون هم أولئك الذين سطّر التاريخ أسماءهم واستحقّوا أن يكونوا قدوةً ومُثلاً عليا تقتدي بها أممُهم ومجتمعاتُهم، وأقلّ القليل منهم من استحقّ بالإضافة إلى ذلك مقام الحجّة والخلافة الربّانية.

ذاك مقام، تطاولت له أعناق الملائكة، واحتجّوا على الله بأنفسهم ودعوه إلى أن يختار منهم من يرتضيه له، وكان الجواب: {إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[البقرة: ٣٠].

مقام لم يكن للملائكة حقّ نيله والمفازة به، حيث إنّه قد قدِّر في الغيب الإلهي لمخلوق أعظم شأناً منهم ـ جعله الله عز وجل لنبيّه آدم عليه السلام وأمر ملائكته بالسجود له، ليريهم منزلته ومقامه. واختار من ذريّته أنبياء وأوصياء، جعلهم حججاً على خلقه وأمناء على شرعه ودينه ودعاةً إلى طاعته، فكانوا كما أراد

(*) باحث إسلاميّ / لبنان.

تعالى قُدوة تقتدي بهم الأمم فيرفعوا عنهم ظلمات الجهل، وينيروا لهم دروب الهداية والصلاح. قدّموا كلّ ما عندهم في سبيل هدفهم السامي الذي ارتضاهم له، ولم يتوانوا حتّى عن تقديم دمائهم في سبيله، فضحّوا بأغلى ما عندهم، ونالوا بذلك الزلفى عند باريهم.

عاشوا عليهم السلام مع ما لهم من القربة والمكانة عند الله سبحانه وتعالى، أصعب حياة يمكن أن يعيشها إنسان، ومرّت عليهم أقسى مراحل البلاءات، وامتحنوا بأشدّ الامتحانات، فمن حاكم ظالم مستبدّ بجوره، وسفيهٍ مكذِّب ومضلّلٍ للناس، إلى تابع جاهل ضعيف يتزلزل إيمانه عند هبوب كلّ نسمة، إلّا من ندر ممّن امتحن الله قلبه للإيمان. ولشدّة ما امتحنوا به، تكاد تقول: إنّ هؤلاء قوم أذنبوا فأُخذوا بذنبهم، و باؤوا بغضب من الله تعالى!

ولكنّ الحقّ أنّهم عليهم السلام سعوا بكل كيانهم لمرضاة ربِّهم، فكانت حياتهم تعباً وجهداً وجهاداً وتضحياتٍ عظيمة، فاستزادوا بذلك زلفة واجتباءاً ومحبّة من الله، والله إذا أحبّ عبداً ابتلاه، فكانوا أكثر العباد بلاءاً.

ولم تقف بلاءاتهم عليهم السلام عند حدود حياتهم الشريفة، بل استمرّت إلى ما بعد شهادتهم، وكيف لا تستمر؟! وأعظم الناس إيماناً أعظمهم بلاءاً، ومن مثل الأنبياء في الإيمان؟! كُذِّبوا في حياتهم، واتُّهموا بأبشع التّهم بعد شهادتهم، تهمٌ لو أُلصقت بعضُها بالعاديّين من الناس لما صُدِّقت، ولكن مع ذلك تلوكها الألسن المغرضة بحقّهم!

وممّا يُؤسف له أيضاً، وليزداد بلاؤهم وامتحانهم، أنّ هذه التّهم حُفِظَت عليهم كما لو أنّه لم يحصل في حياتهم شيء سواها، فأصبحت وكأنّها هي محور حياتهم وكل أفعالهم.

ومن هنا، ترى الأنبياء في فكر البعض أصحاب شبهات قد ضلّوا عن طريق الحقّ، وخرجوا عن جادّة الهداية، وأصبحوا مثار الشبهات، كما لو أنّهم لم

يُرسَلوا لهداية الناس. ولم يسلم منهم أحد، حتّى الذين لم يتناولهم القرآن الكريم والسنّة الشريفة بالذكر، طالما أنّ المنهج والفكر عند هؤلاء البعض في حقّ الأنبياء جميعاً واحد.

وترى هؤلاء كلّما استشهدوا بآيات الكتاب الكريم، تحسب أنّ هذا الكتاب أنزله الله عزّ وجل ليفضح به أنبياءه ويعرّض بهم كلّما سنحت فرصة لذلك. ولم يُنزله على أساس أنّه كتاب هداية، يستعرض الله تعالى فيه قصص أنبيائه عليهم السلام ليجعلهم مثالاً للهداية الإلهيّة، ويضيء من خلاله على مدى جهادهم وتضحياتهم لتقتدي بسيرتهم أمّة النبي الأعظم ' .

وأمّا صاحب الحظّ الأوفر من شبهاتهم وأضاليلهم، فذاك هو النبي آدم عليه السلام، فهو أكثر من نالته ألسنتهم بالسوء، كما لو أنّ إبليس لم يشفِ قلبه منه بعد. ووصل بهم الأمر أن عبّروا عنه بالساذج البسيط، والبعيد عن التفكير الصحيح، والذي يعيش بعالم من الخيال والأوهام. ولعمري إنّ ما قالوه لبهم أليق وأصدق انطباقاً!

والآيات التي تحدّثت عمّا جرى لآدم عليه السلام في مواجهة مكر إبليس، وفيها قوله تعالى: {وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ}[طه: ١٢١]، هي الأكثر تردّداً على ألسنة هؤلاء المشكّكين وتجّار العلم.

وقد استفاد الكثيرون من هذه الآيات لإلباس النبي آدم عليه السلام لباس المعصية، ومن خلاله سعوا لإنزال الأنبياء عليهم السلام عن مقاماتهم التي وضعهم الله تعالى فيها، فأسّسوا نظرّياتٍ ومبانيَ في عصمة الأنبياء عليهم السلام ما أنزل الله بها من سلطان.

وتظهر أهميّة البحث حول عصمة الأنبياء عليهم السلام، وخصوصاً حول عصمة النبي آدم عليه السلام باعتبارها الحلقة الأولى في هذه السلسلة؛ لما لبحث العصمة من أهميّة قصوى في حياة الناس من خلال تأثيرها المباشر وغير المباشر في إيمانهم وعملهم وشدّة تحمّلهم للمحن و البلاءات التي تعترضهم في حياتهم. والبحث

عن عصمة النبي آدمعليه السلام من أكثر الأبحاث جدالاً ونقاشاً قديماً وحديثاً، وذلك لغنى مادّته وكثرة الإشكالات التي تعترض طريق كلّ من يبحث فيه.

ولمّا كان الدفاع عن الأنبياءعليهم السلام لا يقتصر على البعض دون الآخر، بل هو وظيفة كلّ من يؤمن بهم، كان هذا البحث العقائديّ. وقد عقدته للدفاع عن نبيّ الله آدمعليه السلام، وسيوافيك فيه أنّ ما تمسكوا به لاثبات المعصيه لا يعدو سوى أوهام وتمنيّات قد أُسّست على غير حجّة ودليل. وسأستعرض فيه، بحثاً موجزاً حول العصمة وحدودها، ثمّ أعمد إلى ذكر الشبهات والردود عليها، طبقاً لما يقتضيه البحث العلمي، وفي النهاية أذكرُ عدّةً من أقوال العلماء في مقام دفاعهم عن الساحة القدسيّة للنبي آدمعليه السلام، وذلك ليكون البحث أرقى وأنفع.

الفصل الأوّل:

المبحث الأوّل: النبي آدمعليه السلام:

الحديث عن آدمعليه السلام ليس حديثاً عن شخصيّة وهميّة وخياليّة ابتدعها الله عزّوجلّ في القرآن الكريم ليعطينا من خلالها قصّة وعبرة ننتفع بها، بل هي شخصيّة حقيقيّة وواقعيّة، تطرّق إليها الله سبحانه وتعالى في الكتاب العزيز لما فيها من أهميّة تستدعي الذكر والاهتمام، وإلّا لكان أهملها كما أهمل الكثير من القصص الأُخرى، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ }[غافر: ٧٨].

وقد وردت قصّتهعليه السلام في سور متعدّدة من القرآن الكريم[1] تحكي أمراً واحداً، وإن اختلفت صياغته، أو زيدَ فيه أحياناً، وأُنقص منه أخرى بحسب اختلاف الدواعي والمقتضيات، وهذا الأمر يدلّ على اهتمام خاصّ من قبل الله تعالى بسرد قصتهعليه السلام، خصوصاً بملاحظة التفاصيل الواردة فيها، كأصل خلقه والنفخ فيه، وإبلاغ الملائكة عنه وأنّه سيكون الخليفة في الأرض، وحوار

الملائكة في هذا الشأن، ثمّ سجودهم له وامتناع إبليس، وتعليمه الأسماء كلّها، ثمّ توجيه الخطاب له ولزوجه بدخول الجنة والأكل منها من حيثما يشاءان، على ألّا يقربا تلك الشجرة، ثمّ ما حصل في الجنّة معهما، وخطاب إبليس لهما، ثمّ نزولهم جميعاً إلى الأرض، وغيرها من الأحداث والتفاصيل التي تعرّض لها القرآن الكريم، ولئن كشف هذا عن شيء، فإنّه يكشف عن واقعيّة القصّة وحقيقيّة أشخاصها، ولا يدع مجالاً لتوهّم كونها خياليّة. وسيأتي بعض هذه الآيات أوّل الفصل الثالث.

فهذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل، هو أبعد ما يكون عن أن يطرُقَ بابَه الخيالُ والوهمُ، وهو وإن استعرض جملة من قصص وعبر الماضين بما يتناسب مع هدفه (الهداية)، إلّا أنّه بقصّه هذا بعيد عن كلّ ما يشوب الحقيقة ويحرّفها عمّا وقعت عليه، ولذا كان يقصّ أحسن القصص.

وممّا يؤسف له، أنّ هناك من ذهب فعلاً إلى أنّ المراد بآدمعليه السلام المذكور في القرآن الكريم ليس هو الشخص المعروف، والذي هو نبّي معصوم من جملة أنبياء الله تعالى، وإنّما المراد به (آدم النوعيّ)، والقصّة تخيّليّة محضة[٢]! وما ذلك إلّا هروب من شبهة المعصية والنسيان التي تطرّق إليها القرآن الكريم في معرض الحديث عنهعليه السلام.

وللهروب من هذه الشبهة حيث لم يستطع دفعها، أوقع نفسه في شبهة أشدّ وأخطر، وهي نسبة التخييل إليه تعالى في قصّة تثبت الأدلّة حقيقيّتها وواقعيّتها.

من هو النبي آدمعليه السلام؟

إنّ النبي آدمعليه السلام في اعتقاد الأديان السماويّة أوّل مَن خُلِق من البشر، ولأجل هذا يُكنّونه بـ «أبي البشر»، وليس هو أوّل مخلوق خلقه الله تعالى، ولا أوّل مَن عاش على الأرض، فالملائكة أسبق منه وجوداً، ويُعلم ذلك من قولهم حين خاطبوا الله عزّ وجلّ: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ }[البقرة:

٣٠]، وذلك من بعد ما قال لهم: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً}، إشارة إلى خلق النبيّ آدمعليه السلام.

وجملة من الروايات تذكر الجنّ والنسناس على أنّهم من سكّان الأرض قبل خلق آدمعليه السلام، وبعضها تحدّد المدّة التي كانوا فيها قبل خلقه. فعن أمير المؤمنين عليعليه السلام قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أراد أن يخلق خلقاً بيده وذلك بعدما مضى من الجنّ والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة**»[٣].

وجه تسميتهعليه السلام:

اختلف في اشتقاق اسم آدم: فقيل: اسم أعجمي لا اشتقاق له كآذر.. وقيل: اشتقّ من الأدمة بمعنى السمرة؛ لأنّهعليه السلام كان أسمر اللون.. وقيل: من الإدم بمعنى الإلفة والاتفاق. وقيل: من أديم الأرض، أي: وجهها[٤]. والذي ورد في الأخبار هو المعنى الأخير، وهو المتّبع.

ففي الاحتجاج عن أبي بصير قال: سأل طاووس اليماني أبا جعفرعليه السلام: «لِمَ سُمّي آدمُ آدمَ؟ قال: لأنه رفعت طينته من أديم الأرض السفلى»[٥]. وعن أبي الحسن الرضاعليه السلام: سأل الشامي أمير المؤمنينعليه السلام: «لم سمي آدمُ آدمَ؟ قال: لأنه خلق من أديم الأرض»[٦]. وعن أبي عبد اللهعليه السلام قال: «إنما سمي آدمُ آدمَ لأنه خلق من أديم الأرض»[٧].

كنيتهعليه السلام:

عن أمير المؤمنين عليعليه السلام قال: «قال رسول الله ' : أهل الجنّة ليست لهم كنى إلّا آدمعليه السلام فإنّه يكنّى بأبي محمد توقيراً وتعظيماً»[٨]. وروي في خبر آخر أنّ شمعون سأل النبي ' فقال: أخبرني ما (أبو جاد)، فقال ' : «أما أبو جاد فهو كنية آدمعليه السلام أبى أن يأكل من الشجرة فجاد فأكل»[٩]. وقوله[١٠]: «(جاد)، إما من الجود بمعنى العطاء أي جاد بالجنة حيث تركها، أو من جاد إليه أي اشتاق»[١١].

نقش خاتمه عليه السلام:

عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «كان نقش خاتم آدم عليه السلام: (لا إله إلا الله محمّد رسول الله) هبط به معه من الجنّة»[١٢].

المبحث الثاني: المعصية:

أمّا في اللّغة:

ففي لسان العرب: «العصيان؛ خلاف الطاعة، تقول: عصى العبدُ ربَّه إذا خالف أمرَه، وعصى فلانٌ أميرَه يَعصيه عَصيْاً وعِصيْاناً ومَعصِيَةً إذا لم يُطِعْهُ، فهو عاصٍ وعَصِيٌّ. ويقال للجماعة إذا خرجت عن طاعة السلطان: قد اسْتَعْصَتْ عليه»[١٣].

وقال العلّامة المصطفوي في التحقيق: «إنّ الأصل الواحد في المادّة: هو ما يقابل الاتّباع، أي عدم التبعيّة من حيث هو، من دون نظر إلى ما يلحقه، ويدلّ على الأصل قوله تعالى: {فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[إبراهيم: ٣٦]، {قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي}[طه: ٩٢- ٩٣]، يراد: مجرّد ما يقابل الاتّباع، وهو ترك التبعية، وهذا أوّل مرحلة من الاختلاف، ثم يلحقه تبعة أخرى، وذلك كما في قوله تعالى:

١- {وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ}[طه: ١٢١].

٢- {فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ}[المزّمّل: ١٦].

٣- {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ}[الشعراء: ٢١٦].

٥- {وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا}[الأحزاب: ٣٦].

فإنّ انتفاء التبعيّة يوجب الغيّ والضلال والأخذ والبراءة؛ لأنّ الانصراف عن الاتّباع علامة سلب التوفيق عملاً، وهذا الباعث على حصول الغيّ والضلال والانحراف والتعديّ والخلاف والأخذ والعذاب.

فظهر: أنّ العصيان معناه ترك الاتّباع، وأثره الغيّ، وهو الهداية إلى الشرّ والفساد، في قبال الرشد، فلم يتحقق في مرتبة الغيّ فساد فعليّ وضلال وخلاف وشرّ عملي، حتى يوجب العذاب من الله بل العذاب والشر والأخذ والنار إنّما تحصل في مراحل متأخرة»[١٤].

وأمّا في اصطلاح الفقهاء و المتكلّمين:

لم أجد في كتب الفقهاء ولا المتكلمين تعريفاً خاصّاً للمعصية، ولعلّهم يتبنون المعنى الذي ذكره اللّغويون، ولكن الظاهر أنّه ليس على إطلاقه، فللفقهاء شروط ذكروها في كتبهم الأصولية لتحقق المعصية، والظاهر: أنّ المتكلمين يجرون في ذلك مجرى الفقهاء.

أمّا الفارق بين المعنى اللغوي والمعنى الفقهي:

أنّ المعصية لغة خلاف الطاعة أو ترك الاتّباع على ما مرّ آنفاً، تصدق على فعل الساهي وتارك المندوب وفاعل المكروه. وأمّا في المعنى الفقهي فلا تحقّق لها في هذه الفروض.

وأمّا اعتبار أنّ المتكلمين يجرون مجرى الفقهاء في ذلك، فهذا يعلم من قول بعضهم بجواز ترك المندوب، أو فعل المكروه على الأنبياء عليهم السلام[١٥]، وقول بعضهم الآخر بجواز السهو على الأنبياء عليهم السلام[١٦]، مع العلم بأنهم جميعاً يقولون بعصمة الأنبياء عليهم السلام وأنّ المعصية تنافيها، ومع ذلك لا يرون في هذه الأمور ما ينافي العصمة.

ومع أنّه لا تعريف جامع للفقهاء في المقام، إلّا أنّه يمكن تعريف المعصية بناءً على الشروط العامّة التي يذكرونها في كتبهم الأصولية. وعلى ذلك أقول: المعصية: هي كلّ مخالفة لأمر أو نهي إلزامي ثابت شرعاً مع علم المكلف به والتفاته إليه أثناء العمل وعدم اشتغاله بأداء تكليفٍ آخر أهمّ منه أو مساوٍ له.

فيشترط لحصول المعصية ستة أمور:

الأوّل: أن تكون المخالفة لخصوص الواجب أو المحرّم، أمّا المستحب والمكروه فمخالفتهما لا توجب معصية إجماعاً.

الثاني: أن يكون الواجب أو المحرّم ثابتاً واقعاً، أمّا لو لم يكن كذلك عُدّ المرتكب له متجرّياً.

الثالث: أن يكون الفاعل مكلّفاً، أي بالغاً وعاقلاً.

الرابع: أن يكون عالماً بالتحريم أو الوجوب.

الخامس: أن يكون ملتفتاً إلى الحكم والموضوع أثناء العمل.

السادس: أن لا يكون المكلف مشغولاً بأداء تكليف أهمّ أو مساوٍ له في الأهمّية.

فهذه الأمور الستّة يشترط اجتماعها معاً عندهم أثناء العمل لتحقّق المعصية.

وللفقهاء كلام في أنّه هل المعاصي كلّها من الكبائر، أم أنّها تنقسم إلى صغائر وكبائر؟ وللشهيد الثاني في المسالك كلام جامع حوله. قال﵀: «وإنّما الكلام في أنّ [الذنوب] هل هي كلّها كبائر، أم تنقسم إلى كبائر وصغائر؟ وقد اختلف الأصحاب وغيرهم في ذلك، فذهب جماعة منهم المفيد وابن البرّاج وأبو الصلاح وابن إدريس والطبرسي ـ بل نسبه في التفسير إلى أصحابنا مطلقاً ـ إلى الأوّل، نظراً إلى اشتراكها في مخالفة أمره تعالى ونهيه، وجعلوا الوصف بالكبر والصغر إضافيّاً، فالقُبلة المحرَّمة صغيرةٌ بالنسبة إلى الزنا، وكبيرةٌ بالنسبة إلى النظر، وكذلك غصب الدرهم كبيرة بالنسبة إلى غصب اللّقمة، وصغيرة بالإضافة إلى غصب الدينار، وهكذا. وذهب المحقّق الحلّي وأكثر المتأخرين إلى الثاني، عملاً بظاهر قوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء: ٣١]، دلّ بمفهومه على أنّ اجتناب بعض الذنوب ـ وهي الكبائر ـ يكفِّر السيئات، وهو يقتضي كونها غير كبائر، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾[النجم: ٣٢]، مدحهم على

اجتناب الكبائر من غير أن يضايقهم في الصغائر.. وفي الحديث: (أنّ الأعمال الصالحة تكفِّر الصغائر). ثمّ على القول بالفرق بين الكبائر والصغائر، فللعلماء في تفسير الكبيرة وجوه: الأوّل: أنّها المعصية الموجبة للحدّ. الثاني: أنّها التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد في الكتاب أو السنّة. الثالث: أنّها الذنب الذي توعّد الله عليه بالنار»[١٧].

أقول: لا شبهة عند الفقهاء في انطباق عنوان العاصي على مرتكب المعصية من دون فرق بين الصغيرة منها والكبيرة، كما لا شبهة في انطباق عنوان الفاسق على مرتكب الكبائر، ولا في انطباق عنوانه على مرتكب الصغيرة مع الإصرار عليها؛ فإنّ الإصرار على الصغائر من الكبائر أيضاً، كما في الأثر. وهذان ممّا لم يُختلف فيهما. وإنّما الخلاف في انطباق عنوان الفاسق على مرتكب الصغيرة من دون الإصرار عليها، فهل يعدّ فاسقاً أم لا؟

ومن الطبيعي أنّ هذا الاختلاف يجري عند خصوص من قسّم المعصية إلى صغيرة وكبيرة.

وتظهر أهميّة هذا الخلاف في بحث جواز المعاصي الصغيرة على الأنبياء، فمن يلتزم في بحث العصمة بجواز الصغائر بحقهم ثمّ يقول بأنّها توجب الفسق، فهو يقول بجواز الفسق على الأنبياء. وسيأتي في بحث العصمة، عن الأزارقة ـ وهم فرقة من الخوارج ـ قولهم بجواز الذنوب على الأنبياء، مع أنّ كلّ ذنب عندهم كفر.

المبحث الثالث: العصمة:

أمّا في اللّغة فهي: الوقاية والمنع والدفع والحفظ والحماية، كما يستفاد من العين[١٨]، والمجمع[١٩]، واللسان[٢٠].

وقال في التحقيق: «إنّ الأصل الواحد في المادة ؛ هو حفظ مع دفاع. يقال عصمته أي حفظته مع دفاع عنه، وهو عاصم وذاك معصوم. والاعتصام:

اختيار العصمة، أيْ: إرادة أن يعصم نفسه ويحفظه مع دفاع عمّا يضرّه. والاستعصام: طلب حصول العصمة. والعصمة: اسم مصدر بمعنى تحقّق المحفوظيّة والدفاع عنه. ومن لوازم الأصل: الالتجاء والتمسك والمنع والوقاية وغيرها. فظهر أنّ المادة يلاحظ فيها قيدان، الحفظ والدفع، و بلحاظ القيدين استعملت في موارد من القرآن الكريم. [وذلك كما في قوله تعالى عن لسان ابن نوح: {قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ}[هود: ٤٣]، أيْ: سآوي إلى جبل يحفظني ويدفع عني الغرق من الماء قال لا حافظ ودافع اليوم من أمر الله. وكذا في قوله تعالى: {وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ}[آل عمران: ١٠٣]، أيْ: واحفَظوا أنفسكم وادفعوا عنها بالتمسك بحبل الله]. ويراد في هذه الموارد الحفظ مع دفع ما يلزم دفعه، وليس النظر إلى الحفظ فقط، فإنّ هذه الموارد يلاحظ فيها المواجهة بالشرّ والضرر، والحفظ من حيث هو لا يدفع الاضطراب وتشويش الخاطر، فيلزم الحفظ بدفع الخطرات والمضارّ. وفيها إشارة أيضاً إلى كمال الاقتدار وسعة النفوذ والسلطة لله تعالى في كلتا الجهتين، الحفظ والدفع جميعاً، وضعف ما سواه وعجزه في قبال ما يشاء ويريد. {قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا}[الأحزاب: ١٧]»[٢١].

وأمّا في اصطلاح المتكلّمين: فللعصمة تعريفات كثيرة، أشهرها ما عن الشيخ المفيد، قال رحمه الله: العصمة لطفٌ يفعله الله تعالى بالمكلّف، بحيث تمنع منه وقوع المعصية، وترك الطاعة، مع قدرته عليها[٢٢]. وفي تعريف آخر: إنّها موهبة إلهيّة يمتنع معها ظهور الخطأ والنسيان عنهم، كما يمتنع صدور الذنوب والمعاصي أو اتخاذ العقائد الفاسدة والآراء الباطلة منهم مع قدرتهم عليها[٢٣]. وعرّفت أيضاً: بأنّها غريزة يمتنع معها صدور داعية الذنب مع القدرة عليه[٢٤]. أقول: المراد بالغريزة هنا كما سيأتي: «قوّة العقل بحيث توجب مَقهوريّة القوى

الأخرى وانصياعها لها». وعّرفها الشيخ المظفر: بأنّها التنزُّه عن الذنوب والمعاصي صغائرها وكبائرها، وعن الخطأ والنسيان، وإن لم يمتنع عقلاً على النبي أن يصدر منه ذلك، بل يجب أن يكون منزهاً حتّى عمّا ينافي المروءة كالتبذّل بين الناس، من أكل في الطريق أو ضحك عالٍ، وكل عمل يستهجن فعله عند العرف العامّ[٢٥]. وللشيخ السبحاني تعريف آخر يقول: هي ملكة نفسانيّة راسخة في النفس، تمنع الإنسان عن المعصية مطلقاً، فهي من سنخ التقوى لكنّها درجة قصوى منها[٢٦].

مناقشة التعاريف:

إنّ تعريف العصمة باللّطف والموهبة الإلهيّة، لا يبيّن ماهيّتها وحقيقتها، وأنها أي شيء هي في نفسها، بل تمام ما يفيدانه هو بيان منشأ حصول هذا الشيء وأنّه من الله تعالى. وغاية ما يفهم منهما هو أنّ هناك نوعاً من الاختصاص الإلهيّ بكرامة ما لبعض الخلق، يمتنع منهم بسببها فعل المعصية وترك الطاعة وغيرهما. كما وأنّه يشكل على الأوّل بأنّه لم يُؤخذ في حدِّه امتناع الخطأ والنسيان، وهما مما أجمعت الطائفة على امتناعهما.

وأمّا التعريف بالغريزة: ففيه: أنّ قوّة العقل وحدها غير كافية لحصول العصمة، وإلّا، لقلنا بأنّ لقمان الحكيم معصوم وهذا ممّا لا شاهد عليه. كما وأنّ العصمة ليست فقط امتناع صدور داعيّة الذنب، بل إنّ حدودها أوسع من ذلك كما سيوافيك. كما أنّ القدرة في اصطلاح المتكلّمين هي: «صحّة الفعل والترك»، فالقادر هو الذي تتساوى عنده نسبة الفعل والترك، فإن شاء فعل وإن شاء ترك، والذي يمتنع في حقّه صدور داعية الذنب يكون الفعل ممتنعاً منه دائماً حيث إنّه لا داعي له، وعلى هذا فهو غير قادر، كما في الاصطلاح.

أمّا التعريف بالتنزُّه: فهذا تعريف بالأثر الحاصل بسبب العصمة، وليس تعريفاً لنفس العصمة.

وأمّا التعريف بالملكة، ففيه: أنّ الملكة لا تحصل للإنسان إلّا بالتدرّج من خلال التمرين والتدريب والمواظبة على الفعل طوال فترة زمنيّة، وهذا يقتضي القول بعدم عصمة الأنبياءعليهم السلام في المراحل الأولى من حياتهم إلى أن تحصل لهم الملكة والعصمة لاحقاً، وهذا خلاف مشهور الطائفة وهو أنّ الأنبياءعليهم السلام معصومون من أوّل عمرهم ومن حين ولادتهم.

ولكن يبقى هنا تساؤل، وهو أنّه لو امتنع إنسان مّا عن فعل الحرام طوال عمره، بل وحتّى عن فعل المكروه أيضاً ـ كما ينقل ذلك عن كثير من علمائنا الأبرار كالشيخ المفيد والشريف المرتضى وغيرهما ـ فهل نقول إنّه معصوم؟ وهل يمكن أن يلتزم أصحاب هذا القول بأنّ العلماء ـ كالذين تقدّم ذكرهم ـ معصومون؟

ومهما يكن من أمر، فالتعريفات المتقدمة ـ عدا الأخير منها ـ صحيحة في نفسها، فلا نلتزم بأحدها دون الآخر، فالكلّ صحيح باعتبار أنّ كل واحد منها قد لوحظ فيه بعض جوانب العصمة غير الملحوظة في الآخر.

حقيقة العصمة:

اختلف العلماء في حقيقة العصمة على أقوالٍ ومبانٍ مختلفة، وسنستعرض جملة منها:

القول الأوّل: العصمة نوع من العلم:

قال العلّامة الطباطبائيرحمه الله: «العصمة نوع من العلم يمنع صاحبه عن التلبس بالمعصية والخطأ، وبعبارة أخرى: علم مانع عن الضلال، كما أنَّ سائر الأخلاق كالشجاعة والعفّة والسخاء كلّ منها صورة علمية راسخة موجبة لتحقّق آثارها، مانعة عن التلبّس بأضدادها من آثار الجبن والتهوُّر والخمود والشَرَه والبُخل والتبذير. والعلم النافع والحكمة البالغة وإن كانا يوجبان تنزّه

صاحبهما عن الوقوع في مهالك الرذائل، والتلوّث بأقذار المعاصي، كما نشاهده في رجال العلم والحكمة والفضلاء من أهل التقوى والدين، غير أنّ ذلك سبب غالبي كسائر الأسباب الموجودة في هذا العالم المادي الطبيعي فلا تكاد تجد متلبّساً بكمال يحجزه كماله من النواقص ويصونه عن الخطأ صوناً دائمياً من غير تخلف، سنّة جارية في جميع الأسباب التي نراها ونشاهدها. والوجه في ذلك: أنّ القوى الشعورية المختلفة في الإنسان يوجب بعضها ذهوله عن حكم البعض الأخر أو ضعف التفاته إليه، كما أنّ صاحب ملكة التقوى ما دام شاعراً بفضيلة تقواه لا يميل إلى اتّباع الشهوة غير المرضية ويجري على مقتضى تقواه، غير أنّ اشتعال نار الشهوة وانجذاب نفسه إلى هذا النحو من الشعور ربما حجبه عن تذكّر فضيلة التقوى أو ضعف شعور التقوى، فلا يلبث دون أن يرتكب ما لا ترتضيه التقوى، ويختار سفساف الشَرَه، وعلى هذا السبيل سائر الأسباب الشعوريّة في الإنسان، وإلّا، فالإنسان لا يحيد عن حكم سبب من هذه الأسباب ما دام السبب قائماً على ساق، ولا مانع يمنع من تأثيره، فجميع هذه التخلّفات تستند إلى مغالبة التقوى والأسباب، وتغلب بعضها على بعض. من هنا يظهر: أن هذه القوّة المسمّاة بقوّة العصمة سبب شعوري علمي غير مغلوب البتّة، ولو كانت من قبيل ما نتعارفه من أقسام الشعور والإدراك لتسرّب إليها التخلّف، وخبطت في أثرها أحياناً، فهذا العلم من غير سنخ سائر العلوم والإدراكات المتعارفة التي تقبل الاكتساب والتعلّم».

وقد أشار الله تعالى إليه في خطابه الذي خصّ به نبيه ' بقوله: {وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ}[النساء: ١١٣]، وهو خطاب خاصّ لا نفقهه حقيقة الفقه؛ إذ لا ذوق لنا في هذا النحو من العلم والشعور، غير أنّ الذي يظهر لنا من سائر كلامه تعالى بعض الظهور كقوله: {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ}[البقرة: ٩٧]، وقوله: {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ }[الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٥]، أنّ الانزال المذكور من سنخ العلم، ويظهر من جهة أخرى أنّ ذلك من قبيل الوحيّ والتكليم كما يظهر من قوله: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ }[الشورى: ١٣]، وقوله: {إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ }[النساء: ١٦٣]، وقوله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ }[الأنعام: ٥٠]، وقوله: {إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ }[الأعراف: ٢٠٣].

ويستفاد من الآيات على اختلافها، أنّ المراد بالإنزال هو الوحيّ وحي الكتاب والحكمة، وهو نوع تعليم إلهي لنبيه ' غير أنّ الذي يشير إليه بقوله: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ }[النساء: ١١٣]، ليس هو الذي علّمه بوحي الكتاب والحكمة فقط، فإنّ مورد الآية قضاء النبي ' في الحوادث الواقعة والدعاوى التي ترفع إليه برأيه الخاصّ، وليس ذلك من الكتاب والحكمة بشيء، وإن كان متوقفاً عليهما بل رأيه ونظره الخاصّ به.

ومن هنا يظهر، أنّ المراد بالإنزال والتعليم في قوله: { وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ } نوعان اثنان من العلم، أحدهما: التعليم بالوحي ونزول الروح الأمين على النبي ' والآخر: التعليم بنوع من الالقاء في القلب والالهام الخفي الإلهي من غير إنزال الملك، وهذا هو الذي تؤيده الروايات الواردة في علم النبي ' .

وعلى هذا فالمراد بقوله: {وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ }، آتاك نوعاً من العلم لو لم يؤتك إياه من لدنه لم يكفك في إيتائه الأسباب العادية التي تعلّم الانسان ما يكتسبه من العلوم.

فقد بان من جميع ما قدّمناه، أنّ هذه الموهبة الإلهيّة التي نسميها قوة العصمة نوع من العلم والشعور يغاير سائر أنواع العلوم في أنّه غير مغلوب لشيء من القوى الشعورية البتة بل هي الغالبة القاهرة عليها المستخدمة إياها، ولذلك

كانت تصون صاحبها من الضلال والخطيئة مطلقاً»[٢٧].

القول الثاني: العصمة مرتبة من التقوى:

قال الشيخ السبحاني: «الحقّ: أنّ العصمة غصن من دوحة التقوى، وهي ملكة نفسانيّة راسخة في النفس، تمنع الإنسان عن المعصية مطلقاً، فهي من سنخ التقوى لكنّها درجة قصوى منها، فالتقوى في العاديّين من الناس، كيفيّة نفسانيّة تعصم صاحبها عن اقتراف كثير من القبائح والمعاصي، فهي إذا ترقّت في مدارجها وعلَت في مراتبها، تبلغ بصاحبها درجة العصمة الكاملة والامتناع المطلق عن ارتكاب أيّ قبيح من الأعمال، بل يمنعه حتّى عن التفكير في خلاف أو معصية»[٢٨].

القول الثالث: العصمة قوة العقل:

قال المحقّق اللاهيجي: «العصمة عبارة عن قوة العقل»[٢٩]. والمراد: ليس في أيّ مرتبة منها، بل في مرتبة عالية توجب مَقهوريّة القوى الأخرى وانصياعها لها، بحيث إنّه لا يصدر عن المعصوم فعل يكون نتاج شهوة أو رغبة وميل نفسيّ، بل يكون الفعل صادراً دائماً عن تفكّر وحكمة ومصلحة في الفعل، وإن ترك فإنّما يكون ذلك عن مفسدة في الفعل. وهذا ما أفاده أيضاً السيد عبد الله شبّر.. قال رحمه الله: «والعصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادراً على المعاصي كلّها كجائز الخطأ، وليس معنى العصمة أنّ الله يجبره على ترك المعصية بل يفعل به ألطافاً يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها كقوة العقل وكمال الذكاء والفطنة وصفاء النفس وكمال الاعتناء بطاعة الله تعالى»[٣٠].

مناقشة الأقوال:

ليس العلم وحده كافياً ليعصم العبد عن معصية ربّه والتجبُّر عليه ولو كان علماً لدنيّاً. فما كان من إبليس خير شاهد على كون العلم لا يعصم صاحبه، وإلّا

لامتنع عن المعصية بفضل علمه، ولكان من جملة المعصومين أيضاً، فإنّه لا يُنكر علمه أحد.

والشاهد الأقوى كذلك، ما كان من بلعم بن باعورا الذي آتاه الله العلم وانسلخ منه قال تعالى: { وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث }[الأعراف: ١٧٥ـ ١٧٦].

كما أنّ التقوى وحدها من دون علم غير نافعة، فإنّها ومهما بلغت في مراتبها وارتقت في مدارجها، فما لم يعرف العبد حدود مولاه التي رسمها عليه برسم العبودية فإنّه لن يأمن من مخالفته والوقوع في معصيته.

وقوّة العقل وإن كانت نافعة في موطن الحسن والقبح العقليّين والذي هو مسرح حكم العقل، ولكن في غير ذلك لا تفيد، فالعصمة إذاً ليست أحد هذه الأمور الثلاثة، بل هي هذه الأمور مجتمعة معاً.

ولتوضيح ذلك، أقول: إنّ العصمة وإن كان يظهر من أكثر من تعريف أنّها أمر غير اختياري، كقولهم إنّها لطف أو موهبة أو تفضُّل من الله تعالى، والذي من الواضح أنّه شأن من شؤون المولى وفعل من أفعاله تعالى.

ولكنّ هذا اللّطف الإلهيّ ما كان ليُعطى من دون استحقاق، ومن دون أن يحوز ويستجمع الموهوب له مجموعة من الكمالات النفسيّة التي تؤهّله لهذا العطاء واللطف الإلهيين، وأهمّ هذه الكمالات هي هذه التقوى في مراتبها العليا، وراجحيّة العقل على سائر القوى الأخرى والعمل بما يهبه الله تعالى. ولذا لا بد من إرجاع القول الثاني والثالث إلى هذه الخصائص والكمالات النفسيّة التي لا بدّ من اكتسابها قبل العصمة، وما إن تتمّ هذه الأمور وغيرها، حتّى يهب الله تعالى العلم الذي به تتمّ العصمة ويصحّ به الوصف.

ويبقى هنا سؤالان لا بدّ من الإجابة عنهما:

الأوّل: إنّ اكتساب هذه الصفات في الدنيا قد يستدعي وقتاً طويلاً من العمر، وقد قلت سابقاً بأنّ الأنبياء معصومون من لحظة ولادتهم وهذا ينافيه.

وجوابه: لم نقل بأنّ على الأنبياء السعي والعمل الفعلي لتحصيل هذه الأمور بل قلنا إنّ هذه الأمور لا بدّ من حصولها في نفس النبي قبل التفضّل الإلهي، وهذا السبق لم نلحظ به الزمان بل الرتبة. وتوضيحه: أن الله تعالى قبل خلقهم قد وقف على ضمائرهم ونيّاتهم ومستقبل أمرهم ومصير حالهم وعلم أنَّهم أصحاب نفوس قدسيّة، لو أُفيضت عليهم تلك الموهبة لاستعانوا بها في طريق الطاعة وترك المعصية. وعلمه تعالى كافٍ لإفاضة هذه الموهبة عليهم منذ ولادتهم، ويمكنك القول إنّه عَلِم من حالهم أنّهم سيكونون معصومين فزادهم عصمة.

الثاني: هذا العلم الموهوب حاصل بغير اختيار وقد قلت بأنّه به تتم العصمة فهو قوامها، وعليه تكون العصمة غير اختيارية.

وجوابه: هذا العلم وإن حصل بغير اختيار إلّا أنّ أسباب حصوله اختياريّة، وتقدّم في جواب الأوّل ما فيه الكفاية. كما أنَّ العمل به يكون بالاختيار، قال تعالى: {وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[البقرة: ١٢٠]، فهذا التحذير من الله تعالى لأشرف وأقدس نبيّ أرسله، مع ثبوت عصمته بل أعلى مراتب العصمة، ما كان ليصحّ لولا أنّه مختار، فالعصمة إذاً لا تنافي الاختيار.

حقيقة العلم الموهوب:

والعلم المقصود هنا، قد يكون هو العلم بحقائق الأشياء وبعواقب الأمور والأفعال التي تمرّ على النبي في حياته، سواء رآها تحصل أمامه من شخص ما، أو أراد هو الإقدام عليها. وعليه لو اشتمل الفعل على مزيّة خير أقدم عليه بلا

أدنى تردّد، كما أنّ الفعل المشتمل على حزازة ما ولو في أدنى درجة يبتعد عنه ويتركه بسبب تقواه ورجحان عقله وقاهريّته على بقيّة القوى الأخرى.

وبهذا العلم الموهوب تختلف الأنبياء وتتفاضل فيما بينها فمن نبيٍّ يعلم بعاقبة الفعل الذي يراه أمامه، إلى نبيٍّ يرى العاقبة متمثّلة أمامه، قال تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا}[النساء: ١٠]، فالنبيّ عندما ينظر إلى آكل مال اليتيم يرى النار تلتهب في بطنه، وكذلك فيما لو نظر إلى فعل من أفعال الخير فإنّه سيراه على صورته البرزخية التي هو عليها.

وفي خطبة المتّقين لأمير المؤمنين عليه السلام يقول: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون»[٣١]. فإن كان هذا حال المتّقين، فما بالك بسادتهم وهم الأنبياء المعصومون؟

الفرق بين العصمة والعدالة:

ذكر العلماء جملة من الأمور في مقام تمييز العصمة عن العدالة، وهذه أهمّها:

١ـ قصد المعصية؛ فإنه ينافي العصمة، ولا ينافي العدالة بناءً على عدم حرمة القصد المذكور.

٢ـ العدالة تمنع عن المعصية غالباً ولا ينافيها وقوعها نادراً، في حين أنَّ العصمة مانعة عن المعصية كليّاً ودائماً.

٣ـ العدالة قابلة للزوال بسهولة، بخلاف العصمة؛ فإنّه لا يمكن زوالها.

٤ـ العدالة تتحقّق في كل وقت من أوقات العمر، بخلاف العصمة؛ فإنّها من أول العمر.

٥ـ اختصاص العدالة بالابتعاد عن المعاصي عمداً، وشمول العصمة للاجتناب عنها عمداً وسهواً.

٦ـ عدم منافاة المعصية الصغيرة للعدالة عند كثير من العلماء، ومنافاتها للعصمة.

٧ـ إمكان معرفة عدالة أي شخص من خلال المعاشرة والاختبار، بينما العصمة لا يمكن معرفتها والاطّلاع عليها إلّا من قبل الله تعالى.

٨ـ إمكان استحقاق العادل للعقاب دون المعصوم؛ فإنّ الذنب النادر لا ينافي العدالة، ولكنّه يوجب استحقاق العقاب.

٩ـ عدم حجيّة قول العادل إلّا بدليل، بخلاف قول المعصوم؛ فإنّه حجّة بلا شكّ، وهو يورث العلم القطعي بالمخبر به.

١٠ـ قطعيّة ثبوت العدالة في الجملة لغير الأنبياء وأوصيائهم ^ ولأئمة آل محمد عليهم السلام، وعدم قطعيّة ثبوت العصمة لغيرهم سوى الصدّيقة الطاهرة فاطمة الزهراء والسيّدة مريم ‘ .

١١ـ العدالة كسبيّة يمكن تحصيلها بالسعيّ إليها، أمّا العصمة فهي موهبة وعطاء من الله تعالى.

١٢ـ العدالة يجب تحصيلها على كلّ مكلّف، فإنّها عبارة عن فعل الواجبات وترك المحرّمات، وهذا أمر اختياريّ، أمّا العصمة فلا يجب تحصيلها قطعاً واتفاقاً، بل هي أمر غير اختيارّي، وإن كانت مقدماتها اختياريّة.

أقسام العصمة والأقوال فيها:

لقد وقع الاختلاف بين أرباب المذاهب الإسلامية في عصمة الأنبياء عليهم السلام، وقد أرجع العلماء هذه الاختلافات إلى أربعة محاور:

أحدها: ما يقع في باب العقائد.

وثانيها: ما يتعلق بمقام التبليغ.

وثالثها: ما يرتبط بأفعالهم وسيرهم عليهم السلام.

ورابعها: ما يرتبط بوقت العصمة.

المحور الأوّل: الكفر والضلال في الاعتقاد:

قال القاضي الجرجاني: «أجمعت الأمّة على عصمة الأنبياء عليهم السلام عن الكفر والضلال، قبل النبوّة وبعدها، ولا خلاف لأحدٍ منهم في ذلك. غير أنّ الأزارقة من الخوارج، جوّزوا عليهم الذنب، وكلُّ ذنبٍ عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنّهم قالوا يجوز أن يبعث اللهُ نبيّاً عَلِمَ أنّه سيكفر بعد نبوّته!»[٣٢].

المحور الثاني: ما يتعلّق بالتبليغ:

وقد اتّفقت الأمّة على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف فيما يتعلق بالتبليغ عمداً وسهواً، إلّا القاضي أبا بكر، فإنّه جوّز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفلتات اللّسان. واحتجّ لرأيه بدعوى: أنّ المعجزة إنّما دلّت على صدقه ـ أي النبي ـ فيما هو متذكّر له عامد إليه، وأمّا ما كان من النسيان وفلتات اللسان فلا دلالة لها على الصدق فيه، فلا يلزم من الكذب هناك نقض لدلالتها[٣٣].

المحور الثالث: ما يرتبط بأفعالهم وسيرهم عليهم السلام:

وقد اختلفوا فيه على أقوال عدّة أهمها:

القول الأوّل: وهو مذهب الإماميّة؛ هو أنّه لا يصدر عنهم الذنب لا صغيره ولا كبيره، لا عمداً ولا نسياناً، ولا سهواً ولا إسهاءاً من الله سبحانه وتعالى. ولم يخالف فيه إلّا الشيخ الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد رحمهما الله، فإنّهما جوّزا الإسهاء من الله تعالى، لا السهو الذي يكون من الشيطان[٣٤]. قال العلاّمة الحلّي: ذهبت الإماميّة كافّة، إلى أنّ الأنبياء معصومون عن الصغائر والكبائر، منزّهون عن المعاصي قبل النبوّة وبعدها، على سبيل العمد والنسيان، وعن كل رذيلة ومنقصة، وما يدلّ على الخسّة والضعة[٣٥].

القول الثاني: وهو قول أكثر المعتزلة[٣٦]؛ وهو أنّه لا يجوز عليهم ـ عقلاً ـ الكبائر، ويجوز عليهم الصغائر، إلّا الصغائر الخسيسة المنفّرة كسرقة حبّة، أو لقمة، وكلّ ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضّعة ويلحقه بالأراذل والسفلة[٣٧].

القول الثالث: وهو قول أكثر الأشاعرة؛ وهو المنع من صدور الكبائر منهم عمداً من جهة النقل، وعدم المنع سهواً. والصغائر جائزة عمداً وسهواً، وأمّا الخسيسة منها فلا تجوز عمداً ولا سهواً، سوى ما كان من قبيل نظرة وكلمة سفه نادرة في خصام[٣٨].

القول الرابع: وهو قول الحشوية[٣٩]؛ أنّه يجوز عليهم الكبائر والصغائر، عمداً وسهواً وخطأً[٤٠].

المحور الرابع: ما يرتبط بوقت العصمة:

وقد اختلفوا في وقتها على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو مذهب الإماميّة؛ هو أنّ العصمة ثابتة للأنبياءعليهم السلام من حين ولادتهم وإلى أن يلقوا الله سبحانه وتعالى.

القول الثاني: وهو مذهب أكثر المعتزلة؛ أنّ العصمة تكون من حين النبوّة، ولكن لا يجوز عليهم الكفر ولا الكبيرة قبلها، وهناك من ذهب منهم إلى القول بأنّ العصمة تكون من حين البلوغ.

القول الثالث: وهو قول أكثر الأشاعرة؛ الأنبياء معصومون من حين النبوّة، ويجوز عليهم الكبائر قبلها.

تمّ القسم الأوّل من المقالة. ويأتي القسم الثاني منها في العدد القادم إن شاء الله، ونستهلّه بالحديث عن عصمة النبيّ آدمعليه السلام بين الأدلّة العامّة والخاصّة.

* * *

الهوامش:

(١) كسورة البقرة وآل عمران والأعراف والإسراء وطه.

(٢) راجع: الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ، ج٨ ص٣٨.

(٣) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١١ ص١٠٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ١١ ص ١٠٠.

(٥) الطبرسي، ابو علي، الشيخ الفضل بن الحسن، الاحتجاج، ج٢ ص٦٥.

(٦) الصدوق، أبو جعفر، الشيخ محمد ابن بابويه القمّي، كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج١ص ١٣٤.

(٧) الصدوق، أبو جعفر، الشيخ محمد ابن بابويه القمّي، كتاب علل الشرائع، ج١ ص١٤.

(٨) المجلسي، الشيخ محمد باقر، بحار الأنوار، ج١١ ص١٠٧.

(٩) المصدر نفسه، ج٢ ص٣٢١ .

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) المصدر نفسه.

(١٢) المصدر نفسه، ج١١، ص١٠٧.

(١٣) ابن منظور، جمال الدين، محمّد بن مكرّم، لسان العرب، ج١٠ ص١٨٠.

(١٤) العلّامة المصطفوي، الشيخ حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٨ ص١٩٢و١٩٣.

(١٥) راجع: الشريف المرتضى علم الهدى، علي بن الحسين الموسوي، تنزيه الأنبياء والأئمة (ع)، ص ٤٣. و شيخ الطائفة، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تفسير التبيان ، ج ٨ ص ٧٥٤.

(١٦) رئيس المحدّثين، أبوجعفر الصّدوق محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمّي، من لا يحضره الفقيه، ج ١ ص ٣٥٩ و٣٦٠.

(١٧) الشهيد الثاني، الشيخ زين الدين بن علي العاملي، مسالك الأفهام ، ج١٤ ص ١٦٦و١٦٧.

(١٨) الفراهيدي، أبو عبد الرحمن، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج١ ص٣١٣.

(١٩) الطريحي، الشيخ فخر الدين بن محمد علي الأسدي، مجمع البحرين، ج٣ ص ١٩٣: (مادّة: ع ص م).

(٢٠) ابن منظور، جمال الدين، محمّد بن مكرّم، لسان العرب، ج١٢ ص٤٠٣.

(٢١) العلّامة المصطفوي، الشيخ حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٨ ص ١٨٧و ١٨٨.

(٢٢) المفيد، الشيخ أبو عبد الله محمد بن النعمان العكبري، النكت الاعتقادية، ص ٣٧.

(٢٣) الخرّازي، السيد محسن، بداية المعارف الإلهية، ج١ ص٢٤٩.

(٢٤) للمحقق اللاهيجي، نقلاً عن بداية المعارف الإلهية، ج١ ص٢٤٩.

(٢٥) المظفّر، الشيخ محمد رضا، عقائد الإماميّة، ص٥٤.

(٢٦) السبحاني، الشيخ جعفر، محاضرات في الإلهيّات، ج٣ ص ٢٨١.

(٢٧) الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن ، ج٥ ص ٧٩، ٨٠، ٨١.

(٢٨) السبحاني، الشيخ جعفر، محاضرات في الإلهيات، ج٣ ص ٢٨١.

(٢٩) نقلاً عن كتاب صراط الحق للشيخ محمد آصف المحسني، ج٣ ص٣٠.

(٣٠) شبّر، السيد عبد الله، الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة، ص ١١١.

(٣١) نهج البلاغة شرح ابن أبي الحديد الخطبة ١٨٦.

(٣٢) الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف (تأليف: القاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي)، ج٤ ص ٢٨٨.

(٣٣) المصدر نفسه.

(٣٤) رئيس المحدّثين، أبو جعفر الصّدوق محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمّي، من لا يحضره الفقيه، ج١ ص ٣٥٩ و٣٦٠.

(٣٥) العلّامة، أبو منصور، الحسن بن يوسف بن المطهّر الأسدي الحلّي، نهج الحق وكشف الصدق، ص ١٤٢.

(٣٦) المعتزلة: فرقة عقائدّية مستقلّة انقرض أتباعها، عُرِفوا بهذا اللقب عند اعتزالهم حسن البصري وأتباعه وتحيّزهم عن مجلسه بعد أن كانوا من أهله، فسمّاهم الناس «المعتزلة»، وسبب تركهم لمجلسه هو اقتناعهم ببعض الأفكار الخاصّة وتفردهم بها عنه كقولهم: إنّ مقترف الكبيرة ليس بالكافر ولا بالمؤمن بل في منزلة بين المنزلتين.

(٣٧) الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف (تأليف: القاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي)، ج٤ ص ٢٩٠.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) وهم المحدِّثون من العامّة، الذين ينفون تأويل الكتاب الكريم والأحاديث النبويّة الشريفة، ويأخذونها على ظاهرهما، ويُسمّون أيضا بـ«أصحاب الأثر »، من أبرز رجالاتهم: أحمد بن حنبل، ابن حزم، ابن تيمية.

(٤٠) المصدر السابق ج٤ ص ٢٨٩.

التسعير

بين الرؤية الإسلامية والليبرالية

د. علي زعيتر (*)

تحاول هذه المقالة ان تبحث «نظرية التسعير» من خلال المقارنة بين الرؤية الإسلامية والرؤية الليبرالية، فقد تمّ التعرض فيها لأهم آراء المفكرين الليبراليين وكذلك الإسلاميين خصوصاً المعاصرين منهم؛ حيث خلصت إِلَى أنَّ هناك اشتراكاً ببعض العناصر المكونة للأسعار مع وجود اختلاف بالمباني الفكرية والقيمية.

مقدمة:

لا شكّ أنَّ تسعير (Pricing) السلع والخدمات هو لبّ المطلب في النظرية الاقتصادية بشكل خاص، وأهم المحاور الاقتصادية بشكل عام . لذلك نجد أنَّ البحوث الاقتصادية أوّل ما تبدأ في تعريف السعر وتفاوته مع القيمة (value) حتي يمكن القول إِنَّ أساس الاختلاف بين المذاهب الاقتصادية

(*)دكتوراه في الاقتصاد النقدي والموارد الطبيعية من جامعة العلامة الطباطبائي/ طهـران، أسـتاذ في الجامعة اللبنانية.

ينشأ من الاختلاف حول موضوع التسعير والقيمة.

نشأت مسألة التسعير منذ أن نشأ مبدأ التبادل بين البشر حيث اضطر الناس إِلَى تبادل السلع والخدمات فيما بينهم سواء في زمن عصر «المقايضة» سلعة مقابل سلعة أو عصر التبادل عبر «الوساطة»، أي: إِنَّ هناك وسيطاً لتبادل السلع والخدمات. فكان المطروح هو كيف يمكن تقييم اللأشياء حتى تتم عملية التبادل بطريقة عادلة، أو ما يعرف «بالثمن العادل». هنا نشأ جدل جديد هو العدالة الذي هو نتيجة للتعريف الدقيق لقيم الأشياء، وأيضاً نشأ فيما بعد ما يعرف «بحقوق الملكية»، وكيف يمكن تحقيق الثمن أو «السعر العادل»؟

على كلّ حال فإنّ هذا الموضوع شغل حيزاً كبيراً ومحورياً في تفكير وأداء الدول والحكام من خلال التشريعات والقوانين والأحكام الفقهية، وأيضاً على مستوى النظرية الاقتصادية، واعتقد أنَّ منشأ علم الاقتصاد هو هذا المبحث بالخصوص؛ لأنّ تعريف علم الاقتصاد بعلم الندرة والتخصيص الأمثل للموارد، أي: كيف يمكن توزيع الثروة بشكل عادل. وبمعنى آخر ما هو نصيب عوامل الانتاج وقيمتها والتي تعود بنا إِلَى بحث التسعير والتثمين وقيم الأشياء.

بناء عليه فإن بحث سعر (الثمن) وقيمة السلع والخدمات هو بحث قديم يرتبط بعلاقات الإنسان التبادلية للأشياء.

هناك بحث آخر يرتبط بمفهوم السعر والقيمة وهل هما متساويان أم لا؟

يوجد جدل حول ما إذا كان السعر هو نفس القيمة للأشياء ، حيث كان السائد في العصور الأولى أنَّ السعر هو نفسه القيمة، ولكن بعد التطور وانتقال الإنسان إِلَى مرحلة التبادل ووجود وسيط للتبادل، سواء أكان الذهب أو الفضة أو العملة الورقية فإنّ الاختلاف في التعريف والتطابق قد زاد بين المفهومين، وكان لا بد من حسم الجدل حول هذا الموضوع لتأثيره على إيجاد نظرية نستطيع

من خلالها تحديد الأسعار، أو ما يسمى بنظرية التسعير، وبالتالي رسم السياسات المناسبة لتحقيق العدالة؛ لذلك نجد أنّه طرح مفهومين: أولهما القيمة التبادلية، والتي هي السعر والقيمة الاستعمالية والتي هي قيمة الأشياء لدى المستهلك، وما نتكلم عنه في هذه المقالة هوالقيمة التبادلية، أي: السعر.

١) السعر والقيمة في المدرسة الليبرالية:

يوجد بشكل عام نظريتان تناولتا موضوع أسعار السلع والخدمات من وجهة نظر الاقتصاديين الليبراليين: الأولى وهي نظرية (القيمة ـ العمل)، والأخرى هي نظرية (المنفعة الحدية).

أ. **نظرية (القيمة ـ العمل):**

كان آدم سميث وريكاردو أوّل القائلين بهذه النظرية ، ففي نظرهم لا يوجد تفاوت واختلاف بين السعر والقيمة، وبالتالي فإنّ قيمة الأشياء تتحدّد بما تختزنه من (عمل ضروري)، وهو العمل الاجتماعي اللازم لإنتاج السلع والخدمات في محيط اجتماعي معين؛ لذلك فإنّ قانون (القيمة ـ العمل) ليس فقط تعبيراً عن علاقة السلعة بالناس والناس بالسلعة، بل هو تعبير عن العلاقات الاجتماعية أيضاً، وبالتالي هو عبارة عن قانون للتوزيع، وبالتالي فإنّ التعبير الكمي والكيفي لهذه النظرية هو عبارة عن تحديد العوائد المترتبة عن العمل من الناحية الكمية، وتنظيم للعلاقات الاجتماعية من ناحية أخرى.

السؤال هو كيف يتحدد السعر؟

طرح سميث ما سُمّي: السعر أو القيمة الطبيعية، أي: إِنَّ سعر السلعة هو قيمتها الطبيعية التي تتحدد بكمية العمل الطبيعي الداخل فيها، وبناء عليه فإنَّ قيمة العمل الطبيعي هي القيمة التي يتساوى عندها تكلفة استخدام العامل مع العائد من الانتاج الحاصل.

هنا سؤال: كيف يمكن تحديد تكلفة العامل الطبيعي؟

والجواب: أنَّ ما يحدد ذلك هو ما يعرف بـ (الحد الأدنى للكفاف)، أو الأجر الذي يضمن استمرارية العامل بالعمل؛ لذلك نجد أنَّ ما يشكل القيمة الحقيقية للسلعة عبارة عن العائد الطبيعي لرأس المال + الإيجار الطبيعي للأرض + أجرة العامل بناء على المعدل الطبيعي، وبالتالي فإنَّ القيمة السوقية الطبيعية للسلعة تتحدد من خلال مقدار الطلب الطبيعي على تلك السلعة.

ب. المدرسة الحدية (المنفعة الحدية):

هنا تمّ التفريق بين السعر والقيمة، أو بين القيمة التبادلية للأشياء والقيمة الاستعمالية لها. في المدرسة السابقة كان التأكيد على جانب العرض في تحديد قيم وسعر الأشياء بدون التركيز على جانب الطلب، أمّا هنا فإنَّ المحور هو المستهلك وما تشكله هذه السلعة من منفعة له.

يعتبر مارشال الشخصية الأبرز التي تكلمت في هذا المجال؛ حيث اعتبر أنَّه في الفترة القصيرة التي لا يمكن خلالها تغيير عوامل الانتاج، فإنَّ المنفعة هي العامل المؤثر في تحديد الأسعار، أمّا في الأجل الطويل حيث يمكن لعوامل الانتاج أن تتغير بسهولة فإنَّ تكلفة الانتاج هي العامل المؤثر في تحديد الاسعار. لذلك هنا تمّ التأكيد على فكرة السوق لتحديد أسعار السلع والخدمات وتم التخلي عن البحث حول (قيم) السلع والخدمات. بناء عليه وما جاء به (والراس) ومن بعده اعتبر أنَّ (نظام السوق) أو نظرية (الطلب والعرض) هو الكفيل بتحديد الأسعار، وبالتالي هو يعبر عن شكل آخر في العلاقات الاجتماعية والتوزيع، حيث يربط بين البعد السلوكي للمستهلك والمنتج مع السلعة من خلال (نظام التسعير) من خلال التعبير الكمي الذي عبرت عنه نظرية (الترجيحات)[1] أو النظرية (الترتيبية)[2] للمنفعة، وبالتالي ترك الحديث عن القيمة (Value) جانباً، وأصبح الاهتمام منصباً فقط على السعر.

خلاصة القول: إنَّ ما أتى به الاقتصاديون الليبراليون هو أنَّ مايحدّد أسعار السلع والخدمات هو السوق الذي تتلاقى فيه إرادة البائع والمشتري، فالسوق هو المكان الذي يتحقق فيه (التوزيع العادل) للثروة، والتخصيص الأمثل للموارد، وأنّ أيَّ انحراف عن (سعر السوق) هو إخلال بالعدالة وناتج عن مؤثرات خارجية.

٢) السعر والقيمة في المدرسة الإسلامية:

من خلال التتبع لآراء المفكرين سواء الاجتماعيين أم الاقتصاديين نجد أنَّ الهمّ الوحيد هو تحقيق العدالة، ولكن كلٌّ من وجهة نظره ورؤيته الكونية، وهكذا هو الإسلام، فقد نظر إِلَى العدالة بناء على رؤيته الكونية ونظرته إِلَى الإنسان، وربط بين الدنيا والآخرة، وأنّ الإنسان يسعى إِلَى ربه فملاقيه بحقيقة العبودية، هذه هي خلاصة نظرة الإسلام إِلَى المجتمع والإنسان والكون، فبالتالي لا يمكن فصل نظرته إِلَى الاقتصاد والسلوك الاقتصادي للإنسان عن الرؤية التوحيدية للكون، بل لا بد أن تكون منسجمة مع تلك الرؤية.

بالتأكيد ليس المجال هنا لبحث الرؤية الكونيه للإسلام، بل محاولة لدراسة السعر والثمن بناء على المفاهيم الإسلامية للعدالة الاجتماعية والاقتصادية، هنا يمكن أن نتناول هذا الموضوع من عدة زوايا:

١. التسعير من الناحية الفقهية أو رأي الفقهاء في مسألة السعر العادل من خلال الفتوى.
٢. التسعير من خلال قراءة آراء المفكرين الاقتصاديين الإسلاميين الذين درسوا الفقه والفتاوى المختلفة، وحاولوا صياغة نظرية اقتصادية ورؤية حول الثمن العادل أمثال الشهيد الصدر، الأستاذ مطهري، المقريزي، أبي قحف، ابن خلدون، المقريزي، بهشتي، ابن مسكويه،

وغيرهم من المتأخرين والمتقدمين.

٣. التسعير من وجهة نظر الاقتصاديين المعاصرين الذين سعوا إِلَى الاستفادة من أدوات التحليل الاقتصادي لاستنباط الرؤية الإسلامية للسعر العادل؛ حيث تناولوا السعر من خلال مبدأ الطلب والعرض والاستفاده من نظريات الاقتصاد الجزئي والكلي أمثال أمير عبد اللطيف (الاستثمار في الاقتصاد)، نجات الله صديقي (البنك اللاربوي)، مطهري (الربا، التأمين، والضمان)، الشهيد الصدر (البنك اللاربوي في الإسلام) وغيرهم.

طبيعي إنّنا في هذه المقالة لا نستطيع مناقشة السعر من الزوايا السابقة، بل سنقتصر على بحث السعر من وجهة نظر المجموعة الثانية، أيْ: الفقهاء والعلماء الذين قدّموا رؤية متكاملة، ليس من الناحية الفقهية، بل رؤية أشمل؛ لذلك سنتناول آراء بعض العلماء والمفكرين الإسلاميين حول موضوع التسعير أو (الثمن العادل).

الظاهر أنَّ أغلب فقهاء المسلمين متفقون على تحريم وعدم جواز التسعير من دون مبرّر كالإحتكار، وبالتالي حتى من ادّعى وجوب التسعير كان من باب إمكانية تدخّل الحاكم الشرعي لإعادة السعر إِلَى السعر العادل، وإعادة تنظيم السوق بما يخدم مصلحة البائع والمشتري، فتقسيم السوق إِلَى (بيع سمح) ومن (قارف حكرة) كما جاء في عهد مالك الأشتر دليلٌ واضحٌ على قبول نظام السوق بعنوان المكان الأمثل لتخصيص الموارد المالية والمادية، وأيّ خلل قد يطرأ يؤدّي إِلَى تعطيل آليات عمل السوق، ولا يتمّ حينها البيع السمح، يضطر الحاكم الشرعي إِلَى التدخل ومنع ورفع الخلل. ولعل مصطلح (البيع السمح) أهم من اصطلاح المنافسة؛ لما يتضمنه من أبعاد سيكولوجية تؤثّر على أداء البائع والمشتري، وهي التي تربط بين (المطلوبية الفردية) و(المطلوبية الاجتماعية)، كما

عبّر عنها الشهيد الصدر في كتابه اقتصادنا عندما تناول كيفية تحديد الأسعار.

على كل حال تنقسم الرؤى الفقهية حول التسعير إِلَى أربع:

١. القول بحرمة التسعير.

٢. القول بوجوب التسعير.

٣. القول باجبار المحتكر دون التسعير.

٤. القول باجبار المحتكر والتسعير اذا كان السعر مجحفا بالعامة.

ولأن ملاك تحديد السعر يشكّل الأساس لتحديد كلٍّ من الأجور والربح وريع الأراضي وغير ذلك مما يدخل في عملية التوزيع لعوامل الانتاج ما بعد الانتاج وما قبله، من هنا كان التركيز على موضوع تحديد الأسعار للأمورالتالية:

أولاً: لتحديد موضوع البحث.

ثانياً: لأنَّه أكثر من غيره محل الخلاف والبحث من قبل علمائنا.

ثالثاً: لأن الموقف فيه، إذا عرف، عرفت أغلب المواقف في الموارد الأخرى.

وعلى أيِّ حال، فَإِنَّ الأصل في البين هو حرية البائعين والمشترين في التعامل بأيّ سعر كان. أمّا التحديد فيجب أن يتم طبق حركة استثنائية، وعلى أساس من سلطة حكومية ولائية، أو قواعد ثانوية تنفي الضرر والحرج وغيرها.

وسنلاحظ اختلاف المواقف فيما يلي:

أقوال العلماء:

ـ ذكر مؤلف رسالة (التسعير) بعض هذه الأقوال، وأكّد أنَّ كلماتهم مختلفة في ذلك، والأكثر على المنع. بل في كتاب مفتاح الكرامة: «إجماعاً وأخباراً متواترة،كما في السرائر، وبلا خلاف كما في المبسوط، وكما في التذكرة للعلامة».

ـ وجاء في نهاية الشيخ الطوسي: «ولا يجوز له أن يجبره على سعر بعينه، بل يبيعه بما يرزقه الله تعالى، ولا يمكنه من حبسه أكثر من ذلك.

ـ وفي المبسوط للشيخ الطوسي: «لا يجوز للإمام ولا النائب عنه أن يسعّرعلى أهل الأسواق متاعهم من الطعام وغيره، سواء كان في حالة الغلاء أو في حال الرخص، بلا خلاف... فإذا ثبت ذلك، فإذا خالف إنسان من أهل السوق بزيادة سعر أو نقصانه، فلا اعتراض لأحد عليه.

ـ وفي كتاب الغنية لابن زهرة: «ولا يجوز إكراه الناس على سعر مخصوص».

ـ وفي كتاب الشرائع: «ولا يسعّر عليه، وقيل: يسعر. والأوّل أظهر».

ـ وفي المختصر للمحقق الحلي: «وهل يسعرعليه؟ الأصح، لا».

ـ وفي المقنعة: «وله أن يسعرها على ما يراه من المصلحة، ولا يسعرها بما يخسر أربابها فيها».

ـ وفي الدروس للشهيد الأول: «ولا يسعّر عليه إلا مع التشدد».

ـ وفي مفتاح الكرامة، وفي الوسيلة والمختلف والأيضاح والدروس واللمعة والمختصر والتنقيح: «أنَّه يسعر عليه إن أجحف في الثمن لما فيه من الإضرار المنفي».

ـ وقال العلامة في المنتهى: «على الإمام أن يجبر المحتكرين على البيع، وليس له أن يجبرهم على التسعير، بل يتركهم يبيعوا كيف شاءوا. وبه قال أكثر علمائنا، وهو مذهب الشافعيّ.وقال المفيد، وسلّار رحمهما الله: للإمام أن يسعّر عليهم فيبيعوا بسعر البلد. وبه قال مالك».

ـ وجاء في موسوعة الفقه الإسلامي: «نص المالكية على أنَّ مَن اشترى الطعام من الأسواق واحتكر وأضرّ بالناس، فَإِنَّ الناس يشتركون فيه بالثمن الذي اشتراه به».

ـ وجاء في الموسوعة نفسها: «صرّح الحنابلة بأنّ لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل، عند ضرورة الناس إليه، مثل مَن عنده طعام يحتاج إليه الناس في مخمصة، فَإِنَّ مَن اضطر إِلَى طعام غيره أخذه منه

بغير اختياره بقيمة المثل، ولو امتنع عن بيعه إلا بأكثر من سعره أخذه منه بقيمة المثل».

وهكذا نجد العلماء بين موافق ومخالف في هذا الموضوع، أمّا النافون للجواز فقد استندوا إِلَى أدلة، أهمها:

أولاً: كلّ الأدلة العامة تدعو إِلَى احترام الملكية الخاصة، والسلطنة على المال، وعدم التدخل في ذلك، وأنّ الأصل هو تحريم نقل مال الغير عنه بغير إذنه، وأنّ البيع معاملة وقعت عن تراض، فما المجوّز للتدخل؟ وأمثال ذلك.

ثانياً: الروايات الخاصة الواردة في هذا الموضوع، منها:

ـ ما رواه محمد بن يعقوب بسنده عن حذيفة بن منصور، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «**نَفِدَ الطَّعَامُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ' فَأَتَاهُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالُوا يَا رَسُولَ الله قَدْ نَفِدَ الطَّعَامُ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا عِنْدَ فُلَانٍ فَمُرْهُ يَبِيعُهُ النَّاسَ قَالَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ يَا فُلَانُ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ذَكَرُوا أَنَّ الطَّعَامَ قَدْ نَفِدَ إِلَّا شَيْئاً عِنْدَكَ فَأَخْرِجْهُ وَبِعْهُ كَيْفَ شِئْتَ وَلَا تَحْبِسْهُ**».

ـ ما رواه الشيخ بسنده عن الحسين بن عبيدالله بن حمزة، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: رفع الحديث إِلَى النبيّ ' : «**أَنَّهُ مَرَّ بِالْمُحْتَكِرِينَ فَأَمَرَ بِحُكْرَتِهِمْ أَنْ تُخْرَجَ إِلَى بُطُونِ الْأَسْوَاقِ وَحَيْثُ تَنْظُرُ الْأَبْصَارُ إِلَيْهَا فَقِيلَ لِرَسُولِ الله ' لَوْ قَوَّمْتَ عَلَيْهِمْ فَغَضِبَ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ أَنَا أُقَوِّمُ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا السِّعْرُ إِلَى الله تَعَالَى يَرْفَعُهُ إِذَا شَاءَ وَيَخْفِضُهُ إِذَا شَاءَ**».

ـ ما رواه الصدوق في الفقيه، قال: «**قِيلَ لِلنَّبِيِّ ' لَوْ سَعَّرْتَ لَنَا سِعْراً فَإِنَّ الْأَسْعَارَ تَزِيدُ وَتَنْقُصُ فَقَالَ ' مَا كُنْتُ لِأَلْقَى الله بِبِدْعَةٍ لَمْ يُحدِثْ إِلَيَّ فِيهَا شَيْئاً فَدَعُوا عِبَادَ الله يَأْكُلْ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَإِذَا اسْتُنْصِحْتُمْ فَانْصَحُوا**».

ـ في سنن أبي داود، بسنده عن أبي هريرة: «**أنَّ رجلاً جاء فقال: يا رسول الله سعّر، فقال: بل أدعوا. ثم جاء رجل فقال: يا رسول الله سعّر، فقال: بل الله يخفض ويرفع، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس لأحد عندي مظلمة**».

ـ وفيه أيضاً، بسنده عن أنس بن مالك قال: «**قال الناس: يا رسول الله غلا السعر فسعّر لنا: فقال رسول الله: إنَّ الله هو المسعّرالباسط الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبني بمظلمة في دم ولامال**».

ورواه ابن ماجة أيضاً وأحمد، في المسند.

ـ وهناك روايات أخرى رواها ابن ماجة، وعبدالرزاق في (المصنف) وروى بعضها أبو يوسف في (الخراج)، والشوكاني في (نيل الأوطار) وغيرهم.

وأما المجيزون للتسعير فهم يستندون إِلَى أدلة:

أولاً: مسألة الولاية التي يملكها الحاكم الشرعي على الأوضاع العامة لتحقيق العدالة الاجتماعية، فله حقّ التدخل لتعديل الأسعار، كما أنَّه له حقّ التدخل في مختلف المجالات المباحة. ومن الطبيعي أنَّ الحكومة والقدرة على الإدارة العامة تتطلبان، بلا ريب، هذه الولاية لملء منطقة الفراغ التنظيمي.

أمّا الأساس الذي يقوم عليه تدخله في الأمور،فقد يكون هو الضرورة، وقد لا تكون هناك ضرورة، وإنما تقتضي المصلحة العامة، أيْ: تقتضي مسألة السير الاجتماعي المتوازن، أنْ يتدخّل في هذه المنطقة.

ومن الواضح أنَّ التسعير لا يعني الإجبار على البيع إذا كان هناك ما يتطلّب ذلك. ويقوم أصل الولاية هذا على أساس من أمر الشريعة بإطاعة ولي الأمر فيما رآه.

ثانياً: وجود الضرر، وهو منفي في الإسلام، والمقصود به هنا أنَّ المنع من التسعير، أو عدم التسعير، يؤدّي إِلَى ضرر العامة وهم محتاجون إِلَى المتاع.

ويتأكد هذا الموضوع إذا قلنا بأنّ الضرر يفسّر بسوء الحال، فيشمل الضرر الاجتماعي العام.

ثالثاً: كما استند في ذلك إِلَى سدّ الذريعة إِلَى الحرام، والمصالح المرسلة، باعتبارها أصولاً قائمة برأسها.

وعلى ضوء هذه الأدلة التي نقلناها، وما نفهمه من طبيعة الإسلام والنظام الإداري فيه، نستطيع طرح النقاط التالية التي تساهم في تفهّم الموقف الصحيح:

أولاً: بالرغم من أنَّ الإسلام اعترف تماما ًبالملكية الخاصة، والحرية الاقتصادية في مجالات ترشيد الثروة، والتملك، والاستهلاك،وأعطاها دورها الخاص الأصيل في الحياة الاقتصادية تماماً، إِلَى جانب الاعتراف بالملكية العامة والمصالح العامة، ولكنّه أكّد من جهة بعض المفاهيم التي تبعد هذ االاعتراف عن صورته الرأسمالية الجشعة. وتلك من قبيل مفهوم الخلافة الإلهية على المال، وأن الإنسان إنما خوّل التصرف في المال بما يريده المالك الحقيقي له: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧]، ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وإنّ الأموال إنّما أعطيت، ونظّم لها نظام ملكية معين، باعتبار مالها من وظيفة اجتماعية عامة؛ ولذا يمنع السفهاء من التلاعب بها واستغلال ملكيتهم الخاصة في هذا الصدد: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٥].

وربما جاءت نصوص تذكر حقيقة المالكية الإلهية، والهدف منها، ثمّ تعقّب على ذلك بأحكام تحدّد فيها هذه الملكية، مما يوضح لنا أنَّ الملكية في الإسلام ليست حقاً مطلقاً، وإنما هي حق تستتبعه مسؤولية. وعلى ضوء هذا، فإذا أريد استغلال الملكية لصالح جشع المالك واستفادته من حاجة الناس إليها للتضييق

عليهم والوصول إِلَى الربح المضاعف، فَإِنَّ ذلك مما يتنافى وطبيعة المسؤولية التي أشرنا إليها.

والذي يشخص الضرورة الاجتماعية، أو المصلحة الاجتماعية العليا، هو ولي الأمر العادل، عبر تشاوره مع ذوي الخبرة. ومن خلال ذلك يملك ولي الأمر القدرة على توجيه الاقتصاد السياسي طبق الوجهة التي يريدها الإسلام، فيمنع من انحصارالأموال بيد طبقة خاصة: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، ويحقق للتداول طبيعته الاقتصادية المنسجمة مع المسؤولية الاجتماعية، مبعداً إياه عن دوره الاستثنائي الرأسمالي المنحرف والمؤدي إِلَى تضخّم القيمة وإهدار الطاقات، ويوفرالتوازن الاجتماعي المطلوب؛ لذا فعملية التسعير، إذا نظر إليها في هذا الإطار، كانت عملية طبيعية بلا ريب.

ثانياً: إذا أردنا أن نوضح موقف الإسلام من حرية قوانين العرض والطلب في السوق الإسلامية، نستطيع الوصول إِلَى نتيجة ملخصها:

ـ أنَّ هذه القوانين لا محلّ لها في مرحلة ما قبل الإنتاج البشري، أيْ: مرحلة الطبيعة الخام. فالمؤثّر في هذه المرحلة هو العمل على الطبيعة، وبدونه لا يحصل أيّ اختصاص أو توزيع.

ـ أمّا في مرحلة ما بعد الإنتاج البشري فَإِنَّ هذه القوانين تعمل عملها، ولكن في أطر معينة يرضاها الإسلام للسوق الإسلامية السليمة، والتي تذكرها لنا النصوص الإسلامية الكثيرة. إذ لا يوجد في هذه السوق (احتكار)، ولا (إجحاف)، ولا (غش)، ولا (تبانٍ) لرفع القيم، حتى التباني الرسمي، ولا ندرة مصطنعة. كما يتوفر فيها ما يحتاجه المجتمع، حيث يجب كفاية توفير ذلك، وهكذا نصل إِلَى منع أيّ معاملة محرمة، وسيادة روح التعاون والخدمة، وغير ذلك من أحكام السوق الإسلامية السليمة. وفي مثل هذه الحالة الطبيعية لا معنى لتدخل الدولة في عملية العرض والطلب، حيث الأصل حريتهما، وربما

يحمل على ذلك ما جاء في الأخبار: «**إِنَّمَا السِّعْرُ إِلَى الله تَعَالَى يَرْفَعُهُ إِذَا شَاءَ وَيَخْفِضُهُ إِذَا شَاءَ**»، أو «**إِنَّ غلاء السعر ورخصه بيد الله**»، وأمثال ذلك. وإذا رأيناه ' يغضب ممن طلب إليه التدخل، فهو الظاهر؛ لأَنَّه طلب إليه التدخل في حالة عادية. وقد روى عبدالرزاق في (المصنف) بسنده عن سالم بن أبي الجعد قال: قيل للنبي ' : «**سعّر لنا الطعام، فقال: إن غلاء السعر ورخصه بيد الله وأني أريد أن ألقى الله لا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في مال ولا دم**».

فليس غلاء السعر، أو كون الطعام غير مسعّر، وأمثال ذلك سبباً للتدخل. أمّا إذاحصل إجحاف في البين، أو احتكار، وما إِلَى ذلك مما يتنافى والشكل الإسلامي للسوق، فَإِنَّ لولي الأمر التدخل لإرجاع الحالة إِلَى الوضع الطبيعي بلا ريب. قال الصدوق في كتاب (التوحيد): «**فما كان من الرخص والغلاء عن سعة الأشياء وقلتها فَإِنَّ ذلك من الله عز وجل، ويجب الرضا بذلك والتسليم له. وما كان من الغلاء والرخص بما يؤخذ الناس به لغير الأشياء وكثرتها، من غير رضى منهم به، أو كان من جهة شراء واحد من الناس جميع طعام بلد فيغلو الطعام لذلك من المسعّر والمعتدي بشراء طعام المصر كله، كما فعله حكيم بن حزام، كان إذا دخل الطعام المدينة اشتراه كلّه، فمرّ عليه النبي ' فقال: ياحكيم بن حزام إياك أن تحتكر**».

وقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أَنَّه كتب إِلَى مالك الأشتر، عامله على مصر، يقول: «**فامنع من الاحتكار، فَإِنَّ رسول الله منع منه. وليكن البيع بيعاً سمحاً بموازين عدل وأسعار لا تجحف الفريقين من البائع والمبتاع**».

ويقول الشهيد الثاني: «ولا يجوز التسعير في الرخص مع عدم الحاجة قطعاً، والأقوى أَنَّه مع الإجحاف حيث يؤمر به، لا يسعّر عليه أيضاً، بل يؤمر بالنزول عن المجحف، وإنْ كان بمعنى التسعير، إلا أَنَّه لا ينحصر في قدر خاص».

والظاهر أنَّ النصوص تؤكّد حرية التسعير، ما لم يتطلب الموقف غير ذلك، وحتى لو أمكن تلافي الحاجة بالأمر بتقليل السعر، دون تحديده، لتعين ذلك، فهي حالة استثنائية لا يصار إليها إلا عند الضرورة أو اقتضاء المصلحة العامة الملزمة لذلك.

وإنّنا إذا تأملنا الخلاف بين العلماء ونصوصهم واستدلالاتهم، وجدنا أنَّ هذا يشير إِلَى الحالة الطبيعية فيحرّم، وذاك يشير إِلَى الحالة الثانوية فيجيز فهم في الواقع متفقون كما يظهر.

إذن يتخلص من ملاحظة الأدلة والنصوص والفتاوى ما يلي:

١) إِنَّ الأسعار متروكة للمالكين يسيرون بها حسب العرض والطلب، وفي الجوالطبيعي لهما، دونما صيرورة إِلَى ندرة كاذبة واحتكار مذموم.

٢) في الحالات التي تتطلّب الضرورة أو المصلحة الاجتماعية تدخل وليّ الأمر، فَإِنَّ له ـ بمقتضى ولايته ـ التدخّل لإرجاع الوضع إِلَى الحالة الطبيعية، أيْ: أنَّ الوظيفة الأساس للحاكم هي الحفاظ على آلية السوق حتى تعبّر بشكل حقيقي عن إرادة البائع والمشتري دون إجحاف.

٣) حصول المستهلك على السلعة، فالأصل توافر السلع والخدمات؛ لذلك نجد الروايات تؤكّد على عرض ما تمّ احتكاره، وليس على تسعيره مع الاحتفاظ لولي الأمر بدوره في التسعير.

مما تقدّم يتبيّن لنا عنوان تدخل الحاكم أو الدولة في النشاط الاقتصادي؛ حيث تعبّر وتبيّن أدلة تحريم التسعير أو من قال بوجوب التسعير عن كون الدولة هي العنصر الثالث الفعّال في السوق.

أمّا ما لا يمكن التأكّد منه، هو أنَّ الدولة هل يمكن لها أنْ تتدخّل مباشرة في النشاط الاقتصادي؟ أم تكتفي بالمراقبة والتوجيه؟ إنّني أعتقد أنَّ المهام المنوطة

بالدولة تسمح لها أن تمارس الأدوار كافة بناءاً على تشخيص الزمان والمكان والمستوى التنموي للبلاد.

من هنا يمكن القول إنَّ الرؤية الإسلامية تتلاقى مع الرؤية الليبرالية من حيث ترك حرّية السوق، أمّا ضمن حدود البيع السمح وعدم الإجحاف، وهذا واقعاً هو الفرق الجوهري؛ لأنّ الرأسمالية ـ من اسمها ـ هي هيمنة رأس المال على ما سواه من عناصر الإنتاج، وبالتالي بدل أن يكون البيع السمح هو المعيار يكون الربح الخالص ـ بغضّ النظر عن التداعيات الاقتصادية والاجتماعية ـ هو الميزان في أداء السوق.

معايير السعر العادل بناء على الرؤية الإسلامية:

اعتبرت الرؤية الليبرالية نظام السوق وقوانين الطلب والعرض هي الطريقة لتبيين المعيار الأمثل لتحديد السعر العادل، حتى ولو أدّى إِلَى وجود نوع من الاحتكار، أو ما عُرِف فيما بعد باحتكار القلّة والمنافسة الاحتكارية. وصحيح أنَّ القوانين والتشريعات هناك منعت من الاحتكار الكامل، وخاصة الاحتكار المضاعف، أيْ: أنَّ المحتكر سواء من جهة الطلب أو من جهة العرض هو نفسه، وهو أقوى أنواع الاحتكارات. أمّا أنَّ تلك القوانين والتشريعات الليبرالية لم تمنع كلّ انواع الاحتكار.

أمّا الرؤية الإسلامية ـ وبناء على ما تقدّم من بحث مسألة التسعير ومراجعة المتون المتعلقة بذلك سواء القرآن الكريم أو نهج البلاغة وأحاديث النبيّ وأهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين ـ فنجد أنَّ الإسلام احترم نظام السوق كأسلوب لتبيين المعيار المبدئي لتحديد السعر العادل، ولكن تفادياً لما قد ينتج عن نزوع البعض للاحتكار وضع المعايير التالية:

١) **فجوة الدخل**: أكّدت الرؤية الإسلامية على أهمية تضييق الفجوة بين الطبقات الغنية والطبقات الفقيرة، أيْ: بتعبير آخر يجب على الدولة أن تجعل الانحراف عن متوسّط الدخل القومي في حدّه الأدنى (منحني لرنز) [٣].

٢) **التنمية المستدامة والاهتمام بالبيئة**: هنا تبرز أهمية النظرة الشاملة للموارد الطبيعية والإنسانية وكيفية استثمارها خلال الأجيال المتعاقبة ودون الأضرار بالبيئة.

٣) **الاهتمام بالطبقات المحرومة**: هذا ما أكّد عليه أمير المؤمنين عليه السلام في عهد الأشتر، فهذه الطبقة تشكّل الأكثرية في كلّ مجتمع حتى من يدّعي التقدم.

بناء على ماتقدم فَإِنَّه لتحديد السعر العادل طريق يبتني على ثلاثة عوامل يمكن التعبير عنها بالشكل التالي: ولي الأمر، المنتج، المستهلك.

حيث يعبّر كلّ عامل عن إرادة وسلوك صاحبه؛ حيث يخضع إِلَى ضوابط ومعايير أداء يمكن بحثها كلّ على حدة. من هنا نجد أنَّ الآيات والأحاديث تناولت تلك العوامل الثلاثة كلًّا بحسب طبيعته ودوره في تحقيق العدالة المطلوبة.

بناء على ما تقدم فَإِنَّنا عندما نريد أنْ نبحث ونحلّل السعر العادل من وجهة نظر الإسلام فلا بد من تحليل ودراسة العوامل الثلاثة السابقة ضمن المعايير الثلاثة السابقة الذكر. من هنا يمكن لنا تفهّم العامل الغيبي في التحليل الاقتصادي عل الرّغم من أنَّ الاقتصاد يبحث في تخصيص الموارد المادية والمالية أيْ: ما هو بظاهره ماديّ، ولا ارتباط له بالغيب أو عالم المعنى؛ لأنّ سلوك المستهلك أو المنتج أو الدولة هو تعبير عن إرادة تحكمها قيم وتوقعات تحكم الأداء المادي للإنسان أو الدولة؛ لذلك نجد أنَّ التعاليم الإسلامية توجهت إِلَى

تقويم السلوك أكثر مما توجهت إِلَى التحليل الكمي، حيث يمكن أيضاً أنْ نصف هذا السلوك بشكلٍ رياضي ما دام أنّنا نفترض أنَّه سلوك عقلائي يريد تأمين المنفعة والربح في الدنيا والآخرة.

خلاصة:

مما تقدّم يتبيّن أنَّ التسعير مسألة جوهرية اهتمّ بها الإسلام، ووضع لها ضوابط ومعايير لكي يضمن تحقيق السعر العادل رغم أنَّ الإسلام لم يلغِ مفهوم (القيمة) للأشياء، بل اعتبر أنَّ ارتباط السلوك الإنساني بالآخرة يؤدي إِلَى اعتبار كلّ شيء له قيمة حتى ولو لم يشكّل قيمة تبادلية أو منفعة مادية له، وهنا يوجد الفرق الجوهري بين الرؤية الإسلامية والرؤية الليبرالية، فالإسلام لم يضحّ بالقيمة التبادلية للأشياء على حساب القيمة الاستعمالية لها كما فعلت الليبرالية. وعندما طرح الإسلام موضوع التقوى والإسراف والتبذير ورقابة الخالق عز وجل والآخرة لم تكن تلك مفاهيم للترف الفكري أو العملي، بل كانت هي معايير أداء، المطلوب منها أنْ تحدّد وتنظّم سلوك الوحدات الاقتصادية لكي لا يكون هناك خلل في المثلث (الدولة ـ المستهلك ـ المنتج)، وبالتالي لا يتحقّق الثمن والسعر العادل.

فالإسلام لاحظ التركيبة الثلاثية وخصوصيات كلّ منها، ووضع لها السياسات والمعايير السلوكية بما يتناسب والحفاظ على أدائها بما يخدم استمرارية (البيع السمح) وبموازين عدل.

* * *

الهوامش:

(١) preferences.

(٢) Ordinal.

(٣) هو منحنى يوضح التوزيع الشخصى للدخل القومى على مجموع السكان؛ إذ يقيس المحور الأفقي النسب المئوية للسكان، والمحور الرأسى النسب المئوية للدخل القومى، كما يدل الخط المائل بزاوية ٤٥ درجة على المساواة الكاملة فى توزيع الدخول كحالة افتراضية لا تمثل الواقع فى أي مجتمع. أمّا منحنى لورنز الذى يبدأ وينتهى ببداية ونهاية الخط المائل بزاوية ٤٥ درجة فيدلّ على مدى تفاوت الدخول الذى يمكن التعبير عنه بيانياً بالمساحة الواقعة بين هذا المنحنى وبين الخط المائل بزاوية ٤٥ درجة، وكلّما ضاقت هذه المساحة دلَّ ذلك على حسن توزيع الدخول الشخصية بين أفراد المجتمع ، ومن هنا يُستخدم منحنى لورنز فى التعبير البيانى عن تأثير الضرائب التصاعدية على تفاوت الدخول، وذلك بتحديد وضع المنحنى قبل أداء الضرائب ووضعه بعد أداء الضرائب عندما تقلّ المساحة الواقعة بين هذا الوضع الجديد للمنحنى والخط المائل بزاوية ٤٥ درجة، دالاً بذلك على تقليل التفاوت فى الدخول الشخصية لأفراد المجتمع من خلال أدوات السياسة الضريبية. وقضية عدالة التوزيع شغلت الاقتصاديين والسياسيين قديماً وحديثاً ولا تزال كذلك، لأهميتها على الأداء الاقتصادي والسلام الاجتماعي للدول . ومنحنى لورنز أداة تحليلية توفّر مؤشّراً يمكن من خلاله معرفة درجة تفاوت الدخل بين فئات المجتمع، ومدى الحاجة إلى استخدام الضرائب أو مدى نجاحها في تقريب هذا التفاوت.

مصطلحات فكرية عامة

(القسم الثاني)

❐ إعداد: المحرر الثقافي

تمهيد

نضع بين أيدي قرائنا الأعزاء القسم الثاني من المصطلحات الفكرية العامّة؛ نظراً لتلقّي القسم الأوّل لاستحسان القراء، على ما استشعرناه من بعضهم، على أنْ نكمل المصطلحات الأخرى المهمّة في الأعداد المقبلة إنشاء الله.

٩. الأرستقراطية (aristocracy):

الأرستقراطية (aristocracy) كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين (aristos)، وتعني: الفاضل أو الجيّد، و (kratos)، وتعني: القوة أو السلطة، وكانت الكلمة في مدلولها الأصلي تعني حكم أفضل المواطنين لفائدة جميع الشعب. فالأرستقراطية إذن «حكم الأفضلين» وبهذا المعنى استخدمها أفلاطون في «الجمهورية»، وأرسطو في «السياسة». وكان كلاهما يعتقد أنَّ الحكومة الأرستقراطية أفضل أنواع الحكومات وأكثرها عدلاً ولكنّهما أبديا ارتياباً في قدرتها على الديمومة.

يقول أفلاطون في الكتاب الثامن من الجمهورية: «إذا انحرفت الأرستقراطية وتحوّل أبناؤها إلى إيثار الثروة على الشرف، تحوّلت إلى الأوليغارشية (oligarchie)، أيْ: (حكم القلة) التي لبابها جَعْلُ الثروة أساس الجدارة وهو إثم فظيع».

ويعدّ أرسطو الأرستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة العادلة، إلا أنَّ الأوليغارشية فساد طبيعي لها.

فالأرستقراطية تسميةٌ لطبقةٍ اجتماعيةٍ تتمتع بالأصول النبيلة في المجتمعات الأوروبية، وينحصر فيها حكم البلاد. وهي ـ كما عرفت ـ كلمة يونانية الأصل وتعني (حكم الأفضل). وهذه الصفة كانت متوارثة إلَى أن هاجمتها الثورة الفرنسية، فصارت لفظة الأرستقراطية تشير إلى جميع العوائل الإقطاعية في إنجلترا وفرنسا وروسيا، وتشير إلى القوّة والسلطة، وصارت نمطاً من أنماط الحياة في العالم.

وهي تعني أنَّ الحكم يكون بواسطة خير المواطنين (الطبقة الذهبية) لصالح الدولة، أي: سُلطة خواص الناس.

وسياسياً تعني طبقة اجتماعية ذات منزلة عليا تتميّز بكونها موضع اعتبار المجتمع، وتتكون من الأعيان الذين وصلوا إلى مراتبهم ودورهم في المجتمع عن طريق الوراثة، واستقرّت هذه المراتب على أدوار الطبقات الاجتماعية الأخرى، وكانت طبقة الأرستقراطية تتمثّل في الأشراف الذين كانوا ضدّ الملكية في القرون الوسطى، وعندما ثبتت سلطة الملوك بإقامة الدولة الحديثة تقلّصت صلاحية هذه الطبقة السياسية واحتفظت بالامتيازات المنفعية، وتتعارض الأرستقراطية مع الديمقراطية.

ويملك عددّ كبيرّ من أبناء الطبقة الأرستقراطية ألقاباً موروثة كناية عن الشرف، مثل الدوق والبارون في إنجلترا، وبعض الألقاب التي خلّفها الحكم

العثماني كالباشا والبك في مصر.

وكان الملوك يعطون هذه الألقاب دائماً للأشخاص اعترافًا منهم بثروة الشخص أو خدمته للدولة في أغلب الحالات، وكان الناس يدخلون مصافّ الأرستقراطية بسبب امتلاكهم لمساحات كبيرة من الأرض.

ولعلّ هذه الفئة هي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وفي الأزمان القديمة، كانت الأرستقراطيات تسيطر على الحكومات في اليونان وروما. وكانت تحكم بريطانيا واليابان وروسيا وألمانيا. وبحلول الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م)، سيطرت الفكرة القائلة: **إنَّ الناس كلّهم متساوون في الكثير من الأمم من خلال الديمقراطية والاشتراكية**، ونتج عن ذلك تقلّص دور الأرستقراطية في الحكم بشكلٍ حاد.

١٠. الإمبريالية (Imperialism):

التعريف:

الإمبريالية: السياسة أو الأعمال التي تقوم بها دولة للسيطرة على دول أخرى أو على أراض أخرى. وتتمّ مثل هذه السيطرة في الغالب بطرقٍ عسكرية لأهداف سياسية واقتصادية.

وتُسمّى مثل هذه السياسة أيضاً بالسياسة التوسّعية. فالدولة التوسّعية التي تحتلّ بلداناً خارجية تتبنّى سياسة استعمارية.

والدولة الإمبريالية تهدف في المقام الأوّل إلى الحصول على أسواق لصادراتها، وكذلك على مصادر رخيصة للعمالة وللمواد الخام. فالإمبريالية المترامية الأطراف تُعطي شعوراً بالرضا بالمكانة الدولية لتلك الدولة، أو المكانة الإستراتيجية التي تطمح إليها.

ولقد كانت الإمبريالية سبباً رئيساً في العديد من الحروب والتوسعات الإقليمية وكذلك في التبادل الثقافي.

وعلى الرغم من أنَّ الممارسات الإبريالية كانت موجودة منذ آلاف السنين، فإنّ هذه المصطلح عموماً يشير إِلَى أنشطة دول مثل بريطانيا واليابان وألمانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، على سبيل المثال التزاحم على أفريقيا، وسياسة الباب المفتوح في الصين.

نبذة تاريخية:

كان من أوائل من بَنى إمبراطوريات في الشرق الأوسط منذ مدّة تتراوح بين (٢٠٠٠) وأكثر من (٤٠٠٠) سنة مضت: سرجون الأكادي، ثم تبعه المصريون والآشوريون والبابليون والفرس. ومع بداية العهد النصراني، كان الرومان قد بنوا إمبراطورية ضخمة امتدت من آسيا الصغرى إلى فرنسا وبريطانيا.

لكنّ الجزء الغربي من الإمبراطورية تَحطّم في القرن الخامس الميلادي، بينما استمرّ الجزء الشرقي من الإمبراطورية البيزنطية، حتى ١٤٥٣م، حيث سقطت بيزنطة في يد الأتراك العثمانيين، الذين بنوا بدورهم دولة قوية كانت تضم أجزاءً من الشرق الأوسط وجنوب شرقي أوروبا، وكذلك شمال إفريقيا. أمّا الجزء الغربي من الإمبراطورية فقد نفخت فيه الروح اسمياً فقط، بالإمبراطورية الرومانية المقدسة التي حَكمت معظم وسط أوروبا (٩٦٢ ـ ١٨٠٢م).

وكان المغول، وهم شعب آسيوي، قد بنوا أكبر إمبراطورية في التاريخ في القرن الثالث عشر الميلادي، وامتدت هذه الإمبراطورية من جنوب شرقي آسيا حتى شرقي أوروبا.

أما الدول الأوروبية الحديثة فقد احتلّت مستعمرات، بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، وكان من أهدافها أيضاً نشر النصرانية والبحث عن أسواق ومواد خام. وعلى سبيل المثال، ظهرت البرتغال آنذاك كإمبراطورية

تجوب بحريتها شواطئ المحيط الهندي وشواطئ جنوب شرقي آسيا.

كما أسَّست أسبانيا مستعمرات فيما يُعرف اليوم بأمريكا اللاتينية وجنوبي الولايات المتحدة. وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي، كان البريطانيون والفرنسيون والهولنديون قد استعمروا معظم أمريكا الشمالية.

كما سيطر الهولنديون على جزر الهند الشرقية (إندونيسيا)، أمّا البريطانيون فبدأوا احتلالهم للهند. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، كانت معظم المستعمرات في العالم الجديد قد نفضت الحكم الأجنبي عن أكتافها، إلا أنَّ بريطانيا وبعض القوى الأوروبية استمرت في المحافظة على إمبراطوريات غير رسمية، أيْ: دون وجود حكومة استعمارية وإنما بالتحكُّم في السياسات التجارية للمستعمرات الأسبانية السابقة، وعن طريق خلق علاقات تجارية جديدة مع عدد من بلدان آسيا وإفريقيا.

وتُسَمّى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عصر الإمبريالية. فخلال تلك الحقبة، كانت كلّ من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا قد اقتسمت معظم إفريقيا.

كما أنَّ الدول الأوروبية احتلت مناطق شاسعة من جنوب شرقي آسيا وجزر جنوب المحيط الهادي. أمّا أسبانيا فقد تخلّت عن حكم كلّ من غوام وبورتوريكو والفلبين لصالح الولايات المتحدة بعد خسارتها الحرب الأسبانية الأمريكية عام ١٨٩٨م.

وكان التنافس حاداً بين الدول الأوروبية من أجل المستعمرات والتجارة الخارجية، وأثّر ذلك في توتر العلاقات الدولية. وقاد هذا التوتر إلى الحرب العالمية الأولى التي بدأت عام ١٩١٤م، وكان سبباً من أسباب نشوبها.

وخلال ثلاثينيات القرن العشرين، حين كان أدولف هتلر يحكم ألمانيا، بدأت ألمانيا برنامجاً من أجل التوسّع في أوروبا، وحصلت على أراضٍ عن طريق

المفاوضات وعن طريق الاحتلال العسكري.

وفي آسيا، كانت اليابان قد ضمّت مَنشوريا إليها، وبدأت في حرب ضد الصين. وخلال فترة وجيزة من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥م)، كان لليابان إمبراطورية ضخمة في المحيط الهادئ، كما كانت ألمانيا تحتلّ معظم أوروبا وشمالي إفريقيا. ومع خسارة ألمانيا واليابان الحرب عام ١٩٤٥م، فإنهما خسرتا أيضاً مستعمراتهما الخارجية.

وانتهت في الخمسينيات وبداية الستينيات من القرن العشرين حركة الاستعمار الضخمة. فقد كانت معظم الدول الأوروبية تُعاني من آثار الحرب العالمية الثانية، ولم يكن لديها المال أو التَطلّع لحكم مستعمرات تبعد عنها آلاف الكيلو مترات.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت شعوب تلك المستعمرات تطالب وتلحّ في الحصول على استقلالها. واليوم لا يوجد سوى بعض المستعمرات المتفرّقة على شكل جزر في البحر الكاريبي والمحيط الهادئ. ولكن الولايات المتحدة وبعض الدول الكبرى تعطي مساعدات اقتصادية وعسكرية لمستعمراتها السابقة.

ويقول بعض الناقدين إِنَّ هذه المساعدات ليست إلا ضرباً من ضروب الإمبريالية؛ لأنّها تقود إلى التحكّم في سياسات واقتصاد تلك البلدان.

الإمبريالية الأمريكية:

لا شكّ أنَّ الولايات المتحدة تمثّل اليوم الإمبريالية العظمى في التاريخ الحديث، فماذا تعني الإمبريالية الأمريكية؟

هي مصطلحٌ يستخدم للإشارة إِلَى سياسة حكومة الولايات المتحدة في ممارسة الهيمنة على دول أخرى من خلال القوّة العسكرية والاقتصادية والسياسية.

بدأ تكوين ما يسمى اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية عبر حرب ضد

الهنود الحمر، تم من خلالها تدمير المنازل والتهجير الجماعي وحرق المحاصيل، بل وصل الأمر إلى قتل ما يقرب من ١٨ مليون شخص من الهنود. وما أن تمّ تشييد المجتمع الأمريكي الحديث حتى ظهرت الميول الاستعمارية وتمّ البدء بدول الجوار في الأمريكتين.

ففي عام ١٨٣٣م تم غزو نيكارجوا، وتبعها غزو بيرو عام ١٨٣٥م؛ لفرض آراء سياسية بالقوة على تلك البلاد.

وفي عام ١٨٤٦م تمّ شن عملية عسكرية كبرى على المكسيك انتهت باحتلال مساحات من الأراضي المكسيكية فيم يطلق عليه اليوم ولايات تكساس وكاليفورنيا ونيو مكسيكو الأمريكية.

وفي عام ١٨٥٥م شنّت عمليتين عسكريتين الأولى استهدفت غزو أراجواي والثانية السيطرة على قناة بنما.

وعلى مدار الربع قرن الأخير من القرن الـ ١٩ تم غزو كولومبيا عدة مرات، تلاها هايتي عام ١٨٨٨م، ثم شيلي ١٨٩١م، ومرة أخرى إعادة اجتياح نيكارجوا عام ١٨٩٤م، ثم اختتم القرن بغزو كوبا على مدار ثلاث سنوات انتهت باستيلاء أمريكا عام ١٩٠١م على أراضي جزيرة جوانتانامو التي تضم الآن أشهر معسكر اعتقال في العالم يضم العديد من الأسرى من معظم دول العالم.

بدأ القرن العشرين بإحكام السيطرة على جزيرة جوانتانامو، تلاها مباشرة في نفس العام العديد من العمليات العسكرية في كولومبيا، وفي العام التالي كانت عملية أخرى في هندوراس.

وفي العام ١٩١٤م قامت قوات المارينز بغزو هايتي والاستيلاء على البنك المركزي لتحصيل ديون هايتي لأمريكا بالقوة، وفي العام التالي تمّ احتلال هايتي لمدة ١٩ عاماً.

وفي الحرب العالمية الأولى دخلت أمريكا حليفاً لبريطانيا وفرنسا في حرب إعادة اقتسام المستعمرات في العالم. في نفس الوقت قامت بشن حملة عسكرية في عام ١٩١٦م على جمهورية الدومينكان لفرض سيطرتها وتعيين حكومة عسكرية استمرت ثمان سنوات، بدلاً من الحكومة الثورية التي قامت بإسقاطها. وفي عام ١٩٣٢م شنت القوات الأمريكية عمليات عسكرية بهدف غزو السلفادور.

اشتركت أمريكا في الحرب العالمية الثانية التي أنهتها بإلقاء قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكي لتقتل ما يقرب من ٢٠٠ ألف نسمة وتصيب وتشوه مئات الآلاف من المدنيين.

وفي عام ١٩٥٤م أطاحت أمريكا بحكومة جواتيمالا. وفي عام ١٩٦١م فشلت أمريكا في عميلة إنزال لقواتها بكوبا فيما عرف بعملية غزو خليج الخنازير.

وفي عام ١٩٦٧م دعمت المخابرات الأمريكية الحكومة العسكرية في بوليفيا لمحاربة الثوار بزعامة جيفارا.

وفي نهاية الستينات وإلى بداية السبعينيات حاولت أمريكا غزو فيتنام وبالرغم من هزيمتها إلا أنّها خلفت وراءها ما قد يصل إلى ثلاثة مليون قتيل من الشعب الفيتنامي.

وفي عام ١٩٧٣م ساهمت أمريكا في إنهاء حكم (سلفادور إيندي) في شيلي ونجاح اليمين في إقامة حكومة ديكتاتورية عسكرية.

في عام ١٩٨٢م دخلت أمريكا بقوات في لبنان لمطاردة عناصر المقاومة الفلسطينية ولدعم إسرائيل في غزوها للبنان تحت ستار قوات حفظ السلام الدولية، واضطرت للانسحاب في عام ١٩٨٣م بعد قتل ٢٤١ جندي من المارينز في عملية واحدة.

في عام ١٩٨٦م غارت الطائرات الأمريكية على الأراضي الليبية بحجة تورط ليبيا في عمل إرهابي ضد أمريكا، أسفرت الغارات عن قتل وإصابة العشرات.

وفي عام ١٩٨٩م تم اجتياح بنما لعزل الديكتاتور (نورييجا) الذي كانت قد نصبته للحكم من قبل، وأسفر الغزو عن قتل عشرة آلاف بنمي والسيطرة على قناة بنما الهدف الوحيد من الغزو.

وفي عام ١٩٩٢م حصلت أمريكا على تفويض من الأمم المتحدة بقيادة تحالف لاحتلال الصومال، قتل فيها عشرة آلاف صومالي، بحجة إعادة الاستقرار إليه بعد حرب أهلية طاحنة.

وفي عام ١٩٩١م دخلت أمريكا على رأس تحالف دولي في حرب مع الجيش العراقي فيما سمي بعملية تحرير الكويت، أسفرت عن إلقاء ٨٨٠ ألف طن من القنابل؛ ليتم قتل ما يقرب من ٢٠٠ ألف عراقي وإصابة ما يزيد على نصف مليون آخرين علاوة على عشرات الآلاف الذين أصيبوا بالسرطان على أثر ضرب الأراضي العراقية بقنابل اليورانيوم المخصب.

دوافع الإمبريالية:

هناك عدد من النظريات تحاول أن تتبيّن الدوافع والأسباب خلف الظاهرة الإمبريالية. وأهمّ تلك النظريات المعروفة هي نظرية العوائد الاقتصادية التي تقف كدافع خلف الاستحواذ على مستعمرات خارجية. فالدول الصناعية تنتج سلعاً صناعية أكثر مما تحتاج، أو ما يستطيع شعبها شراءه. لذا فإنّ المستعمرات تصبح سوقاً للسلع البائرة، كما يمكن أن تقدّم أراضي رخيصة ومواد خام نادرة، وكذلك فرصاً لاستثمار فائض رأس المال. ولكن هذه النظرية لا تشرح بشكل كامل الظاهرة الاستعمارية؛ لأنّ العديد من المستعمرات لم تكن مجزية اقتصادياً.

أمّا الاستراتيجية العسكرية فتمثل بُعداً مهماً للأنشطة الاستعمارية. فمنذ قديم الزمان، كانت الدول تضم الأراضي القريبة من حدودها لتحمي نفسها من الهجوم الخارجي، وتُمثّل هذه الأراضي مناطق عازلة. وفي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، كانت القوى الأوروبية تُقيم المستوطنات في جميع أنحاء العالم لخدمة سفنها الحربية والتجارية، ولتقديم المؤن إليها.

كما أنَّ الإمبريالية تأخذ دوافعها من تعاظم الشعور الوطني أو الديني، أو من الشعور بالتعالي الثقافي والعرقي. وفي نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، كانت القومية قد هيمنت على معظم البلدان الأوروبية. وشعر أناس كثيرون بأنّ عظمة أمتهم تعتمد على مساحة وطنها؛ لذا فإنّهم شجعوا التوسع ورفع أعلام دولهم على أراضٍ أجنبية.

كما أنَّ بعض الأوروبيين اعتقدوا ـ باطلاً ـ بأنّ شعوب آسيا وإفريقيا ينحدرون من أعراق وضيعة. وقد أثَّر تأخُّر التقدم الصناعي في تلك البلدان على تأكيد هذه النظرة العنصرية. وكان هناك العديد من التوسُّعيين الذين كانوا يشعرون بأنّهم قد ابتُعثوا إلى هذه الأراضي الجديدة لنشر النصرانية ومحاسن الثقافة الأوروبية.

الآثار:

هناك بعض الفوائد التي تعطيها الدولة الحاكمة للمستوطنات الداخلة في إمبراطوريتها. فقد بَنى المستعمرون على سبيل المثال، طرق اتصالات ومواصلات جديدة، كما بنوا جامعات وأدخلوا الخدمات الصحية الحديثة. ومع ذلك فإنّ هناك العديد من الدول الاستعمارية التي استغلت الموارد الطبيعية لتلك المستوطنات، دون تقديم عائد اقتصادي لمعظم تلك الشعوب على نحو ما فعلت بريطانيا في مصر وغيرها من البلدان، وفرنسا في الجزائر بخاصة، وأسبانيا في بلدان أمريكا اللاتينية وغيرها. كما أنَّ إدارات الحكم

الاستعماري لم تحترم كثيراً من العادات والثقافات والقيم المحلية، بل سعت إلى إزالة أنماط الحياة التقليدية في تلك البلدان. وتمثل هذا الجانب فرنسا التي كانت تجيد الاستعمار الثقافي، فتسعى بكلّ سبيل إلى القضاء على ثقافة مستعمراتها، وتقيم على أنقاضها ثقافة فرنسية كاملة، وقد نجحت في ذلك إلى مدى ملحوظ في البلدان التي كانت تحت نير استعمارها.

منهج الإمبريالية اليوم:

خلال المرحلة السابقة للثورة البلشفية عام ١٩١٧م كان الإمبريالية تعني نظاماً أوربياً أمريكياً للسيطرة الاستعمارية على أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية؛ إذ تعاونت الدول الاستعمارية والرأسمالية الأوربية الأمريكية واليابانية لاجتياح الأراضي والشعوب. وقبلت البلدان المسيطرة نعتها بالقوى الإمبريالية علامة على هيبتها كقوة عظمى. وبعد الثورات وظهور حركات التحرّر الوطني واختفاء القوى الإمبريالية الفاشية فقدت تسمية الإمبريالية هيبتها، وظلّت مرتبطة بالنهب والسيطرة.

ومراعاة للحساسيات الديمقراطية بالغرب ولتمرد العالم الثالث اتخذت الممارسة الإمبريالية لنفسها قناعاً وظهرت لغة جديدة: من قبيل: (أنظمة ما بعد الاستعمار)، (البلدان السائرة في طريق النمو)، (البلدان المتطورة).

لقد استمرّ واقع الإمبريالية، لكنّه أصبح مطموساً أكثر. يقلد الاستعمال الحالي للتدخلات العسكرية الإمبريالية نظيره في الماضي. وخلال المرحلة الاستعمارية كان الاحتلال الأوربي الأمريكي ونهب القارات مبرراً باسم الحضارة الغربية. أمّا الآن فإنّه يتمّ ربط الحروب العدوانية والاحتلال العسكري بمهمات إنسانية.

في الماضي كانت الأسطورة الإمبريالية هي اكتشاف (بلاد جديدة)، أمّا الآن فإنّها أسطورة (الاجتياح باستدعاء من المجتاح).

في الماضي كان المغامرون والموظفون التجاريون يرشون ويستقطبون زعماء محليين وقادة قبليين ليخونوا شعوبهم ويتعاونوا مع الإمبراطورية. أمّا اليوم فإنّ مصالح الاستخبارات (الجواسيس) تشارك في عمليات سرية بهدف تدريب جيوش من المرتزقة، وخلق حكومات في المنفى، وإعداد بيانات تؤكد حقها في تقرير المصير.

إنّ ما يعتبره مفكرو الإمبريالية حقاً شرعياً في تقرير المصير القومي هو تقسيم الأمم وخلق أنظمة زبونة صغيرة تابعة للإمبراطورية.

في الماضي شارك رجال الدين والسلطات الاستعمارية في الشحن العقائدي للشعوب المغلوبة على أمرها. أمّا اليوم فإنّ وسائل الاتصال الجماهيري ونظام التعليم العالي والمنظمات غير الحكومية التي تمولها الإمبراطورية ودعاية الفاتيكان كلّها تؤسّس النموذج الأيديولوجي الذي يصف الخضوع بما هو: (تحديث)، والاستعمار الجديد بما هو (عولمة)، والمضاربة المالية بما هي عصر الإعلاميات.

حالياً على عكس الماضي، تتغلغل السلطة الإمبريالية في كافة المناطق الجغرافية، وكلّ مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية. لا تسيطر الشركات متعددة الجنسية والبنوك على أسواق البضائع والأسواق المالية وأهم شبكات التجارة المحلية والعالمية فحسب؛ بل أيضاً على الصناعة الجينية (الوراثية) للأغذية، وإنتاج المنتجات الثقافية وتسويقها جماهيرياً. والقوى العسكرية للدول يقودها جنرالات هيئة الأركان العامة الأوربية الأمريكية. وعلامة النجاح الثقافي والتعليمي يجب أن يرخص لها ويعترف بها ويمولها الزعماء الثقافيون للمراكز الثقافية الإمبريالية الأوربية الأمريكية. إنّ الإمبريالية ظاهرة متعددة الأشكال[1].

١١. الديماغوجية (Demagogue):

كلمة يونانية مشتقة من كلمة (ديموس)، وتعني الشعب، و(غوجية) وتعني العمل، أمّا معناها السياسي فيعني مجموعة الأساليب التي يتبعها السياسيون لخداع الشعب وإغرائه ظاهرياً للوصول للسلطة وخدمة مصالحهم.

بمعنى آخر: الديماغوجية هي استراتيجية لإقناع الآخرين بالاستناد على مخاوفهم وأفكارهم المسبقة. ويشير إلى استراتيجية سياسية للحصول على السلطة والكسب للقوة السياسية من خلال مناشدة التحيزات الشعبية، معتمدين على مخاوف وتوقعات الجمهور المسبقة، عادة عن طريق الخطابات والدعاية الحماسية، مستخدمين المواضيع القومية والشعبية.

أمّا اليوم فهي تدل على مجموعة الأساليب والخطابات والمناورات والحيل السياسية التي يلجأ إليها السياسيون لأغراء الشعب أو الجماهير بوعود كاذبة أو خدّاعة؛ وذلك ظاهرياً من أجل مصلحة الشعب، وعملياً من أجل الوصول إلى الحكم.

وقد اعتاد الكثير من السياسيين اللجوء لاستخدام أساليب السفسطة واللعب على مشاعر ومخاوف الشعوب، ويعتبر بعض السياسيين أفضل من غيرهم وربما يكونون محترفين في ذلك. وعليه فهي خداع الجماهير وتضليلها بالشعارات والوعود الكاذبة.

والديماغوجية هي أحد الأساليب الأساسية في سياسة الأحزاب البرجوازية. وهي موقف شخص أو جماعة يقوم على إطراء وتملّق الطموحات والعواطف الشعبية بهدف الحصول على تأييد الرأي العام استناداً على مصداقيته.

والديماغوجي هو الشخص الذي يسعى لاجتذاب الناس إلى جانبه عن طريق الوعود الكاذبة والتملق وتشويه الحقائق، ويؤكّد كلامه مستنداً إلى شتى

فنون الكلام وضروبه وكذلك الأحداث، ولكنّه لا يلجأ إلى البرهان أو المنطق البرهاني؛ لأنّ من حقّ البرهان أن يبعث على التفكير وأن يوقظ الحذر، والكلام الديماغوجي مبسّط ومتزندق، يعتمد على جهل سامعيه وسذاجتهم. وتطلق أحياناً على المتمدنين، أيْ: سكان الأرياف الذين سكنوا المدن.

١١. البراغماتية (Pragmatism):

يترجم مصطلح البراغماتية إلى العربية بمصطلح الذرائعية، ولكن هذه الترجمة غير دقيقة؛ لأنّها لاتعكس جوهر الكلمة الأجنبية، بل تقدّم جزءاً من معناها فقط. أمّا المصطلح العربي الأقرب إليها فهو (النفعية).

تُعرف البراغماتية بأنّها طريقة حلّ المشكلات والقضايا بواسطة وسائل عملية. وهذا التعريف وسيلة براغماتية بحدّ ذاته؛ لأنّه محاولة لإخفاء جوهرها، القائم على قياس كلّ عمل أو شيء أو حالة، بما تحققه من فائدة أو ضرر، فالشيء جيد وصالح إذا كان نافعاً، وهو سيىء إذا كان ضاراً. والسؤال هنا هو من يقرّر الفائدة والضرر؟! إنَّه الشخص المعني معتمداً على معاييره الخاصة كأداة لتقييم الأعمال والأشياء، ومن ثمّ يفقد الشيء خصائصه الموضوعية.

مثلاً الحقّ يصبح نسبياً، حسب الشخص المتعامل معه، وليس حالة تحدّدها عوامل موضوعية، ويصبح عرضة لثقافة ومزاج ومصالح ونوعية قيم الشخص ذاته!

أصل البراغماتية

يمكن رصد المعاني المختلفة السائدة للبراغماتية في المجالين الاجتماعي والسياسي، ففي الغرب بشكل عام، يضعون البراغماتي مقابل الإيديولوجي، وكنقيض له، فحينما تقول: «هذا الإنسان إيديولوجي»، فإنّك تقصد أنّه يتقيد بمنظومة أفكار وأهداف ثابتة تحدّد مواقفه العامة سلفاً، كالوطنية والقومية

والدين.

مقابل هذا النمط يقال: «هذا الرجل براغماتي»، ويقصد بذلك أنّه متحرّر من كل إيديولوجيا، أو موقف مسبق، ويتصرف وفق اللحظة أو الظرف، مستهدياً بما ينفعه ويضره هو شخصياً.

لذلك فالبراغماتية ـ أساساً ـ هي منطلق فردي، وتجمع هذه المنطلقات عددياً، أيْ: دون أن تصبح ذات مصدر جمعي واحد؛ لتعبّر عن (مصالح مشتركة) بين أفراد توجد بينهم اختلافات وتناقضات جوهرية وثانوية كثيرة.

وازدهار هذه الفلسفة في أمريكا يفسّر ـ وبوضوح ـ جوهرها، فأمريكا ليست دولة ذات هوية قومية، كفرنسا وإيطاليا مثلاً، بل هي ملاذ تجمعات مهاجرين، تركوا بلدانهم الأصلية من أجل الرزق، أو تمّ نفيهم إليها من السجون التي اكتظت بالمجرمين، أو من الهاربين من الاضطهاد الديني؛ لذلك كان طبيعياً أن تختلف، بل وتتناقض، ثقافاتهم ودوافعهم، وهنا برزت أهمية وجود فلسفة تلبّي رغباتهم المختلفة، فازدهرت البراغماتية؛ لأنّها تخاطب، وتستجيب، للمصلحة الفردية وتمنحها غطاء المشروعية الذاتية.

يستخدم هذا المصطلح في السياسة، فيقال: فلان براغماتي، والحركة الفلانية حركة براغماتية، وفي أغلب الأحوال يقصد بها النفعية أو العملية.

فما هي البراغماتية؟!

الأصل اللغوي للمصطلح يرجع إلى الكلمة اليونانية(rogma)، وتعني (عمل) أو (مسألة علمية)، ولقد استعار الرومان المصطلح واستخدموا عبارة (rogmaticus) فقصدوا بها (المتمرّس)، وخاصة المتمرس في المسائل القانونية.

أمّا من ناحية تاريخ الفكر، فالمصطلح يشير إلى تلك الحركة الفلسفية التي ظهرت في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وارتبطت

بأسماء الفلاسفة الأمريكيين بيرس ووليام جيمس وجون ديوي، والتي تتمركز فلسفتها حول مقولة مؤدّاها.

لا يمكن التوصل إلى معاني الأفكار، ومن ثمّ لا يجب تفسيرها، إلا بالنظر إلى النتائج المترتبة عليها، كما أنّه لا يمكن تحديد المعتقدات أو تبرير التمسُّك بها إلا بالأخذ في الاعتبار النتائج العملية المترتبة على الإيمان بهذه المعتقدات.

فالحقيقة إذن ثانوية إذا ما قورنت بالممارسة العملية، ذلك أنَّ الحقيقة وفقاً للنظرية البراغماتية ما هي إلا الحلّ العملي والممكن لمشكلة ما، كما أنَّ المبرّر الوحيد للإيمان بأيّ شيء هو أنَّ التمسّك به والعمل وفقاً له يجعل الفرد في وضع أفضل ممّا لو كان إذا لم يتمسّك به.

أمّا بصورةٍ أوسع، فالمصطلح يستخدم للإشارة إلى أيّ مدخل يركّز بالأساس على ما يمكن عمله في الواقع لا على ما يجب عمله بالنظر إلى عالم المثاليات.

فالبراغماتية بدلاً من أن تركّز على مقدّمات الأفكار فإنّها تركّز على النتائج المترتبة على تلك الأفكار، فهي تُوجّه نحو الاهتمام بالأشياء النهائية وبالنتائج، ومن ثمّ هي لا تعني بالسؤال عن ماهية الشيء أو أصله بل عن نتائجه، فتوجّه الفكر نحو الحركة ونحو المستقبل.

ويرى البعض أنَّ البراغماتية تجد جذورها في أفكار ومذاهب متعدّدة، مثل فكرة العقل العملي لكانط، وفي تمجيد شوبنهور للإرادة، وفي فكرة داروين أنَّ البقاء للأصلح، وفي النظرية النفعية التي تقيس الخير بالنظر إلى مدى نفعيته.

ولعلّ هذا التنوع في الأصول الفكرية لمذهب البراغماتية هو الذي جعل وضع تعريف شامل جامع لمفهوم البراغماتية مهمّة صعبة للغاية، وليس أدلّ على ذلك من أنَّ (آرثر لوفجوي) قد نجح في عام (١٩٠٨) في تجميع ثلاثة عشر معنى مختلفاً للبراغماتية، بل ودلّل على أنَّ بعضها يضاد البعض الآخر.

وهذا التعدد في التعريفات وكذلك تنوعها يرجع إلى أنَّ البراغماتية ـ كفلسفة ـ وجدت أنصاراً وتطبيقات لها في ميادين متنوعة للمعرفة منها العلوم الطبيعية والقانون والأدب والاجتماع والسياسة، وكلّ ميدان يطبقّها ويفسّرها من منطلق خبراته الخاصة، ولقد اعترف (يابيني) في كتاب قدّم به المذهب إلى الفلاسفة الإيطاليين بأنّ البراغماتية لا يمكن تعريفها، وأنّ أيّ فرد يحاول حصرها في عبارات قليلة بغرض تعريفها يكون مرتكباً لأفظع الأشياء غير البراغماتية.

ولكن إذا كان هذا التنوّع يؤدّي إلى صعوبة وضع تعريف شامل جامع لمذهب البراغماتية إلا أنّه لا يعني انعدام وجود مجموعة متجانسة ومتماسكة من الأفكار التي يتميّز بها المذهب.

فبمراجعة المشكلات التي حاول المفكّرون المنتمون لهذا المذهب مواجهتها وبالرجوع إلى الأفكار الأساسية التي رفضوها نستطيع أنْ نحدّد المفاهيم الأساسية والمشتركة التي تتميّز بها البراغماتية على تنوّع تطبيقاتها، وأهمّ هذه المفاهيم هو الاعتراض على الفصل المطلق بين الفكر من جانب والحركة من جانب آخر، وبين العلم البحت والعلم التطبيقي، وبين الحدس والتجربة.

وكذلك عدم الإيمان بوجود أشياء خارقة للطبيعة تتحكّم في مقدرات العالم، وكذا رفض المعايير المطلقة والأزلية للمعتقدات والقيم، وإحلال معايير أكبر مرونة وأكثر محدودية ـ باعتقادهم ـ محلّها.

١٢. الراديكالية (Radicalism):

الراديكالية مصطلح قديم منذ العصور الوسطى، وهي تعريب للكلمة الإنجليزية (Radicalism)، وأصلها كلمة (Radical)، وتقابلها باللغة العربية حسب المعنى الحرفي للكلمة (أصل) أو (جذر)، ويقصد بها عموماً ما

يماثل كلمة (أصولية)، العودة إلى الأصول والجذور والتمسّك بها والتصرف أو التكلّم وفقها، ويصفها قاموس لاروس الكبير بأنّها «**كل مذهب محافظ متصلب في موضوع المعتقد السياسي**».

ويمكن القول أيضا بأنّ الراديكالية هي نهج أو سياسة تسعى لإدخال إصلاحات جذرية على النظام الإجتماعي القائم، والأحزاب الراديكالية في بعض الدول اليوم يمثّلها عادة الأجنحة السياسية اليسارية المتطرفة، أو الأحزاب ذات النظرة الدينية المتطرفة، سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو هندوسية أو غيرها.

من معاني الراديكالية كذلك التطرف، أيْ: النزعة إلى إحداث تغيّرات متطرّفة في الفكر والعادات السائدة والأحوال والمؤسّسات القائمة.

وقد ظهرت في بداية الأمر للإشارة إلى تصلّب رجال الكنيسة الغربية في مواجهة التحرّر السياسي والفكري والعلمي في أوروبا، وللدلالة على تصلُّب رجال الكنيسة و (راديكاليتهم)، أيْ: تعصبهم وتصلبهم وإصرارهم على الأصول القديمة دون تجديد.

ولكنّها أصبحت تشير فيما بعد إلى العكس وإلى التغيير، ليس بمعنى (العودة للجذور) فقط، ولكن (التغيير عموماً بشكل جذري)؛ حيث أصبحت تنسب إلى جذور الشيء، ويقال إن (الجذريون) أو (الراديكاليون) هم الذين يريدون تغيير النظام الاجتماعي والسياسي من جذوره؛ ولهذا فسّرها البعض على أنّها تعبّر عن الإصلاح الأساسي ـ حسب نظرة هؤلاء ـ من الأعماق أو الجذور.

لكنّ الغرب صبغ مصطلح (الراديكالية) بمعنى آخر هو التطرّف، وأضاف إليه معنى العنف والإرهاب، وألصقه بالإسلام والمسلمين في العصر الحديث؛ ولهذا قال المستشرق البريطاني (هومي بابا) أستاذ الأدب في إحدى الجامعات البريطانية: «**إنَّ الراديكالية كلمة ذات دلالات سلبية تلصق بالعالم الإسلامي،**

مع أنَّ الظاهرة عالمية، ولا تقتصر على ما كان يسمّى دول العالم الثالث مثل الهند و مصر، بل وجدت طريقها إلى العالم الأوّل حيث الراديكالية الإنجيلية على أشدّها في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً».

ويقول المؤرخون إنَّ الصحفيين العرب تداولوا بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م، ومن بعدهم الباحثون والمحللون الناطقون بالعربية، مصطلح (الأصولية) على نطاق واسع؛ وذلك ترجمة لمصطلحين غربيين استعملتهما الأوساط السياسية والإعلامية والثقافية في الغرب للإشارة إلى حالة اليقظة الإسلامية الراهنة في مختلف أرجاء العالم الإسلامي والمصطلحان هما: (Radicalism)، و (Intergrisme)، في حين أنَّ هذين المصطلحين بما يحملان من دلالات سياسية وفكرية لا يعبّران تعبيراً دقيقاً عمّا توحي به لفظة (الأصولية) الرائجة حالياً، وخاصّة ما يتضمنه المصطلح الثاني من معاني الرجعية المعادية لكلّ تقدّم، وهكذا يصبح النعت بالأصولية بمثابة شتيمة سياسية.

وقد أصبحت الكلمة مرادفة للحياة السياسية عموماً، بحيث أصبحت هناك (أحزاب راديكالية) و (سياسة راديكالية)، و (توجّه راديكالي)، و (زعيم راديكالي).. ومع انحصار استخدام الكلمة في العالم الغربي تدريجياً بدأت الصحف الغربية ومراكز الدراسات تتحدّث عن العالم العربي والإسلامي بهذا المصطلح، مثل وصف الثورة الإيرانية بأنّها راديكالية، والفكر الثوري بأنّه راديكالي.

١٣. الأنثروبولوجيا (Anthroplogy):

علم الإنسان أو الإناسة الأنثروبولوجيا، هو دراسة البشر، في كلّ مكان وطوال الوقت، أيْ: هو علم يبحث في أصل الأجناس والأعراف البشرية، وفي

تطوّر العادات والمعتقدات منذ أقدم العصور حتى الآن.

علم الإناسة له جذوره الفكرية في كلٍّ من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. وتتعلّق أسئلته الأساسية:

ـ ما الذي يميّز الإنسان؟

ـ من هم أسلاف الإنسان الحديث؟

ـ ما هي صفاتنا الجسدية؟

ـ كيف نتصرف؟

ـ لماذا هناك تباينات وخلافات بين المجموعات المختلفة من البشر؟

ـ كيف أثّر الماضي التطوّري للإنسان في التنظيم الاجتماعي والثقافة؟

وهكذا دواليك...

يشير مصطلح الإناسة (الأنثروبولوجيا) في أسلوب التعبير العام في معظم الأحيان إلى الأنثروبولوجيا الثقافية، وهي دراسة الثقافة والمعتقدات والممارسات البشرية. في الجامعات الأميركية، يتضمّن غالباً قسم الأنثروبولوجيا ثلاثة أو أربعة حقول فرعية، منها: الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الآثار، علم الإنسان البيولوجي والأنثروبولوجيا اللغوية. ومع ذلك، في جامعات في المملكة المتحدة، وجزء كبير من أوروبا، كثيراً ما تكون هذه الحقول الموجودة في أقسام منفصلة.

لمحة موجزة عن المجال:

تمّ تقسيم الأنثروبولوجيا إلى أربعة حقول، ولكلٍّ منها فروع أخرى خاصة: الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية، الأنثروبولوجيا الثقافية، علم الآثار واللغويات الأنثروبولوجية.

الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية:

تتضمّن الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية دراسة تطوّر الإنسان،

بيولوجيا تطوّر الإنسان، علم الوراثة السكانية، وعلم تصنيف شبيه الإنسان القديم، وعلم الإحاثة البشرية، وتوزيع أليلات الإنسان، وأنواع الدم ومشروع الجينوم البشري. علم دراسة رئيسيات أقرب الأقارب غير البشريين (البشر من الرئيسيات)، ويستخدم بعض علماء الرئيسيات أساليب المراقبة الميدانية، ويكتبون بطريقة مماثلة تماماً لعلم الإنسان التطبيقي.

تستخدم الأنثروبولوجيا البيولوجية في مجالات أخرى لإلقاء الضوء على كيفية وصول شعب معيّن إلى ما هو عليه، ما تكرار تزاوجهم من الخارج، وفهم عمليات المخ التي تشارك في إنتاج اللغة. وتشمل الميادين الأخرى ذات الصلة أو المجالات الفرعية: علم المتحجرات البشرية، علم قياسات الجسم البشري، والأنثروبولوجيا التغذوية، وأنثروبولوجيا الطب الشرعي.

الأنثروبولوجيا الثقافية:

غالباً ما تعتمد الأنثروبولوجيا الثقافية على الأثنوغرافيا، وهو نوع من الكتابة المستخدمة في الأنثروبولوجيا لعرض بيانات عن شعب معين أو مجموعة، وغالباً ما يستند إلى أبحاث الملاحظة المشاركة. وتنطوي الأثنولوجيا على مقارنة منهجية لمختلف الثقافات. وتسمى الأنثروبولوجيا الثقافية أيضاً بالأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وخصوصاً في بريطانيا وفي بعض البلدان الأوروبية. والأنثروبولوجيا الثقافية معروفه باسم إثنولوجيا، وهو المصطلح الذي أصاغه (آدم إف. كولار) في ١٧٨٣م.

دراسة القرابة والتنظيم الاجتماعي هو البؤرة المركزية في الأنثروبولوجيا الثقافية، كما أنَّ القرابة هي جزء من الثقافة العالمية. وتغطّي أيضاً الأنثروبولوجيا الثقافية: التنظيم الاقتصادي والسياسي، والقانون وتسوية الصراعات، وأنماط الاستهلاك والتبادل، الثقافة المادية والتكنولوجيا، والبنية الأساسية، والعلاقات بين الجنسين والأعراق، وتربية الأطفال والتنشئة الاجتماعية والدين

والأسطورة والرموز والنظرة للعالم، والرياضة، والموسيقى، والتغذية، والترفيه، والألعاب، والغذاء، والمهرجانات، واللغة، التي هي أيضاً موضع دراسة في علم اللسانيات. ولاحظ الطريقة التي تتداخل بها بعض من هذه المواضيع مع مواضيع في حقول فرعية أخرى.

علم الآثار:

هو دراسة الثقافة الإنسانية المادية، بما في ذلك كلّ من التحف (أقدم قطع من ثقافة الإنسان)، وقطع من المتاحف والقمامة الحديثة. يعمل علماء الآثار بقرب علماء الأنثروبولوجيا البيولوجية، ومؤرخي الفن، والمختبرات الفيزيائية، والمتاحف. وهم مهتمون بالحفاظ على نتائج حفرياتهم، التي غالباً ما توجد في المتاحف. وعادة، يرتبط علماء الآثار (بالحفريات)، أو الحفر في طبقات في المواقع القديمة.

اللسانيات:

اللسانيات هي دراسة اللغة، وتسعى الأنثروبولوجيا اللغوية ـ وتسمّى أيضاً اللسانيات الأنثروبولوجية ـ إلى فهم عمليات الاتصالات البشرية، اللفظية وغير اللفظية، والتنوع في اللغة عبر الزمان والمكان، والاستخدام الاجتماعي للغة، والعلاقة بين اللغة والثقافة. هو فرع من فروع علم الإنسان يجمع بين الأساليب اللغوية مع المشاكل الأنثروبولوجية، ويربط تحليل الأشكال اللغوية والعمليات بتفسير العمليات الاجتماعية والثقافية. وكثيراً ما تستعين الأنثروبولوجيا اللغوية بمجالات ذات الصلة منها اللسانيات الأنثروبولوجية، علم اللغة الاجتماعي، البراغماتية، اللغويات المعرفية، سيميائية، تحليل الخطاب.

أول استخدام لمصطلح (أنثروبولوجي) باللغة الإنكليزية كان للإشارة إلى العلوم الطبيعية للبشرية على ما يبدو في ١٥٩٣م. استغرق الأمر من عمانوئيل كانط (٢٥) عاماً لكتابة واحدة من الأطروحات الرئيسية الأولى في

الأنثروبولوجيا وهو كتاب، علم الإنسان من نظرة براغماتية.

* * *

الهوامش:

(١) يراجع المصادر التالية: ١) الإمبريالية الأمريكية تاريخ من القتل والتآمر والاستعمار، مركز الدراسات الاشتراكية، مصر. نشر بتاريخ ١ مايو ٢٠٠٣م. ٢) المسلمون ضحايا مؤامرة الإمبريالية الأمريكية، الحوار المتمدن، العدد: ١٨٦٩ بتاريخ ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٧م. ٣) الإمبريالية الأمريكية وأحلام السيطرة على العالم، جريدة النور، العدد: ٣٧١ بتاريخ ٧/ ١/ ٢٠٠٩م. ٤) النفط وقود إمبريالية أمريكا، جريدة صوت الأحرار الجزائرية. عدد ١ نوفمبر ٢٠٠٩م. ٤) الإمبريالية المأزومة؛ هل نحن إزاء أفول السيطرة الأميركية أم إزاء انهيار الرأسمالية، تأليف: سلامة كيلة. دار رند للطباعة والنشر والتوزيع. ٥) الإمبريالية بقناع إنساني، تأليف: جان بريكمون، ترجمة: عبود كاسوحة. إتحاد الكتاب العرب. ٦) الإمبريالية الأمريكية خصم تاريخي للحرية والديمقراطية، تأليف: مصطفى أمين. دار نون للنشر والطباعة والتوزيع. ٧) أمريكا الإمبريالية (هجوم بوش على النظام العالمي)، تأليف: جون نيو هاوس، ترجمة: مصعب حمادي. ٨) الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، تأليف: المهدي المنجرة. المركز الثقافي العربي. ٩) الإمبريالية من عصر الاستعمار حتى اليوم، تأليف: هاري ماجدوف. مؤسسة الأبحاث العربية.

الانتظار

رؤية حضاريّة

❐ الشيخ علي الأسدي (*)

تمهيد

الانتظار: عقيدةٌ ثائرةٌ، وثورة في عقيدة...

الانتظار: التواضع أمام الحقّ، والتكبّر على الباطل...

الانتظار: صرخة علي، دم عاشوراء، ومسيرة الإمامة...

الانتظار: دمٌ في شريان الحياة، وقلبٌ في صدر التاريخ....

الانتظار: فأس إبراهيم، عصا موسى، سيف داود، ونداء محمّد ' ...

الانتظار: التمرّد على الظلم والعدوان، والتمهيد لحكومة العدل والقسط..

الانتظار: إزهاق أنظمة الحكم والحكومات، وتزييف السلطات والحاكميّات...

من أهمّ ما يميز الدين الإسلاميّ عن غيره من الأديان والرؤى الوضعيّة المعدّة لقيادة الشعوب وإدارة الحياة هي شموليّته واستيعابه للواقع بكلّ

(*) باحث إسلاميّ/ العراق.

أصعدته، فهو لا يعالج الواقع من زاويةٍ واحدة أو بنظرةٍ أُحادية كما هو دأب الحركات التي تتفجّر في أنحاء العالم.

وينتج عن هذا المائز الجوهريّ خلود الشريعة الإسلاميّة وصلوح منهجها لكلّ زمان ومكان بشرط أن يتاح لها المساحة التطبيقيّة النقيّة، والنموذج الصحيح الذي يمارسها في الخارج، وعلى عكس ذلك لو ابتليت بنموذج نفعيٍّ مستبدّ، أمثال دول الاستكبار العالميّ المتمثّلة بأمريكا وبطانتها، فإنّ ذلك سوف يقودها إلى الجمود ويعرّضها للتشويه، الأمر الذي يتطلّب هزّة عنيفة في مساحة التخريب تعيد للدين حيويّته، وتمنح الجماهير ثقتها بدورها الرساليّ العظيم.

ومن هنا تتجلّى ضرورة دراسة مفهوم الانتظار دراسة حضاريّة، وتحليل عناصره الأساسيّة المكوِّنة لإبداعه، وتأثيره وعالميّته، كنموذج رافض للظلم والفساد والاستبداد والانحراف، ومجدِّد للمنهجيّة الدينيّة الصحيحة التي شيّدها الرسول الأعظم ' وأصحابه المخلصون من خلال الثورة على الواقع الفاسد الذي بدأ ينفصل تطبيقيّاً عن ثوابت الرسالة وضروريّات الشريعة الإسلاميّة.

ومن خلال ذلك ركّزت الشريعة بشكلٍ لافت على هذه المسألة { لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ }[الأحزاب:٢١]، وأولتها اهتماماً واسعاً من أجل تحقيق أهدافها المتوخّاة، فاستطاع الأنبياء والأوصياء والمصلحون، وعبر تجسيدهم الحيّ لما يؤمنون به من مبادئ وأفكار، أن يغيّروا وجه التاريخ ويتركوا بصماتهم واضحةً في سجلّاتهم ، فهم لم يقتصروا في حركتهم الإصلاحيّة، وتربيتهم للأجيال على مجرّد التعبيرات والنظريّات المجرّدة، بينما نرى بعض الفلاسفة ـ مثلاً ـ الذين تقوقعوا مع أفكارهم واستدلالاتهم، أبعد عن دائرة التأثير والتغيير، رغم أنّ كثيراً من أفكارهم لا تقلّ في صحّتها وقوّتها عمّا نادى به المصلحون، والسرّ يكمن في أنّهم ظلّوا يتكلّمون مع العقل المجرّد، ولم ينزلوا

إلى عالم القلب ليملكوا حينئذٍ أحاسيس ومشاعر الناس.

يقول «نيتشه»: من الممكن أن يستطيع أولئك الذين يحسنون الإدراك أن يكونوا مبشّرين لفرد ـ ونحن لسنا سبيلاً للوصول إلى حلقة سُلّمِهِ ـ ويمهّدون الطريق لظهوره[1].

وكون (المصلح العالمي) نصّاً مفتوحاً جعل الرؤى المتعدّدة في قراءته تتنافس على مدى استجابتها لمتطلّباته، ومدى قدرة أدواتها على استنطاقه؛ إذ العمق يكمن فيما فرضه على الواقع من امتداد في كلِّ زواياه.

أمّا (الانتظار) فقد استنطق كلّ عناصر الجمال الحقيقيّ، وهذا ما جعله محطّ أنظار الملامسين للجمال، فكلٌّ يستلهمه بما تميّزت به عيناه من شفافية.

وهذه الرؤية الحضاريّة للانتظار كفيلة بتفجير كوامن الوعي في أذهان وسلوكيّات أبناء الأمّة الإسلاميّة وغيرها، وهذه النظرة الأبستمولوجيّة قادرة على إنتاج أفرادٍ مسؤولين رساليّين، وبالتالي: إنتاج المجتمع الرسالي المنشود الذي يصبو إلى تحقيق قيم السماء في الأرض.

وهكذا يبقى (الانتظار) رؤيةً إصلاحيّة لكلّ مصلح يؤكّد على الهدف والذات كقيمةٍ سلوكيّةٍ وحضاريّة، تجعل من كلّ أرض كربلاء ومن كلّ يوم عاشوراء.

ويبقى الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف يشير بانتظاره إلى التكامليّة في إصلاحه للمجتمع التي تميِّز ـ هي الأُخرى ـ ديننا الإسلاميّ عن غيره من الأديان والرؤى بمحافظته على جانبي الفكر والسلوك، وربطه للعقيدة بالواقع.

ومن الجدير ذكره: أنّه كلّما أمعنت السلطات الحاكمة في أساليبها الإجراميّة، وابتكرت طرائقها العصريّة لإذلال الشعوب وقهرها، يحمل (الانتظار) في أحداثه وثقافته ديناميّةً خاصّةً تجعله قابلاً للامتداد والتوسّع المفاهيمي، ممّا أكسب روّاد الإصلاح ودعاة نهضة الشعوب القدرة على استلهامه في مراحل

تحرّكهم الحضاريّ والاستنارة به في عبورهم إشكاليّات الواقع المظلم وتعقيدات العمليّة الإصلاحيّة.

وهذا ما يمنح مفهوم الانتظار قيمته لدى رجالات الإصلاح، ويبرزه كواحدةٍ من موادّ الإصلاح الخالدة، من أجل تحريكه للشعوب المضطهدة، وكشفه للواقع المتلبّد، وصنعه المستقبل المشرّف، حتى يسلك الإنسان سبيل المواجهة الساخنة ضدّ قوى الشرّ وخصوم الإنسانيّة.

ومن هذا المنطلق الذي رسمه الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف للمنتظرين، قد بيّن لنا الإمام الحسين عليه السلام الهدف الذي أسّس نهضته المباركة عليه: «**إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي محمّد ، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر**»[٢].

وهذا التصريح منه عليه السلام يستوقفنا لقراءة سريعة في تاريخ الحركات الإصلاحيّة والثورات وسلوكها، تلك التي حاولت أن تعالج الواقع، إلّا أنّها غالباً ما تتعرّض للانحسار والتآكل، وتبقى مجرّد أفكار وآراء تتزيّن بها المكتبات ويتفاخر بها الأبناء. وسبب انحسارها عن مسرح الأحداث هو المحرّك والدافع والغرض الحقيقيّ الذي يكمن وراء نفوس أقطابها ودعاتها، فمن الناحية النظريّة: يتمّ إطلاق شعارات إصلاحيّة، وهذا من حقّ الجميع، ولكنّ الذي يميّز خلود هذا التحرّك عن غيره، هو وضوح الرؤية ونقاء الهدف من كلّ ما يتعلّق به من الأمور القريبة والملاصقة لآليّات العمل غالباً.

وعليه: فقد تُخفق الحركات الإصلاحيّة في بداية أمرها، وتجمد على الناحية النظريّة من دون أن يكون لها أيّ صدى في الواقع الخارجيّ، وقد تخفق في المواجهة مع القوى المضادّة لها، وقد تستمرّ في المقاومة بشكلٍ ما، مع تفرّق الكلمة وتشتّت الرأي. والغريب أنّ بعضها تقطف ثمار جهادها ثمّ تنقلب على أهدافها، وتُعمل الإرهاب في شعبها من أجل الحفاظ على مركزيّتها وبقائها..

كلّ ذلك لأنّ الأهداف المعلنة لم تتطابق، أو أنّها لم تكن مطابقة أساساً لطبيعة الفطرة التي تحكم الجماهير واحتياجاتها الواقعيّة، أو لم تكن مبنيّةً على أساس عقائديٍّ رصين يؤمِّن ثباتها واستمرار فعاليّتها.

أمّا النهضة الحسينيّة فقد أطلق رمزها الحسين عليه السلام، وهو شعار الإصلاح، من دون أن تمازجه رغبة أُخرى تعيق الممارسة خارجاً، ونحن لا نكتشف ذلك من كلمة «إنما خرجت لطلب الإصلاح» المفيدة للحصر والواردة في تصريحه فحسب، بل نتحقّق منه بمجرّد الالتفات إلى واقع النهضة وخارطة التحرّك، فقد كان عليه السلام على يقين من أنّها ستفضي للقتل والشهادة وأسر العيال حيث قال: «**وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأنّي بأوصالي تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، لا محيص عن يومٍ خُطّ بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه ويوفينا أجور الصابرين**»[٣]، وعلى الرغم من هذا، صمّم على السير إلى كربلاء، ولعلّ في الكلمة الآتية ما يعيننا على هذا الفهم ويوضِّح الهدفيّة والنتائج المتوقّعة بشكل أكبر: «**أيها الناس! إنّ رسول الله ' قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلًّا لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله ' ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعلٍ ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله**»[٤].

هذا ما توخّاه الإمام عليه السلام حينما خرج بأهله وعياله إلى صحراء الطفّ وكتب إبداعاته التاريخيّة على رمالها، وهو نفسه الهدف المنصوب أمام عيني الإمام المهدي عجل الله فرجه الطالب بدم المقتول بكربلاء.

وإذا كنّا ـ حتى الآن ـ قد عجزنا عن معرفة جميع الأبعاد والرؤى الحضاريّة لعقيدة الانتظار، ولم يتّضح لنا إلّا بعضها، فإنّ الزمن كفيل بأن يقيِّض الله من يكتشف لنا الأبعاد الأخرى، الواحدة تلو الأُخرى، فكلّما تتابعت الأيام واتسع محيط الانحراف في عالم الإنسان كانت الحاجة ملحّةً لمعرفة هذه الأبعاد وفهمها

فهماً حضاريّاً أفضل، فاتّساع مساحة هذه الأبعاد والرؤى في وعي المسلم المنتظِر، إنّما هو وليد إدراك معطيات الانتظار من باطن النصوص، ونتيجة للتفاعلات الضاغطة التي يعيشها، وسنكتفي ـ هنا ـ بالإشارة إلى بعض هذه الأبعاد التي حدّدتها النصوص ومنها:

١ـ النيل من المستكبرين:

قبل أن ندخل في صلب موضوع النيل من المستكبرين وأثر ذلك على المنتظرين، نتوقف عند تشخيص أهمّ سمةٍ في شخصيّة المستكبرين الغربيّين، على اعتبار أنّ دفّة الاستكبار العالمي المعاصر يقودها الآن مستكبرو أمريكا وأوروبا، الذين جعلوا من أنفسهم قادةً للنظام الدوليّ الجديد، ولأنّ جذور هذه الظاهرة ـ أي الاستكبار ـ موجودة في أعماق الشخصيّة السياسيّة الاجتماعيّة للغربيّين، وهي إحدى مكوّناتها باعتراف بعض علماء أوروبا، وسوف نسجّل شهادة أحد علمائهم، لنقرأ بتمعن هذه الشهادة:

يقول «إريك فروم» وهو يقسِّم المثل الأعلى للشخصيّة الأوروبّيّة إلى بطل وثني، وبطل مسيحي: «البطل الوثنيّ كما يتجسّد في أبطال الإغريق والجرمان، كانت غاية ما يصبو إليه النوع الأخير من الأبطال هو أن يغزو وينتصر، أن يدمّر وينهب ويسرق، كان تحقيق الحياة عندهم هو الغرور والتكبّر والأبّهة والسلطة، والشهرة والتفوّق في القدرة على القتل وسفك الدماء، وقد شبّه القديس أوغطيسن التاريخ الروماني بتاريخ عصابة من اللّصوص، كانت قيمة البطل الوثني، هي براعته في الاستيلاء على السلطة والتشبّث بها وهو يموت سعيداً في ساحة القتال لحظة الموت»(٥).

وبعد أن يشخّص فروم خاصية السلوك الاستكباريّ عند الغربيّين في تلك الفترة ويكاد يعمّمها على التاريخ الأوروبّيّ كلّه، يعود مرّةً أُخرى فيقول: «لو

أنّنا أمعنا النظر في أنفسنا، في سلوك أغلبية الناس، وفي قادتنا السياسيّين، لرأينا بيقين أنّ البطل الوثني هو النموذج الذي نعتبره حسناً، هو النموذج الذي نعتبره أنّ له قيمة، فالتاريخ الأوروبّيّ ـ الأمريكي الشمالي، على الرغم من اعتناق المسيحية، ليس إلّا تاريخ الغزو والأَبَّهة، والتكبّر والجشع، وأعظم قيمنا هو أن نكون أقوى من الآخرين، وأن نغزوهم ونقهرهم ونستغلّهم، وهذه القيم تتطابق مع المثل الأعلى للرجولة، فليس رجلاً إلّا من كان قادراً على القتل والقهر، وأيّ شخص غير قادر على استخدام العنف، إنّما هو شخص ضعيف، أيْ: ليس رجلاً.

لسنا بحاجة إلى إثبات أنّ تاريخ أوروبا هو تاريخ للغزو والاستغلال والقوة والإخضاع والقهر، ولا تكاد توجد فترة أو مرحلة من التاريخ الأوروبّي إلّا كانت هذه سماتها، لا يستثنى من ذلك طبقة ولا جنس، لا توجد جريمة إلّا ارتكبت، بما في ذلك عمليّات الإبادة الجماعيّة لشعوبٍ بأسرها، مثلما حدث للهنود الحمر، حتى الحروب الصليبيّة التي جعلت من الدين ستاراً لهم لم تكن استثناء»[٦].

ويلاحظ كذلك من بعض النصوص الإسلاميّة التي شخّصت السلوك الاستكباريّ عند الناس خلال فترة الغيبة الكبرى، أنها أطلقت لفظ (الترك والروم) لتدلّ على أنّ جزءاً كبيراً من المستكبرين في هذا الزمان هم من هاتين الفئتين. ومن أمثلة ذلك:«**ليبعثنّ الله عليكم العجم**»[٧]، وهم كلّ من ليسوا بعرب، «**وإذا استثارت عليكم الروم والترك، وجهّزت الجيوش**»[٨]، «**وتنزل الترك الجزيرة، وتنزل الروم فلسطين**»[٩]، وهكذا يثبت النصّ والواقع استكبار الغرب وعدوانيّته وقهره للأمم والشعوب، واضطهاده غير السويّ لها.

وهذا ما يؤيّد الواقع التاريخيّ للاستكبار الغربيّ، فتكبّره ورغبته في التسلّط، وشهوته في الغزو والانتصار!! كما يقول فروم: «جزء أساسي من مكونات

الشخصيّة الاجتماعية»[١٠] للمستكبر الغربيّ، وتشهد وقائع التاريخ المعاصر على ذلك، والتي تجسّدت في حركات الاستعمار والسيطرة الغربيّة على الأمم الأخرى.

فيكاد ينعقد إجماع مؤرخي الحضارة على أنّ الواقع الاستكباري حقيقة تاريخيّة عرفها الإنسان منذ بدء وجوده على الأرض، وأنّ هذا الواقع غير المتكافئ قد شمل العالم كلَّه حتى في عهد الأنبياء، حيث انقسم أفراده إلى مستكبرين ومستضعفين بسبب تصادم المصالح بينهم، وتثبت التجربة الإنسانيّة الطويلة أنّ الاستكبار أصبح خطّاً مأساوياً يحمل أفراده بين طوايا أنفسهم خصائص سلوكيّة معيّنة، قسمات نفسيّة واحدة مكرّرة منذ بدء حركة الصراع التاريخيّ بين الجانبين، ولهذا لن نتحدّث عن مستكبرين يعيشون في هذا البلد أو ذاك، وإنّما عن جماعة مارست سلوكاً عدوانيّاً ضد فئاتٍ أُخرى مستضعفة. فما يهمّنا هو السمات والرؤى المشتركة للاستكبار وليس الأشخاص، فهذه السمات هي التي تجعلنا نميّز بين موسى وفرعون، وإبراهيم والنمرود، ومحمّد وأبي لهب وأبي جهل وغيرهما، وسوف تظلّ هذه السمات شجرة واحدة من السلوك العدواني، ممتدة حتى يأذن الله بنصره المحتوم لعباده الصالحين المستضعفين في أرضه.

وشعوب العالم برمتها بما فيه ـ المنطقة الشرق أوسطيّة ـ تشهد انحياز الواقع الاستكباريّ ضدّ فئة المستضعفين، ويتحسّس فقراء المسلمين ومساكينهم ومغبونوهم تأثيرات هذا الواقع على أنفسهم بنفس القوّة ـ أو أكثر ـ التي يتحسّس بها مستضعفو الأرض مظالم المستكبرين، ولقد أوقع التفوّق التقني الضخم للأمم المستكبرة، وبخاصّة: التفوّق الصناعي والعسكري، شعوراً بالنقص لدى مجموعات كبيرة من المستضعفين، وأدّى هذا الإحساس بالمغلوبيّة والهزيمة إلى اليأس، والحيرة، والنكوص، والتشكيك في مقدراتنا كمسلمين على

تحطيم الواقع الاستكباريّ المزيّف الذي يسيطر علينا، وحطَّ كذلك من فاعليتنا في تجاوز مشاعر الهزيمة، ولهذا لفتت النصوص الإسلاميّة النظر إلى مشكلات الإنسان المؤمن في فترة الانتظار.

لقد نسي الكثير من مسلمي هذا الزمان وعد الله الذي لا يخلف ميعاده، وانبهروا بالإمكانيّات والأسلحة المتقدمة التي بيد المستكبرين، وتساءلوا مشكّكين: هل يحقّق الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف انتصاراته على الطغاة المستكبرين بالسيف؟ وما يفعل سلاح تقليدي عديم الفاعليّة أمام أسلحة مرعبة، وأجهزة تقنيّة قويّة فائقة التقدّم؟ أم يكون (السيف) تعبيراً رمزيّاً عن السلاح الذي سوف يستخدمه الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف؟!

تكمن الإجابة عن هذا السؤال في ثلاث نقاط:

أوّلاً: البشارة بالنصر وبالتحولات النفسية للأمة كفيلة بتحطيم كلّ هيبة في نفوسنا من المستكبرين، وفاتحة تربويّة لتكوين شعور الثقة بالذات، فهذه البشارة التي وعدت بها النصوص ضمانة مستقبليّة ترفع من معنويّات المنتظِرين، وتمنحها ثقةً بمستقبل الصراع بين الاستكبار والإسلام، وهي بشارة النصر والرؤية الحضاريّة لها في الشخصيّة المنتظِرة للإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وتضمنت نصوص البشارة بالمهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف وعداً بازدهار المستقبل، وانتصار المنتظِرين المستضعفين على قوى المستكبرين، والتفوّق عليهم في نهاية الصراع التاريخي بين الفريقين، فالأرض ستمتلئ عدلاً وأمناً، بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً، وقد أطلقت بعض نصوص البشارة على اليوم الموعود (يوم الخلاص)، وهي كلمة لها رؤيتها الحضاريّة على وقع القلب، حيث تنتهي فيها أسطورة الاستعلاء التي مارسها المستكبرون ضد المستضعفين، وبخاصة المنتظِرين على مدار تاريخ الإنسانية كلّه.

وثمة نصوص كثيرة تطمئن نفسية المنتظِرِ بالنصر، وتحقيق الفرج، وإحياء

قيم الحق والعدالة في حياة الإنسان، وتقرّر مبدأ الاستخلاف في الأرض للمؤمنين: { وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ }[القصص:٥].

أمّا نصوص السنّة فتزيد عن المئات ومنها: «**انتظار الفرج من الفرج**»(١١) و«**انتظار الفرج بالصبر عبادة**»(١٢)، و«**إنما يجيء الفرج بعد اليأس**»(١٣)، و«**انتظروا الفرج ولا تيأسوا من الله، فإنّ أحبّ الأعمال إلى الله عزّوجلّ انتظار الفرج**»(١٤).

ونعتقد أنّ أبعاد هذه العقيدة ودلالتها الحضاريّة مرتبطة إلى حدٍّ كبير بهذه البشارة، وبهذا الأمل الكبير الذي يغمر قلب المؤمن ـ بازدهار المستقبل للإسلام ـ مهما ادلهمّت الخطوب وتكالبت المحن عليه.

ثانياً: أنّه سيحدث في ضوء تنبؤات النصوص الاستعلامية استعلاء للشخصيّة المسلمة في عصر المهدي عجل الله فرجه الشريف على المستكبرين مع ما يملكون من وسائل القوّة؛ إذ جاء في رواية أنّه:«**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون**»(١٥)، ولهذه النصوص الإسلاميّة الأثر في تكوين رؤية حضاريّة عظيمة للشخصيّة المنتظِرة، بالاستعلاء على المستكبرين، حتى وهم يمتلكون أدوات القوة، وأجهزة التفوّق المادّي وأساليبه، وهذا ما فعله القرآن مع أهل الكهف حينما صغّر أمامهم الواقع الاستكباري، وهو خير دليل على ما نقول.

إذا تأمّلنا بعض النصوص المنقولة إلينا نجد أنّ أدوات الانتصار والأسلحة التي يستخدمها في معاركه الحربيّة تكون متوفّرة لديه، ومجهولة لدى خصومه من المستكبرين، حيث يكون هذا السلاح من نوع جديد كما يبدو، أو مشابهة لتقنيّة السلاح الذي يستعمله خصومه، كما يكون لديه تكتيك عسكري فعَّال يعتمد على عنصر المفاجأة والسرعة، والقوة النفسيّة لأعوانه، وضعفها لدى

خصومه، وهذا كلّه يساعده على إرباك العدو قبل أن يتحرّك عمليّاً لمواجهته.

ومن هذه النصوص التي تصف سلاحه، وجنده:

ـ «**ولهم سيوف من حديد، لا كسيوفكم، إذا ضرب به أحدهم جبلاً قطّه**».

ـ «**إذا ظهر توقفت الأسلحة، فلم تتحرك في وجهه**»، ولعله إشارة إلى أنه يظهر سلاح تكون الأسلحة الموجودة في ذلك الوقت رمزية أمامه، ولعلّه إشارة إلى أنّه يستخدم نوعاً من السلاح يعطّل كلّ الأسلحة الموجودة، أو يجمّد كلّ الآليّات المتحرّكة[١٦]، ولا مانع أبداً من إسناده عليه السلام بمدد غيبي.

ـ «**يخرج بجيش لو استقبل به الجبال لهدمها، واتخذ فيها طريقاً**»[١٧].كإحداث نفق في وسطها، أو اتخاذها مواقع عسكريّة، أو تحصينات قتاليّة، وهذا بالتأكيد لا يتمّ بسلاح تقليدي كالسيف، بل بأسلحة حديثة متفوّقة تقنيّاً كالمتفجّرات وأشدّ، وقد قلنا إنّ كلمة السيف قد تكون رمزاً للسلاح المعروف في عصره.

ولديه جيش كما تقول بعض الروايات يسمّى: جيش الغضب.. ولهذه التسمية دلالتها الحضاريّة سنشير إليها، بعد نقل النصوص المعنيّة بأمر هذا الجيش، فقد ذكر الإمام علي عليه السلام أنّ الإمام المهدي عليه السلام: «**يخرج موتوراً غضباناً أسفاً لغضب الله على الخلق**»[١٨]، وعندما سئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: {أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ}[النحل:١]، فقال: «**هو أمرنا، أمر الله عزّوجلّ ألّا نستعجل به، يؤيده الله بثلاثة أحفاد.. بالملائكة، وبالمؤمنين، وبالرعب**»[١٩].

ـ «**ينشر راية رسول الله ' السوداء، فيسير بالرعب قدّامها شهراً وعن يمينها شهراً، وعن يسارها شهراً**»[٢٠]، وربما يعني هذا أنّ القوى التي تسمع عن حركة المهدي وانتصاراتها يمتلكها الخوف من انتقامه حتى لو كانت في أقصى الدنيا. وتنهار نفسيات القادة ويبدأون في التسليم له قبل المواجهة العسكرية، ومبايعته طوعاً أو كرهاً كما تقول الروايات.

ـ «**والقائم منّا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر، تطوى له الأرض وتظهر له**

الكنوز ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب»[٢١].

ـ «**إنّ الله يلقي في قلوب محبينا الرعب من عدونا. فإذا وقع أمرنا وخرج مهدينا كان الرجل من شيعتنا أجرأ من ليث**»[٢٢] أي: أنّ ظهوره عليه السلام يحدث تعديلاً في السلوك.

ـ «**إذا هزَّ رايته أضاءَ لها ما بين المشرق والمغرب، ووضع الله يده على رؤوس العباد، فلا يبقى مؤمن إلّا صار قلبه أشد من زبر الحديد**»[٢٣].

ـ ونقل القندوزي أنّ رسول الله ' قال لعلي عليه السلام: «**أعجب الناس إيماناً وأعظمهم يقيناً قوم يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي ' ، وحجبت عنهم الحجة، فآمنوا بسواد على بياض**»[٢٤]. ويقصد أحاديث مكتوبة بمداد أسود على ورق أبيض.

وتدلّنا هذه النصوص على حقيقتين:

١ـ أنّ خوف المؤمن قبل المهدي يتحوّل إلى ثبات وقوة وجرأة بعد ظهوره.

٢ـ أنّ تسلّط المستكبرين قبل خروجه، يتحوّل إلى خوف ورعب بعد أن يسمعوا بتحرّكاته وانتصاراته الحاسمة، فتخمد عدوانيّتهم الظالمة ويظهر خوفهم منه.

كما أنَّ هذه النصوص حدّدت جانباً من الطاقات المادّيّة والمعنويّة لجيش الإمام المسمّى بجيش الغضب، وكشفت عن الحالة النفسيّة المتدهورة لبعض المستكبرين، كالرعب منه، والتسليم له بدون قتال[٢٥]، حتى لو كانت قوّاته بعيدة عنهم، وتشير هذه النصوص إلى تفوّق أسلحته، كما تكشف كذلك عن القوّة النفسيّة للإمام وجنده الميامين التي تساند طاقاته المادّيّة فتحسم الصراع لصالحه في مدّةٍ أقلّ من سنة كاملة، كما تدلّ بعض المرويات، بل إنّ هذه التسمية لجيشه ترفع بالتأكيد من معنويّات منتظِريه خلال فترة الغيبة الكبرى، وتخلق في نفوسهم شعوراً بالتفوّق والقوّة والشدّة على أعداء الله، ورغبة حماسيّة تنتهي

بتحطيم كلِّ هيبة للمستكبرين في نفوسهم، فتصبح كلّ نفس تنتظر الإمام متمنّيةً الانضواء تحت لواء جيشه المظفّر.. جيش الغضب الذي لا يقاوم ولا يعرف الهزيمة قطّ، وهي في ذلك ـ أي نفوس المسلمين المنتظِرة ـ متعالية على الواقع الاستكباريّ، غير عابئةٍ به رغم ضخامة إمكانيّاته المادّيّة المتوفّرة لديه.

إنّ ورود كلمة (جيش الغضب) في النصوص، إنّما يستهدف تكوين مشاعر الثقة عند المستضعفين المؤمنين، وتنمية الإحساس بالعزّة وروح الاستعلاء على قوّة المستكبرين مهما تعاظمت، وللإيحاء لكافّة المستضعفين ـ حتى لو كانوا غير مسلمين ـ بأنّ لهم جيشاً مذخوراً لا يضاهيه في قوّتيه: الروحيّة والمادّيّة جيش آخر، وربّما تصل هذه التسمية إلى أسماع الطغاة وقت ظهوره، فيسير لهم الرعب مسيرة شهر، وقبل أن يصلهم بشهر، وهي فترة كفيلة بانهيار روح المقاومة لديهم، وحينئذ لن تنفع المستكبرين أدوات الفتك العسكريّ والأسلحة المتطوّرة طالما أنّ البناء الروحي لهم منهار يأكله الرعب والخوف حتى قبل المواجهة المباشرة.

٢ـ التصدي وعدم الإحباط:

ويبدو لنا أنَّ وصيد الإحباط[٢٦] وقدرة المؤمنين المنتظرين على مقاومة هذا التحطيم هو السبب ـ اليوم ـ في نموّ بوادر اتجاه جديد للإسلام بين الشباب، فلولا هذه المقاومة لكلّ الاحباطات الظالمة لتأخّرت كثير من الانتصارات التي غيّرت جزءاً من المعادلة الدوليّة الظالمة، وقلبت بعض موازين المواجهة لصالح المسلمين، وبخاصّةٍ في السنوات الأخيرة من قرننا العشرين، فمثل هذه التحوّلات ـ برغم محدوديتها ـ حاصرت الشعور بالضآلة في النفس المسلمة، وأعادت روح الثقة إلى جنباتها، وأنجبت لنا صحوة إسلاميّة أجبرت العالم على الاعتراف بالمدّ الحضاريّ للإسلام وتأثيراته الروحيّة والسياسيّة. ولوقْف هذا

المد، تصدّى أعداء الإسلام له بمختلف أشكال التشويه مستغلّين بالتأكيد أخطاء السلوك عند بعض المتديّنين كاستخدام القوّة ضدّ غيرهم.

ومن أعظم الرؤى الحضاريّة في (الانتظار): هو تصعيد القدرة مع مقاومة كلّ سعي عدائيّ لإعاقة حركة الأمّة في اتجاه الإسلام، والتفاعل مع قضيّته الأولى.. قضيّة إثبات الذات وتأكيد تميّز الوجود الحضاريّ للأمة، وتخليص روحها من مخالب التبعيّة والاستلاب والسقوط الحضاريّ في أحضان قوى الاستكبار.

ومن ثمرات هذه العقيدة: تمتّع الشخص المسلم بقدرته على مواجهة التحديات، والصبر الواعي على تحمّل آلام المواقف الإحباطيّة التي تصنعها دائماً حياة الانحراف. ومن سمات المنتظرين كما تذكر النصوص: نجاحهم في التمتّع بقدر كبير من وصيد الإحباط بعد أن يفشل الكثير من الناس في مختلف الابتلاءات، فالإيمان بالنصر التاريخي، والتيقّن من حتمية وقوعه، يمكّن شخصيّة المسلم المنتظر من اكتساب خبرات جهاديّة تقاوم المواقف الإحباطيّة المتنوّعة التي يواجهها باستمرار، كما أنّ وجود هذا الوصيد في شخصيته يعود لعمليّة الإعداد التربويّ والتثقيف العقائديّ المستمرّ، ويعود كذلك لفاعليّة بعض المفاهيم الإسلاميّة كالإثابة، والتعويض عن آلام هذا الصمود، وضغوط سلسلة الإحباطات المستمرّة بإثابة أخروية عظيمة الشأن «**فمن ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله أجر ألف شهيد مثل شهداء بدر وأحد**»[٢٧]، «**وسيأتي قوم من بعدكم، الرجل الواحد فيهم له أجر خمسين منكم، فقالوا: يا رسول الله نحن كنا معك ببدر وأحد وحنين، ونزل فينا القرآن؟ فقال: إنكم لو تحمّلون ما حمّلوا، لم تصبروا صبرهم**»[٢٨].

إنَّ فترة انتظار الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف قد تطول وقد تكون بعيدة، وينبغي للمسلم المنتظر أن يهيّئ نفسه لذلك، إنَّ هذا الانتظار تراه النفس بعيداً إذا نظرنا

إليه بمنظار آمال الأفراد ـ كل واحد بخصوصه ـ فقد يمضي الموت بالأفراد دون أن تكتحل عيونهم بفجر هذا الأمل. إنّه بالنسبة إليهم بعيد.. بعيد.. كذلك هو أمل بعيد بالنسبة إلى كلّ مجتمع بمفرده وخصوصه، فقد تمضي القرون على مجتمع دون أن يحقّق في نظامه ومؤسساته هذا الأمل العظيم. ولكنّ هذا الأمل على مستوى النوع البشري كلّه أمل قريب؛ لأنّ الأحداث التي تغير مسار الجنس البشريّ كلّه لا تقاس بأعمار الأفراد أو الجماعات أو المجتمعات، ولا بالحركة التاريخيّة في هذا النطاق أو ذاك أو ذيَّاك، وإنّما تقاس بما يتناسب مع حجم النوع الإنسانيّ كلّه، ومع حركة التاريخ العالمي كلهّا،.. إنّ ألف سنة مثلاً في عمر فرد زمن كبير طويل، كذلك الحال بالنسبة إلى عمر حركة تاريخيّة في مجتمع من المجتمعات، ولكن ألف سنة في عمر البشريّة كلّها زمن قصير بالنسبة إلى فترات التحوّل التاريخيّة الكبرى التي أدخلت تغييراً شاسعاً على المسار التاريخيّ للجنس البشريّ كلّه، فنقلته من مستوى معين إلى مستوى أعلى منه مرتبة ونوعية. إنّ فترات التحوّل التاريخية الكبرى ـ كما نعلم ـ تستغرق ألوف السنين، أو بالأحرى عشرات الألوف من السنين.. إنها حركة التاريخ الكبرى[٢٩].

ولعلّ هذا الانتظار البعيد بهذا المعيار ـ عمر الفرد أمام المجتمع الواحد ـ قد سبّب لبعض النفوس التي لم تستوعب المفهوم ولا حركة التاريخ.. سبّب إحباطاً، وقد عايشنا نماذجاً من هذه النفوس التي إذا ادلهمت بها الخطوب، وازدحمت عليها الضغوط، وحاولنا الموازنة بين هذا اليأس والإحباط بالإشارة إلى فرج الله تعالى، ردّوا علينا بنفس محبطة، مقبوضة، حزينة من المستقبل.. متى يكون هذا الفرج!!! وكأنّ عقولهم ليست واثقة من قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا} [المعارج:٦ـ٧].

ولهذا السبب نجد أنَّ مجاهدي العالم الإسلاميّ الذين فهموا عقيدة الانتظار

لم يعرفوا في حياتهم يأساً رغم استمرار ضغوط الواقع الإحباطي، إنّهم نذروا أنفسهم لرضا الله، وتحقيق هدفهم الكبير لبناء مجتمع إسلاميّ يمهّد لدولة الحقّ في إطار هذا الأمل، وفي نطاق هذه البشارة بالنصر، ولكنّ الكفر وأتباعه من منافقي العالم ومستكبريه ومنحرفيه يجمعون كافّة قواهم لإعاقة سلوك المؤمنين عن بلوغ أمنيتهم الإنسانيّة الكبرى.

ولكنّ هذا الإحباط سرعان ما يتلاشى أثره إذا ما أحرز المسلمون ـ هنا وهناك ـ بعض الانتصارات، ويمكن أن نسجّل بفخر واعتزاز أنّ وصيد الإحباط في الشخصيّة المسلمة المعاصرة قد بلغ نضجاً يجعله يقاوم كلّ استعداء، وكلّ مؤامرة لتحطيم شعورنا الداخلي بانتصار الإسلام والأمل بحتميّة انتصاره.

٣ـ الأمن النفسي للمنتظرين:

إنَّ الأمان الذي يعنيه الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف من نصه اللاحق: «**وإني لأمان لأهل الأرض**»[٣٠]، ليس التشبّث بحطام دنيوي زائل، وإنّما هو أمن على مستقبل الذات يمر بالإيمان الكامل بولايته عجل الله فرجه الشريف باعتباره حجّة الله في أرضه، والاعتراف بقيادته ضرورة لضمان أمن المسلم دنيويّاً وأخرويّاً، فمثل هذا النصّ لا يقصد الأمن من آلام الدنيا، وعذاباتها «إلّا إذا تمّ الظهور المبارك وحقق الإمام عجل الله فرجه الشريف انتصاراته التاريخيّة على الظالمين وانتزع منهم القوّة والسيطرة على الآخرين، حينئذ تحقّق الذات المؤمنة أقصى مستويات الأمن، أمن على حفظ الذات، وأمن تحقّق الإشباع المادي، وأمن اجتماعيّ يحميها من أذى الآخرين وهكذا.. وإنّما السلامة من الانحراف وبراءة الذات المسلمة من الوقوع في شراكها، فيخرج من دنياه ظافراً مطمئنّاً على نفسه في غده، وفي آخرته حتى لو اكتوت نفسه بمعاناة شديدة منها، لهذا كان الإمام عليه السلام يدعو دائماً: واعطنا منك

الأمان واستعملنا بحسن الإيمان»[٣١]. ليربط بين تحقّق الإمامة وبين أداء التكاليف العباديّة المعبر عنها بـ(حسن الإيمان).

فالثبات على مبادئ الإيمان في ظل ولاية الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف هو الصرح الذي يؤسس عليه الفرد المنتظِر أمنه في اليوم الآخر.

وحتى المصدر الدنيوي للطمأنينة الذي يأتي من الإيمان بالنصر التاريخي للمظلومين، بقيادة المهدي عجل الله فرجه الشريف، مرتبط بالأمن الأخروي للنفس المسلمة المنتظِرة، فالمفروض أن يعزّز النصر التاريخي بقيادة الإمام أمنها النفسي في فترة محدودة، ثمّ يموت الإنسان المسلم ليشعر بحلاوة الأمن الحقيقي، لكن مِنَ المظلومين من لا تشاء له قوانين الحياة أن يدرك الإمام، ويموت متنغّصاً آلامها، ومع ذلك يُعوَّض عن ذلك بأمن نفسي يسعى إليه في عالمه الآخر؛ إذ جاء في النصّ التالي: «**فإن مات ـ يقصد المنتظِر ـ وقام القائم بعده كان له من الأجر مثل أجر من أدركه**»[٣٢].

وهكذا يكون أمن الذات المسلمة المنتظِرة للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف مزدوجاً في الدنيا والآخرة.

ونلاحظ أيضاً أنّ مفهوم الانتظار لا يكتفي بإثارة الإحساس بالمظلوميّة عند المؤمنين المظلومين الذين وقع عليهم الاضطهاد والظلم، وإنّما يسعى كذلك إلى تحقيق الأمن النفسي في القلوب المضطهدة بالرغم من أنّ كلّ المثيرات العدائية حولهم تضادّ هذا المسعى، ومن المؤكّد أنّ مجرّد إثارة الشعور بالمظلوميّة ليس إلّا خطوة ممهّدة كي ترسو النفوس المثقلة بهموم الزمان وأهله عند حالة معقولة من الأمن النفسي.

فالشعور بالأمن ضرورة أساسيّة من ضروريّات الحياة التي أكّد عليها المشروع الإسلاميّ، وهو دافع حيويّ لتحقيق توافق الشخص المسلم، وإنّ أهمّيّة هذا الأمن تكمن في تأمين مستوى عالٍ من الثبات العاطفي والعقائدي في

مواجهة صعاب الحياة وتحدّياتها الظالمة، وإنّ الإحساس بالأمن يعتبر مناخاً صالحاً لبناء الذات المسلمة المنتظِرة وتتّخذه جسراً وقاعدة لإنجاز هدفها الرسالي بالدنيا، أو الاطمئنان على مصيرها بالآخرة.

وطالما أنّ مثيرات الظلم قائمة، وأدوات القوّة متوفرة بأيدي المستكبرين، فإنّ أمن الذات المنتظِرة أمر غير ممكن إذا ما تعاملنا مع المسألة بمقاييسها الدنيويّة المباشرة: وهذه مجرّد ملحوظة قد يثيرها بعض الناس.

لكن إذا نظرنا إلى مقاييس أخرى، تكون النفس المظلومة المجاهدة على هدى الله، آمنة رغم الظلم الذي يسود الدنيا، فهي بصبرها واستقامتها واثقة من مستقبلها، سعيدة بآلام المعاناة، مستأنسة، ومنتظِرة للثواب الإلهي، فالأمن الذي تسعى إليه الذات المسلمة المنتظِرة ليس بالمحافظة على وجودها الزائل في الدنيا، وإنما بضمان مستقبلها في اليوم الآخر، ولا نقصد من ذلك بالتأكيد أن تتخلّى الذات المسلمة عن تحقيق أمنها النفسيّ دنيوياً والمحافظة على وجودها، فما الجهاد الذي كلّفت به النفس المسلمة إلّا لتأكيد هذا الأمن في عالمها الدنيوي ولكن كون الدنيا قصيرة الأجل، فحتى لو عانت من الضغوط المخالفة لأمنها النفسي الدنيوي فإنّها لم تخسر بعد أمنها النفسي الحقيقي طالما أنّ جهادها وتحمّلها للمشقة في سبيل الله يحقّق الأهداف العبادية، «**فمن ثبت على ولايتنا في غيبة قائمنا.. أعطاه الله أجر ألف شهيد من شهداء بدر وأحد**»(٣٣).

ولعلّ قلق المستكبرين المستمرّ على امتداد فترة الغيبة ناجم من عجزهم عن فهم قدرة هذه العقيدة الإسلاميّة النقيّة في صوغ النفوس وتعميق حبّها للقيادة الشرعيّة، فما دام هذا الحبّ يعيش في القلوب قياديّاً وجماهيريّاً، فسوف يظلّ مصدراً حقيقيّاً يتهدّد الوجود الاستكباريّ يوماً ما في عمود الزمن.

* * *

الهوامش:

(١) نقلاً عن مجلة الفجر/ العدد(٢) سنة ١٤٠٤هـ.

(٢) المجلسي، بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٩ ؛ البحراني، عبد الله، العوالم (الإمام الحسين): ص١٧٩، تحقيق مدرسة الإمام المهدي؛ الخوارزمي، مقتل الحسين١: ١٨٨.

(٣) ابن طاووس، اللهوف: ص٣٨؛ القاضي النعماني، شرح الأخبار: ص١٤٦،تحقيق محمد الحسيني الجلالي؛ الأربلي، كشف الغمّة: ص ٢٣٩؛ القمي، نفس المهموم: ص١٤٨.

(٤) تاريخ الطبري:٤: ٦٠٥، تحقيق عبد الله علي مهنا، الناشر مؤسسة الأعلمي، البحراني، تحف العقول: ص٥٠٥؛ الشيخ المفيد، الأمالي:ص١٢٢؛ الأمين، السيّد محسن، لواعج الأشجان: ص ٩٣؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٤: ٤٨.

(٥) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر:ص١٥١.

(٦) إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر: ص١٥١، ترجمة سعد زهران.

(٧) يوم الخلاص: ص٤١٥ـ ٤١٩.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) المصدر السابق، ص١٥٢.

(١١) الريشهريّ، ميزان الحكمة١: ٢٨٤ ـ ٢٨٦.

(١٢)المصدر السابق.

(١٣)المصدر السابق.

(١٤)المصدر السابق.

(١٥) رواه مسلم، انظر معجم أحاديث الإمام المهدي عليه السلام ١: ٣١١، رقم الحديث٢٠٣ ،٢٠٤.

(١٦) الشيرازيّ، كلمة الإمام المهدي: ص٣٨.

(١٧) يوم الخلاص، ص٢٣٢؛ البيان، للكنجي الشافعي، ص١٣٢؛ القول المختصر، لابن حجر، ٤٨٥.

(١٨) يوم الخلاص، ص٢١٠.

(١٩) غيبة النعماني، ص١٦٢.

(٢٠) يوم الخلاص، ص٢١٠.

(٢١) يوم الخلاص، ص٢١٦.

(٢٢) المصدر السابق، ص٢٣١؛ ينابيع المودة، القندوزي:٣: ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢٣) يوم الخلاص، ص٢١٠.

(٢٤) ينابيع المودة، القندوزي، ج٣، ص١٧٠.

(٢٥) انظر مثلاً: كتاب البرهان في علامات آخر مهدي آخر الزمان للمتقي الهندي ص١٢٤، وكذلك: القول المختصر في علامات المهدي المنتظر لابن حجر.

(٢٦) مصطلح حضاريّ يراد به قدرة الفرد على الصبر، وعلى الثبات العاطفي وتحمل الشدائد ومقاومة الإحباط والحرمان والصدمات الانفعالية بطريقة توافقية بالمعيار العبادي والوضعي معاً، انظر كتاب أصول علم النفس، ص٤٩٨.

(٢٧) ميزان الحكمة، الريشهري، ج١،ص٢٨٢.

(٢٨) المصدر السابق، ج١،ص٢٨١.

(٢٩) حركة التاريخ عند الإمام علي عليه السلام،محمد مهدي شمس الدين،ص٢١٨.

(٣٠) الطبرسيّ، الاحتجاج٢: ٤٧١.

(٣١) كلمة الإمام المهدي، الشيرازي، ص٢٦٣.

(٣٢) غيبة النعماني، ص١٣٥.

(٣٣) ميزان الحكمة، الريشهري١: ٨٢٨.

فطرية

العقيدة المهدوية

❐ الشّيْخ معين دقيق العاملي

تمهيد

كثيراً ما يكون الاعتقاد بفكرةٍ ما ـ على الرغم من وقوع الاختلاف فيها نفياً وإثباتاً ـ من الأمور الفطرية، التي يجبل عليها طبيعة النوع البشري، ولا يؤدّي الاختلاف فيها، أو في بعض تفصيلاتها إِلَى خروجها عن حيّز الفطرية. وهذا ما سأحاول في هذا المقال تطبيقه على فكرة العقيدة المهدوية، ولكن لمّا كان فهم ذلك يتوقّف على معرفة حقيقة الأمر الفطري وخصائصه، أبدأ بذلك في الأسطر القليلة القادمة:

الفطرة لغةً واصطلاحا:

لقد استخدم القرآن الكريم مشتقات كلمة (الفطرة) في أكثر من موضع من آياته، لكن هناك آية واحدة اختصّت بكلمة «الفطرة»، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد وردت لفظة (الفطرة) بمعانٍ مختلفة في أقوال أهل اللغة والمعاجم، ولكنّ المشترك بين جميعها أنَّها تأتي بمعنى (الخلقة).

قال ابن فارس: «**الفاء والطاء والرّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتح شيءٍ وإبرازه، من ذلك الفطر من الصوم... ومنه الفَطر، بفتح الفاء، وهو مصدر فطرت الشاة فطراً، إذا حلبتها، ... والفِطرة: الخلقة**»[1].

وقال ابن منظور: «**والفِطْرةُ، بالكسر: الخِلْقة أَنشد ثعلب:**

هوّن عليك فقد نال الغنى رجلٌ في فِطرةِ الكلب لا بالدين والحسب»[2]

وأمّا في الاصطلاح، فقد قال ديكارت في بعض رسائله المؤرخة بتاريخ: ٢١/ أيار ١٦٤٣م: «**الأُمور الفطرية عبارة عن المعلومات البدائية الأصيلة التي نتوصل بها إلى سائر المعارف، وهي قليلة جداً**»[3].

ويرى الملا صدرا أنَّ الأمور الفطرية هي التي أودعها الله في الطبائع[4]؛ ولذا شاع إطلاقها في المعارف الإسلامية على ما يرجع إِلَى قولنا: «**إِنَّها مجموعة من الصفات والقابليات التي تُخلق مع المولود، ويتّصف بها الإنسان في أصل خلقته، سواء القابليات البدنية، أم النفسية، أم العقليّة**».

خصائص الأمر الفطري:

للأُمور الفطرية والجبلية خصائص يمكن أنْ نُشير إِلَى أهمّها:

أوّلاً: أنَّها عامّة، أي: توجد في جميع أفراد النّوع (الإنسان).

ثانياً: أنَّ أصل وجودها لا يحتاج إِلَى اكتساب وتعلُّم، بل هي موجودة في بدايات حياة النّوع، وعندما يكون مجرّداً عن أيّ استعدادٍ فعليٍّ للاكتساب والتعلُّم، وإنْ كان للكسب والتعلُّم دورٌ في تنميتها وتطويرها.

ثالثاً: أنَّ عدم الاعتناء والاشتغال بها يؤدّي إِلَى إضعافها واضمحلالها بشكلٍ سريع.

ولتوضيح هذه الخصائص الثلاث أطبّقها على المثال التالي:

إِنَّ كلّ مولود بمجرّد خروجه إِلَى هذه الدُّنيا تجرُّه الحاجة الطبيعية إِلَى تناول الحليب من أُمّه، فعندما تريد أُمّه أنْ تُرضعه، يباشر الرضاع منها من دون أنْ يقوم أحدٌ بتعليمه، ولكن شيئاً فشيئاً توجّهه الأُم نحو كيفيةٍ أكمل من الرضاع. ولو أنَّها فطمته لأيامٍ قلائل وعادت إِلَى إرضاعه نجد أنَّه قد نسي تلك الحاجة الفطرية الموجودة عنده منذ ساعته الأُولى.

فكون هذا العمل موجوداً في كلّ مولود فهذا يعني الخصوصية الأُولى. وكونه موجوداً في بدايات حياة المولود، بلا حاجةٍ إِلَى تعلُّم في أصل وجوده، وإنْ كانت الأُمّ توجّهه نحو الأفضل والأكمل، يعني الخصوصية الثانية. وكون الفَطْم يؤدّي إِلَى نسيان طريقة الرضاع عنده، يمثّل الدور للخصوصية الثالثة.

ونحن إذا أردنا أنْ نعرف فطرية أمر من الأُمور، فليس علينا إِلَّا أنْ نطبّق هذه الخصائص عليه.

فطرية العقيدة المهدوية:

وعندما ندّعي فطرية العقيدة المهدوية لا نقصد بذلك ما فيها من تفصيلات وتسميات، بل المضمون الكلي لهذا الاعتقاد المشترك بين جميع الأديان والمدارس الفكرية. ففكرة المهدوية المتمثّلة بجملةٍ بسيطةٍ يمكن التعبير عنها بقولنا: «**التطلُّع الإنساني نحو يوم تسود فيه العدالة ربوع العالم ويزول عنه الظّلم والجور، وتتحقّق فيه الأهداف النهائية للإصلاح**».

هذه الفكرة المتمثّلة بتلك الجملة البسيطة ـ مع قطع النظر عن الشخصية التي تحققها وتسمياتها ـ ندّعي أنَّها فكرة وعقيدة فطرية، جُبِل عليها الإنسان مهما تنوّعت آراؤه ومعتقداته الدينية والفكرية.

وفطرية هذه العقيدة في الواقع ليست على نحو الاستقلال، بل هي ترتبط

بفطرية أمر آخر تندرج تحته، ألا وهي فطرية رفض الإنسان للظلم ومبارزته له والانتصار عليه.

وإن شئتَ فقل: إنَّ الإيمان بالفكرة التي يجسّدها المهدي الموعود هي من أكثر وأشدّ الأفكار انتشاراً بين بني الانسان كافة؛ لأنها تستند إِلَى فطرة التطلع للكمال بأشمل صوره، أيْ: أنها تعبّر عن حاجةٍ فطرية، ولذلك فتحققها حتمي؛ لأن الفطرة لا تطلب ما هو غير موجود كما هو معلوم.

وفي هذا المجال يقول السَّيِّد الشهيد رحمه الله: «**ليس المهدي عليه السلام تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع ديني فحسب، بل هو عنوانٌ لطموح اتجهت إليه البشرية بمختلف أديانها ومذاهبها، وصياغة لإلهام فطري أدرك الناس من خلاله ـ على تنوع عقائدهم ووسائلهم إِلَى الغيب ـ أنَّ للإنسانية يوماً موعوداً على الأرض تحقق فيه رسالات السماء مغزاها الكبير وهدفها النهائي، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مرِّ التأريخ استقرارها وطمأنينتها بعد عناء طويل. بل لم يقتصر هذا الشعور الغيبي، والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب، بل امتدّ إِلَى غيرهم أيضاً وانعكس حتى على أشد الأيدلوجيات والاتجاهات رفضاً للغيب، كالمادية الجدلية التي فسّرت التاريخ على أساس التناقضات وآمنت بيوم موعود، تُصفّى فيه كل تلك التناقضات ويسودُ فيه الوئامُ والسلامُ. وهكذا نجد أنَّ التجربة النفسية لهذا الشعور ـ والتي مارستها الإنسانية على مرّ الزمن ـ من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين بني الانسان**»[5].

والملاحظ في النَّصّ المتقدّم أنَّ الشهيد الصدر رحمه الله يريد أنْ يستشهد على فطرية العقيدة المهدوية بعموميتها عند جميع الملل والنحل.

ولكي يكون هذا الأمر واضحاً ننقل بعض الكلمات في هذا المجال، والتي تدلّل على عمومية الاعتقاد وبالتالي كونه من قبيل الإلهام الفطري عند بني البشر.

عقيدة المهدوية في الفكر الفلسفي غير الديني:

ـ يقول المفكر البريطاني الشهير برتراند رسل: «**إِنَّ العالم في انتظار مصلح يُوحّده تحت لواء واحدٍ وشعارٍ واحدٍ**».

ـ ويقول العالم الفيزياوي المعروف ألبرت آينشتاين صاحب النظرية النسبية: «**إِنَّ اليوم الذي يسود العالمَ كلّه فيه السلام والصفاء، ويكونُ الناس متحابين متآخين ليس ببعيد**».

ـ وأدق وأصرح من هذا وذاك ما قاله المفكر الإيرلندي المشهور برناردشو، فقد بشّر ـ صراحة ـ بحتمية ظهور المصلح، وبلزوم أن يكون عمره طويلاً يسبق ظهوره؛ بما يقترب من عقيدة الإمامية في طول عمر الإمام المهدي عليه السلام؛ ويرى ذلك ضرورياً لإقامة الدولة الموعودة، قال في كتابه (الإنسان السوبرمان) وحسب ما نقله عنه الدكتور عباس محمود العقاد في كتابه (برناردشو) في وصف المصلح بأنّه:

«**إنسانٌ حيٌّ، ذو بنية جسدية صحيحة، وطاقة عقلية خارقة، إنسانٌ أعلى يترقى إليه هذا الإنسان الأدنى بعد جهد طويل، وأنّه يطول عمُرهُ حتى ينيف على ثلاثمائة سنة، ويستطيع أنْ ينتفع بما استجمعه من أطوار العصور وما استجمعه من أطوار حياته الطويلة**»[٦].

وعلى هذا الأساس اعتقد البوذيّون بأنّ بوذا هو ابن الله، وهو المنقذ للبشرية من الآلام والمآسي، وأنّه بعودته إِلَى الحياة من جديد لينشر العدل والقسط.

والزرادشتيون اعتقدوا بعودة بهرام شاه...

والمجوس بأرشيدوا...

والأسبان بملكهم رذريق الَّذِي قُتِل في غزو المسلمين لبلاد الأندلس...

والمغول طبّقوا هذه المقولة على جنكيزخان...

ولم يشذ قدماء المصريين والصينيين عن هذه العقيدة.

عقيدة المصلح عند الأديان السماوية التي سبقت الإسلام:

عند اليهود:

ومن بنود العقائد اليهودية: ظهور مصلحٍ عظيمٍ، يخرج في آخر الزمن، فيقيم ما فسد من أخلاق الناس، ويصلح ما غيّرته القوانين والأنظمة الوضعية من طباع المجتمع، وتحدّث ابن القيّم عن هذا المصلح الذي تنتظره اليهود بقوله: «**إنّهم ـ أيْ: اليهود ـ ينتظرون قائماً من ولد داود النبيّ، إذا حرّك شفتيه بالدعاء ماتت جميع الأمم، وإنّ هذا المنتظر ـ بزعمهم ـ هو المسيح الذي وعدوا به**»(٧).

أمّا كيفية ظهور مصلح اليهود هذا، وكيف هو منهجه الَّذِي يسير عليه، فعن أشعياء في الإصحاح الحادي عشر:

«**يخرج قضيب من جذع يسى، وينبت غصن من أصوله، ويحلّ عليه روح الربّ، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، روح المعرفة ومخافة الرب. ولذته تكون في مخافة الربّ، فلا يقضي بحسب نظر عينيه، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه. بل يقضي بالعدل للمساكين، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض، ويضرب الأرض بقضيب فمه، ويميت المنافق بنفخة شفتيه. ويكون البرّ منطقة متنيه، والأمانة منطقة حقويه. فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمن معاً وصبي صغير يسوقها. والبقرة والدبة ترعيان. تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تبنا. ويلعب الرضيع على سرب الصّل، ويمدّ الفطيم يده على حجر الأفعوان. لا يسوؤون ولا يفسدون في كلّ جبل قدسي؛ لأنّ الأرض تمتلئ من معرفة الربّ كما تغطي المياه البحر. ويكون في ذلك اليوم (...) ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضمّ مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض**»(٨).

فانظر ـ أيّدك الله ـ إِلَى الأوصاف المذكورة للمصلح كيف هي متطابقة في بعض تفصيلاتها مع عقيدة المسلمين في المهدي المنتظر عليه السلام.

وقد وضع اليهود في أسفارهم أمارات وعلامات لظهور المصلح الذي ينتظرونه، وهي:

١. اجتماع الأسباط العشرة وخضوعهم لملك واحد من بيت داود.
٢. هزيمة شعبي يأجوج ومأجوج.
٣. انشقاق جبل الزيتون.
٤. جفاف وادي مصر.
٥. خروج ماء عذب في أورشليم ومن بيت المقدس.
٦. التماس عشرة رجال من مختلف شعوب العالم من يهودي بالقبض على طرف ثوبه والذهاب معه؛ لأنّهم سمعوا أنَّ الله مع اليهود.
٧. هجرة سائر الشعوب إلى أورشليم ليصلّوا فيها لله.
٨. القضاء على الأشرار في الأرض، وقد ذهبوا إلى أنَّ المسيح لن يأتي إلا بعد القضاء على حكم الأشرار من الخارجين على دين بني إسرائيل، لذلك يجب على كلّ يهودي أن يبذل جهده لمنع اشتراك باقي الأمم في الأرض، كي تظلّ السلطة لليهود وحدهم. وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب، ويهلك ثلث العالم، ويبقى اليهود سبع سنوات متواليات، يحرقون الأسلحة التي كسبوها بعد النصر، وفي ذلك اليوم تكون الأمة اليهودية غاية في الثراء؛ لأنّها تكون قد ملكت كلّ أموال العالم، وستملأ كنوزهم بيوتاً كبيرة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها إلا على ثلاثمائة حمار، ويدخل الناس كلهم أفواجاً في دين اليهود، ويقبلون جميعاً عدا المسيحيين، فإنّهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان[٩].

ويمثّل هذا البند الأخير أنانية اليهود وحقدهم البالغ على جميع الأديان خصوصاً المسيحية، كما فيه دعوة إِلَى اليهود بالاستيلاء على جميع ثروات العالم، حتى تكون الأُمم والشعوب خاضعة لهم.

عند النصارى:

قد عانت الجمهرة المؤمنة من المسيحيين ضروباً شاقة وعسيرة من الجور والاضطهاد في زمن السيد المسيح وما بعده، فقد نزل بهم من البلاء ما لا يوصف في عهد نيرون سنة (٦٤م)، وفي عهد تراجان سنة (١٠٦م)، وفي عهد ديسيون سنة (٢٤٩ - ٢٥١).

ففي عهد نيرون اشتدّ بهم العذاب، فقد اتّهمهم بأنّهم هم الذين أحرقوا روما، فعذّبهم بأنواع العذاب، فكان يضع بعضهم في جلود الحيوانات، ويطرحونهم للكلاب فتنهشهم، كما ألبس بعضهم لباساً مطلية بالقار، وجعلهم مشاعل يستضاء بها. وكان نيرون نفسه يسير في ضوء تلك المشاعل التي أوقدت من جسوم الأبرياء. وفي عهد تراجان أنزل بهم الذل والعذاب الأليم، ومن جرّاء كثرة التعذيب وصل الأمر إِلَى أنْ تخلّى فريق من النصارى عن دينهم، وصلوا على الأرباب، وهي الأصنام، وقدموا لها الخمور والبخور، وشتموا السيد المسيح عليه السلام. واستمرّ الاضطهاد والتعذيب للنصارى حتى بعد هلاك تراجان، فقد أنزل بهم (ديسيوس) من البلاء ما تقشعر له الأبدان.

وعموماً، فإنّ عهود الاضطهاد على المسيحين بعد غياب عيسى عليه السلام عنهم أربعة:

١. **عهد نيرون ٦٤م.**
٢. **عهد تراجان ١٠٦م.**
٣. **عهد ديسيوس ٢٥١م.**
٤. **عهد دقلديانوس ٢٨٤م**[١٠].

وقد حدثتنا بعض الروايات الإسلامية بهذه المحنة التي نزلت بأتباع السَّيِّد المسيح عليه السلام، فعن ابن مسعود قال: «**كنت رديف رسول الله ' على الحمار فقال: يا ابن أمّ عبد، هل تدري من أين أحدثت بنو إسرائيل الرهبانية؟ فقلت:**

الله ورسوله أعلم. فقال: ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى عليه السلام يعملون بمعاصي الله. فغضب أهل الإيمان فقاتلوهم فهُزِم أهل الإيمان ثلاث مرات. فلم يبق منهم إلّا القليل. فقالوا: إنْ ظهرنا لهؤلاء أفنونا، ولم يبق للدين أحد يدعو إليه. فتعالوا نتفرّق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا به عيسى ـ يعنون محمداً ﷺ ـ، فتفرقوا في غيران الجبال، وأحدثوا رهبانية، فمنهم من تمسّك بدينه، ومنهم من كفر»[11].

ومن منطلق ما ذكرنا من فطرية رفض الإنسان للظلم ومبارزته له والانتصار عليه، آمن المسيحيون بأنّ السيد المسيح هو المصلح المنتظر، والقائم بالحق والعدل، وأنّه لا بدّ من عودته إلى الأرض ليقيم دولة الفكر والعلم، ويبسط الأمن والرخاء في جميع أنحاء العالم، ولنستمع إلى بعض ما صرحت به أناجيلهم في هذا المضمار:

إنجيل متى:

ـ بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس، والقمر لا يعطي ضوءه، والنجوم تسقط من السماء، وقوات السماوات تتزعزع، وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان في السماء، وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض، ويبصرون ابن الإنسان آتياً على سحاب السماء بقوّةٍ ومجدٍ كثير، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت، فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصى السماء إلى أقصائها[12].

إنجيل يوحنا:

ـ الحقُّ الحقُّ أقول لكم: إِنَّه سيأتي ساعة، وهي الآن: حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون (...) ولا تتعجبوا من هذا؛ فإنّه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الَّذِين في القبور صوته، فيخرج الَّذِين فعلوا الصالحات إِلَى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إِلَى قيامة الدينونة[13].

إنجيل لوقا:

ـ وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم، وعلى الأرض كُرَبٌ، أُمم بحيرةٍ، البحر والأمواج تضجّ، والناس يغشى عليهم من خوف انتظار ما يأتي على المسكونة؛ لأنّ قوّة السماوات تتزعزع، وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتياً في سحابة بقوّةٍ ومجدٍ كثير، ومتى ابتدأت هذه تكون فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم؛ لأنّ نجاتكم تقترب(١٤).

إلَى غير ذلك من كلمات الإنجيل الكثيرة في هذا المضمار.

والغاية من استعراض هذه الكلمات من العهدين: القديم والجديد، وكلمات بعض من لا يؤمن بالغيب، ليس هو بيان صحة ما ذهبوا إليه، بل ما نرمي إليه ـ ما عرفت ـ من أنَّ انتظار الإنسانية لمن يأتي ويرفع عنها الظلم والجور الَّذِي منيت به على مرّ تاريخها، هو أمرٌ مفروغٌ عنه ومسلّم، وليس ذلك إلَّا لفطريته، وإنْ اختلفت التسميات عندهم، في كونه: ابن الله تارةً، وابن الإنسان أخرى، والمسيح أو المخلّص ثالثةً، وبوذا، ولذريق، وجنكيز خان، ووو... غيرها من القائمة الطويلة من التسميات.

والاختلاف في التسميات لا يؤثّر بوجه على فطرية الاعتقاد بالمسمى، وإنّما نشأ الاختلاف من الخطأ في التطبيق ليس إلَّا.

هذا، والحمد لله أوّلاً وآخراً، وظاهراً وباطناً...

* * *

الهوامش:

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللُّغة ٤: ٥١٠، تحقيق وضبط: عبد السَّلام مُحَمَّد هارون، نشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، قم.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر: دار صادر، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ، بيروت.

(٣) راجع: نظرية المعرفة: ٩٦.

(٤) الملا صدرا، المبدأ والمعاد: ٤٣٨، نشر: منتدى الحكمة والفلسفة في إيران، تصحيح: السَّيِّد جلال الدين الآشتياني، الطبعة الأُولى ١٣٩٥هـ. ق، طهران.

(٥) الشهيد الصدر، السَّيِّد محمد باقر، البحث حول المهدي عليه السلام: ٥٤، تحقيق: الدكتور عبد الجبار شرارة، نشر: مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأُولى ١٤١٧هـ.

(٦) برناردشو، للأستاذ عباس محمود العقاد: ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٧) القرشي، باقر شريف، حياة الإمام المهدي عليه السلام: ٢٠٣، نقلاً عن (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)، الطبعة الأُولى ١٤١٧هـ.

(٨) الكتاب المقدّس (العهد القديم): ١٠٠٦، نشر: دار الكتاب المقدس ١٩٨٠م.

(٩) حياة الإمام المهدي عليه السلام: ٢٠٤، نقلاً عن قصة الديانات: ٣٧٦، مرجعٌ سابق.

(١٠) انظر: شلبي، يوسف متولي، أضواء على المسيحية: ٢٤، نشر: الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأُولى ١٩٦٨م. حياة الإمام المهدي عليه السلام: ١٩٩، مرجعٌ سابق.

(١١) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار ١٤: ٢٧٧، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٠٣، دار إحياء التُّراث، بيروت.

(١٢) الكتاب المقدس (العهد الجديد): ٤٥، نشر: دار الكتاب المقدس ١٩٨٠م.

(١٣) المصدر نفسه: ١٥٤.

(١٤) المصدر نفسه: ١٣٦.

إطلالة على واقع الوحدة الإسلامية

في ساحل العاج

❐ الشيخ علي ناصر (*)

أولاً: المقدمة

تعود تسمية ساحل العاج، أو كوت ديفوار بالفرنسية (Côte d'Ivoire)، إلى أنَّ التجار الأفارقة كانوا يجمعون أنياب الفيلة ويعرضونها للبيع في أكوام على سواحلها، فأخذت اسمها من تجارة العاج.

أمّا على مستوى الموقع الجغرافي، فتقع ساحل العاج على شاطئ أفريقيا الغربي المطلّ على المحيط الأطلسي. تحدُّها من جهة الشرق غانا، ومن جهة الغرب غينيا وليبيريا، ومن جهة الشمال جمهورية مالي وبوركينا فاسو، ومن جهة الجنوب المحيط الأطلسي.

تبلغ مساحة ساحل العاج ٣٢٢،٤٦٢ كلم مربع، ويبلغ عدد سكانها حوالي

(*) باحث في الشريعة والقانون الدولي.

٢٠ مليون نسمة. اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية للبلد، إضافة إِلَى لهجات عديدة، بحسب لغات القبائل، التي تشكّل الشعب العاجي؛ إذ يتكوّن السكان من عدد كبير من القبائل منها الباولي ٢٣٪، بيتي ١٨٪، سينوفو ١٥٪، مالينكي ١١٪. ويتكوّن سكّان ساحل العاج من العناصر الزنجية، بينهم أقلية من البيض، بعضهم من أصل لبناني، عاصمتها السياسية مدينة ياموسوكرو، بينما أكبر مدنها ومركزها الاقتصادي مدينة أبيدجان في الجنوب قرب الساحل. في عام ١٨٤٣م، أصبحت ساحل العاج تحت الحماية الفرنسية، وفي عام ١٨٩٣، أصبحت مستعمرة فرنسية، وأصبحت دولة مستقلة في٧ أغسطس ١٩٦٠.

تنقسم ساحل العاج إلى ٥٨ ولاية (départements)، وتتكوّن أرض ساحل العاج من سهول ساحلية تبلغ ثلث مساحتها، تمتد بجوار شواطئها، وتربة السهول خصبة تنمو فيها الغابات، ويعتمد اقتصادها إلى حدٍّ كبيرٍ على الزراعة، من خلال إنتاجها للقهوة، والكاكاو. الواقع أنَّ الزراعة هي حرفة السكان الأساسية، وقد تخصَّص القسم الشمالي من البلاد في إنتاج الغلّاة الزراعية الغذائية مثل الأرز، والذرة، والموز، بينما ينتج القسم الجنوبي المطاط، والكاكاو، والبن، فساحل العاج هي الثالثة في إنتاج البن، والخامسة في إنتاج الأناناس، والموز، ويُزرع فيها القطن، وقصب السكر. وتشكّل الأخشاب ثروة عظيمة تسهم بخمس صادراتها، وتنتج القصدير، والحديد، والمنيزيوم، والذهب، والماس، من مناجمها[1].

من هنا تبرز أهمية أن نقوم بدراسة واقع الوحدة الإسلامية في هذا البلد الأفريقي الكبير، والمهم، والغني بموارده الطبيعية، ومنتجاته الزراعية، والذي يشكِّل المسلمون فيه نسبة لا يُستهان بها، ويرأسه مسلم لأول مرّة في تاريخه، وإن كانت المصالح الدولية، والصراع على السلطة، والنفوذ الأجنبي، يشكّل أحد أسباب وصوله إلى سُدَّة الحكم، إضافة إِلَى امتلاكه شعبية كبيرة.

والأهم من ذلك أن الاهتمام بأمور المسلمين واجب ديني، وأداء للتكليف الشرعي، فقد ورد عن رسول الله ' أنّه قال: «**من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم**»[٢].

ولعلَّ المفيد، في معالجة موضوع الوحدة الإسلامية، هو عدم الاكتفاء بالمعالجة النظرية، فلا بد من الإطلالة على الواقع الراهن. وفي هذا السياق كان لا بد من تناول مستلزمات الوحدة الإسلامية في ساحل العاج، وأهم الإنجازات التي حققها المسلمون في هذا البلد، الذي يستضيف عدداً كبيراً من اللبنانيين، ومعظمهم من المسلمين الشيعة، الذين سيلعبون دوراً في تفعيل أطر الوحدة الإسلامية في ساحل العاج عملياً. أضف إلى ذلك أهم الجمعيات الإسلامية، وعلى رأسها المجلس الأعلى للأئمة، والتحديات التي تواجه المسلمين في هذا البلد، الذي يشكّل محور، ومركز، دول غرب أفريقيا.

ثانياً: الإسلام في ساحل العاج (الإنجازات):

يشكِّل المسلمون ـ على مستوى التوزيع الديني للشعب العاجي ـ نحو ٦٥٪ من سكان ساحل العاج، وهم يؤدّون الصلاة، والصيام، والزكاة؛ وفقاً لما تقتضيه تعاليم الإسلام، والعديد منهم يؤدّون فريضة الحج باعتبارها أمراً إلزامياً. معظم المسلمين هم من أهل السُّنة، ويتَّبعون المذهب المالكي. الطريقة الصوفية ساهمت في نشر الإسلام، وهي أيضاً منتشرة على نطاق واسع[٣]..

قد يعود أحد أسباب النجاح النسبي للإسلام في ساحل العاج، الذي كان يُنظر إليه على أنّه بديل للدين الأوروبي، أنّه يتوافق مع العديد من جوانب الثقافة الأفريقية، مثل: تعدّد زوجات الرجل، الأمر الذي عارضه المبشّرون المسيحيون. أضف إلى ذلك أنَّ الإسلام لا يميِّز بين إنسان وآخر على أساس لون البشرة، أو العِرق، أو الجنسية، فقد ورد عن رسول الله ' أنّه قال: «**لا**

فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى»[٤].

لقد دخل الإسلام إِلَى ساحل العاج منذ القرن الرابع عشر الميلادي عن طريق التجار المسلمين القاطنين في جمهورية مالي على الحدود المتاخمة لشمال وشمال غرب ساحل العاج؛ حيث كانوا يقومون بسفرات متعددة بين فترة وأخرى إلى ساحل العاج، وأكثرية هؤلاء التجار يعودون إلى قبائل مالنكي، المشهورة باعتناق أفرادها للإسلام[٥]. و قد شيّد المسلمون الذين استقروا في المناطق الشمالية مدينتي بوندوكو، وكونغ، ثم بادروا إلى نشر الإسلام وتبليغه بين سكان هذه المنطقة، كما أسّسوا المساجد ومدارس تعليم القرآن الكريم. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر للميلاد أخذ انتشار الإسلام يتّسع في ساحل العاج، إلى درجة أصبح فيها المسلمون يشكّلون أكثرية سكان البلد.

أمّا على مستوى (الوحدة الإسلامية)، فيدعو إليها الكتاب المقدَّس للمسلمين حيث يقول: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وكي يصل المسلمون إلى تحقيق هذا الهدف، الذي لا يمثِّل مجرَّد مطلب، أو رغبة، أو توجُّه، لدى العاملين للإسلام، بل يمثِّل مسألة حياة أو موت، بالنسبة إلى المسلمين، كما يشكّل ركيزة وجودهم واستمرارهم، لا بد لهم من إخراج الوحدة الإسلامية من بطون الكتب، وإيجادها على أرض الواقع، وحمايتها، وهذا ما يمثّل صوناً لمقدسٍ بارزٍ من المقدسات، وللموقع الأساسي الذي يضمن قوّة المسلمين واستمرارهم، ولا سيما أنّهم يدعون إلى التوحيد. وهذا ما يحتاجه المسلمون في ساحل العاج، ولا سيما أنّهم لا يزالون في بداية طريق تعرفهم على الإسلام، عقيدة، وأحكاماً، ومفاهيمَ، وسيرةً، وأخلاقاً، وأنّهم في موقع التنافس السياسي مع العاجيين المسيحيين[٦]. وهذا ما أشار إليه العلامة فضل الله؛ وذلك في معرض استقباله رئيس مجلس أئمة المسلمين في ساحل

العاج، حيث دعا سماحته إلى التعاطي مع ما تنتجه المذاهب والفرق الإسلامية المتعددة على الصعيد الفقهي، والفكري، والأصولي، وما إلى ذلك، فهو يُمَثِّل تراثاً إسلامياً يُغني المذاهب، ويشكّل بمجموعه نتاجاً إسلامياً يحتاجه الجميع. وفي هذا اللقاء أشار رئيس مجلس أئمة المسلمين في ساحل العاج، أبو بكر فوفانه، إلى التجارب الإسلامية المتعددة للعمل الإسلامي في أفريقيا، والاختلافات التي يعيشها المسلمون، وتأثيراتها في ساحاتهم الداخلية، وفي وحدتهم وتماسكهم، وفي مشاريعهم الثقافية والفكرية، مؤكداً على أهمية العمل المؤسساتي المدروس، الذي يأخذ في الاعتبار الظروف المحيطة بحركة الدعوة، والمؤثرات الاجتماعية، والسياسية، وغيرها(٧).

وينتمي المسلمون في ساحل العاج إِلَى الإسلام بمذاهبه الخمسة المشهورة، فتاريخ التشيّع في ساحل العاج يرجع إِلَى تاريخ الدولة الفاطمية في إفريقيا؛ لأنّ المسلمين الذين قاموا بنشر الإسلام في ساحل العاج كانوا يدينون بالمذهب المالكي عملياَ، فإنّهم يظهرون محبتهم وتعاطفهم لأهل بيت النبي ^ .

وأمّا التشيّع المذهبي، فقد دخل في ساحل العاج عن طريق اغتراب اللبنانيين والسوريين في البلد، وبسبب علاقاتهم مع المواطنين. وأمّا تاريخ التشيّع الحركي في ساحل العاج، فيعود تاريخه قبيل الثورة الاسلامية في إيران، حيث أرسل الامام الخميني‌رحمه‌الله المرحوم السيّد الرشيد الموسوي ليكون وكيله في ساحل العاج. فبذل السيّد المرحوم جهوده لتعريف عقيدة أهل البيت ^ في الأوساط الدينية، والثقافية.

وبعد الثورة الإسلامية في إيران، أعطت الجمهورية الإسلامية وعياً جديداً للشعوب المسلمة عامةً، ولمسلمي ساحل العاج بخاصةٍ، ففتحت لهم أوسع مجال لإرسال الطلاب إلى الحوزات العلمية في إيران، وفي الحوزات التابعة في سورية، ولبنان، وسيراليون، وغانا، الخ..

أ) بداية إنشاء الجمعيات الإسلامية في ساحل العاج:

في سنة ١٩٥٣م، ولدت الجمعية الإسلامية الأولى التي وضع أسسها، الرئيس السابق لجمهورية (غينيا كوناكرى) السيد سيكوتوري عام ١٩٥٣م في جمهورية السنغال، وكانت مدينة (داكار) عاصمة السنغال، عاصمة جميع دول غرب إفريقيا. ومن ثمّ تمّ تأسيس فرع ساحل العاج بتاريخ ١٩/ ١١/ ١٩٥٧م، برئاسة السيد دافي الغيني الجنسية، ثمّ تمّ تعيين السّيّد الحاج بيما كوليبالي العاجي الجنسية رئيساً له عام ١٩٦٠م، وهو عام الاستقلال في ساحل العاج، واستمرت رئاسته حتى عام ١٩٧٧م، وكانت هذه الجمعية اتحاداً اسمه: (الإتحاد الثقافي الإسلامي). وتتابع تأسيس الجمعيات والاتحادات من ذلك الوقت، الذي ازدهرت فيه الجمعيات والمنظمات الإسلامية، وكانت أهمّ أهداف تأسيس هذه الجمعيات كالآتي:

١. تجميع المسلمين في اتّحاد واحد.
٢. الوقوف بحسم أمام استغلال الخلافات المذهبية في الإسلام.
٣. تنظيم الجهود في المجال التعليمي، وتقويته، وتحسينه، بما يلائم التطورات الحديثة.
٤. العمل على إيفاد طلّاب المدارس العربية إلى العالم العربي للتزوّد بالثقافة الإسلامية.
٥. تنظيم الشؤون الإسلامية في البلاد.
٦. تنظيم حملة الحج ومرافقة الحجاج إلى الأراضي المقدسة.

ب) أهم الجمعيات والمنظمات الإسلامية:

ولا بدّ لنا في هذه العجالة من ذكر أهمّ الجمعيات والمنظمات، التي تمّ تأسيسها في ساحل العاج، قبل الاستقلال وبعده، حتّى نعطي فكرة تامّة للقرّاء

الكرام:

١. الاتّحاد الثقافي الإسلامي.
٢. جمعية أنصار السُّنَّة.
٣. اتّحاد مدرِّسي اللغة العربية.
٤. المجلس الأعلى الإسلامي.
٥. الاتّحاد الثقافي اللبناني.
٦. المجلس الوطني الإسلامي.
٧. رابطة الدعاة.
٨. جمعية التلاميذ والطلاب المسلمين.
٩. الأمة الإسلامية.
١٠. اتّحاد الكوادر المسلمين.
١١. جمعية النساء المسلمات.
١٢. منظمة مدرّسي المدارس النموذجية.

ج) المجلس الأعلى للأئمة:

١. نشأة المجلس الأعلى للأئمة:

انطلاقاً من إحساسهم بمهمتهم المقدسة ألا وهي مواصلة مهمّة رسل الله وأنبيائه ﷺ ، وعملاً بقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وتمسّكاً بشعارهم من قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ومحاولةً لوضع حدٍّ للفوضى التي كانت متفشية عند كلّ حدث إسلامي عظيم في البلد، خاصة ما كان يحدث في تحديد اليوم الأوّل من شهر رمضان المبارك، وأيام

الأعياد الإسلامية، وذلك لغياب جهة رسمية ممثِّلة للمجتمع الإسلامي العاجي وناطقة باسمه، قام نفر من الأئمة الأفاضل في عام ١٩٨٧م للتصدّي لهذا الواقع المؤسف بإنشاء جمعية باسم (المجلس الأعلى للأئمة)؛ للتنسيق بين الأنشطة الإسلامية عامة، ولإعلان أيام بداية ونهاية شهر رمضان، ويوم عيد الأضحى المبارك، ولتمثيل المجتمع الإسلامي لدى السلطات في ساحل العاج. وبالتالي فإنّ المجلس الأعلى للأئمة، هو أعلى سلطة دينية مشرفة على الشؤون الإسلامية والمسلمين، في ساحل العاج، ويعتبر تأسيسه كمنطلق جديد في تأريخ الدعوة الإسلامية في ساحل العاج، حيث تمّ وضع إدارة الشؤون الإسلامية بيد أهل العلم والخبرة.

٢. الأهداف الأساسية للمجلس الأعلى للأئمة:

ويسعى المجلس الأعلى للأئمة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١) تمثيل المجتمع الإسلامي لدى السّلطات العامة في ساحل العاج؛ لأنّه ناطقٌ رسميٌّ باسم المسلمين في الدولة.

٢) إعلان تواريخ الأعياد والمناسبات الإسلامية، كبداية شهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، وبداية العام الهجري.

٣) إصدار الفتوى حول الأحكام الشرعية، والقضايا المعاصرة.

٤) وضع ميثاق الإمامة للأئمّة والسهر على تطبيقه.

٥) تنسيق الخطب المنبرية.

٦) إعداد وتدريب الدعاة، وخطباء المساجد نظرياً، وتطبيقاً.

٧) إعداد دورات تدريبية للأئمة والدعاة لمواجهة التحديات المعاصرة.

٨) السعي إلى تطوير وترقية وظيفة الإمام معنوياً، ومادياً، حتى يؤدّي المسجد دوره الرّسالي في ترشيد الأمّة الإسلامية، وتوجيه المواطن العاجي.

٩) السعي إلى التقارب والتنسيق بين المؤسّسات الإسلامية في العالم، وفي منطقة غرب أفريقيا على وجه الخصوص؛ لتوحيد جهودها وبرامجها في مجال الدعوة الإسلامية، والإمامة.

١٠) الإشراف على مؤسّسات تعليم الدين الإسلامي، واللغة العربية (لغة القرآن).

١١) السعي لتعليم اللُّغة العربية ونشرها في المجتمع العاجي؛ وذلك بإدخال برنامج الحكومة في المدارس العربية.

١٢) الإشراف على المشروعات التنموية كبناء المساجد، والمدارس، والمستشفيات، ودور الأيتام، وحفر الآبار، وغير ذلك.

١٣) السعي إلى إقامة حوار مثمر، وبنّاء، مع أهل الملل والأديان الأخرى، وبخاصة المسيحيين.

٣. إنجازات أساسية للمجلس الأعلى للأئمة:

وقد تحقّق ـ بفضل الله تعالى ـ إنجازات مهمّة، نذكر منها:

١. تأسيس المجلس الأعلى للأئمّة برئاسة الشيخ أبو بكر فوفانا؛ إذ كان المسلمون متفرّقين سابقاً.

٢. تأسيس راديو البيان الإسلامي الناطق بكلّ اللُّغات المحلية، والفرنسية، والعربية.

٣. إحصاء أئمّة المساجد، وإعداد بطاقات خاصّة بهم، تتضمّن بعض المعلومات الهامة، كاسمه، وتوصيفه العملي، والمسجد الذي يؤم المصلين فيه.

٤. إصدار مجلّة شهرية اسمها (الإسلام).

٥. إقامة دورات لأئمة المساجد، في المجال الثقافي، والتبليغي.

٦. تأسيس جامعة لتأهيل أئمّة المساجد تسمى: (الجامعة الإسلامية لتأهيل

الأئمة).

٧. تأسيس (جمعية الطلاب المسلمين)، التي تنسِّق النشاطات الثقافية للطلاب المسلمين في ساحل العاج.

٤. منظمة المدارس الإسلامية في ساحل العاج:

منظمة المدارس الإسلامية هي: جمعية إسلامية تربوية غير حكومية، تأسّست بتاريخ ١٨/٨/٢٠٠٠م، على أيدي بعض المدرّسين في المدارس الإسلامية والعربية، في العاصمة أبيدجان.

الهدف الأول للمنظمة هو: تنظيم التعليم الإسلامي والعربي في ساحل العاج، وإيجاد علاقات تربوية بين المدارس والمدرِّسين في البلاد، حتى ينهض التعليم الإسلامي والعربي، ويتطور في ظل الدولة العلمانية[٨]. والحمد لله الذي وفّق المنظمة لإنجاز الكثير من أهدافها، منها:

١) توحيد المنهج الدراسي في جميع المدارس الإسلامية والعربية، المنتسبة إلى المنظمة في البلاد، وهو الأمل الذي كانت تتطلع إليه المدارس الإسلامية في ساحل العاج منذ زمن بعيد.

٢) توحيد الامتحانات في نهاية كلّ سنة دراسية، بما يتوافق مع المدارس الحكومية؛ لأنّ تلاميذ المدارس الإسلامية الذين في مستوى الشهادات الابتدائية يمتحنون مع تلاميذ المدارس الحكومية.

٣) توحيد الشهادات الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، في جميع المدارس الإسلامية، والعربية، وكذلك الامتحانات الداخلية، فتمكنت المنظمة من القضاء على هذه الفوضى.

٤) تنظيم الدورات والمؤتمرات التدريبية التربوية على مدار السنة، وبالتعاون مع المنظمات الدولية، كإيسيسكو، ويونسكو، وهكذا الدورات الوطنية.

٥) تأليف بعض الكتب المدرسية على المستوى الابتدائي، من الصفّ الأوّل إلى الصفّ السادس، وإقرار تدريس هذه الكتب في المدارس الإسلامية، والعربية، على أساس توحيد المناهج.
٦) إجراء عملية إحصاء لجميع المدارس الإسلامية والعربية في أنحاء البلاد، وهذا بالتعاون مع منظمة إيسيسكو.
٧) إنشاء مشروع التعليم على آلة الحاسوب في جميع المدارس الإسلامية لتنمية معلومات التلاميذ في التكنولوجيا الحديثة.
٨) إتاحة الفرصة للمدارس الإسلامية، والعربية؛ للحصول على لوحات التصريح الحكومي.

د) جمعية الغدير الثقافية الإسلامية في ساحل العاج:

جمعية الغدير ثقافية، خيرية، اغترابية، قانونية، تأسّست في ساحل العاج سنة ١٩٩٦م، وهي تعمل على رعاية شؤون الجالية اللبنانية، وتنمية أفرادها من النواحي الثقافية، والتربوية، والاجتماعية، والصحية، والكشفية، والرياضية، مستفيدة من الإدارة الحديثة، ووسائل التكنولوجيا؛ لتنشئ جيلاً مسلماً متديناً، يؤمن بجميع الرسل والأنبياء، ومتعلماً واعياً، يؤمن بالإنسانية، واحترام الآخر، واعتماد الحوار البنّاء والفعّال معه، ومساعدة الفقراء والمحتاجين، من اللبنانيين، والعاجيين. وتتعاون جمعية الغدير مع الجمعيات الأخرى، ومكتب الجامعة الثقافية اللبنانية في العالم، ورئاسة الجالية اللبنانية، والسفارة اللبنانية، لما فيه مصلحة الجالية اللبنانية، والشعب العاجي. وتُسهم جمعية الغدير في التقريب بين المذاهب الإسلامية؛ إذ أنَّ القيّمين عليها من المسلمين المنفتحين على بقية المسلمين في ساحل العاج، وتتعاون مع عدد كبير من علماء الدين العاجيين، بغضّ النظر عن مذهبهم الإسلامي، وهي تبني علاقات مميزة مع المجلس

الأعلى للأئمة، وإذاعة البيان، وغيرها من المؤسّسات الإسلامية العاجية، وكذلك تقدّم المساعدات لكلّ أبناء الشعب العاجي بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية، فلديها موظفون مسلمون ومسيحيون وهي تقدّم المساعدات الاجتماعية للفقراء والمحتاجين من الجالية اللبنانية، والشعب العاجي، ما استطاعت إليه سبيلاً. أضف على ذلك أنها ساهمت ولا تزال في مشروع المصالحة بين العاجيين، مسلمين ومسيحيين. أضف إلى ذلك بعض الأنشطة[9] التي تقوم بها الجمعية، والتي من شأنها أن تعزِّز روح التواصل، والتعاون، والمحبة، بين المسلمين، بمختلف انتماءاتهم المذهبية. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١. **القيام بزيارات تواصلية متنوّعة**: من قبيل زيارة راديو البيان.
٢. **تكريم الحجاج العاجيين**: الذين يشاركون سنوياً في حملة الولاية، التابعة لجمعية الغدير، والتواصل البنّاء معهم.
٣. **مائدة الإفطار السنوي للعلماء العاجيين**: التي تُقام كلّ سنة بحضور لفيف من العلماء، في أجواء ملؤها الأخوة والإيمان والتعاون، ويلبّى دعوة المائدة حشدٌ غفيرٌ من العلماء العاجيين، وأئمة المساجد، وطلاب الحوزة العلمية. وتُقام هذه الدعوة عادة من قِبل جمعية الغدير الخيرية الذي تقيمها توطيداً لأواصر العلاقة بين مختلف المذاهب، في مطعم (الكارافيل ـ ترشفيل). ويتخلّل الإفطار عادةً تلاوة عطرة من القرآن الكريم، ثم يتناوب العلماء ورؤساء الجمعيات على إلقاء الكلمات التي يؤكّد فيها على العلاقة مع الأخوة في الجالية اللبنانية، ومع القيِّمين على جمعية الغدير.
٤. الإفطار الرمضاني السنوي: وذلك بمناسبة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، و (يوم القدس العالمي)؛ إذ تقيم جمعية الغدير في أبيدجان إفطارها السنوي في مجمع الزهراء عليها السلام الثقافي، وقد حضر

الإفطار الأخير، في العام ٢٠١١م، حشد كبير من أبناء الجالية، تقدمهم سماحة الشيخ عبد المنعم قبيسي، الذي رأى أنَّ إعلان الإمام الخميني رحمه الله (يوم القدس العالمي) هو لتبقى قضية القدس بكلّ أبعادها حاضرة في وجدان المسلمين، كما أشار فضيلته إلى أهمية مشاركة الجالية اللبنانية في مشروع المصالحة بين العاجيين، ورئيس لجنة الحوار والمصالحة في ساحل العاج السيد شارل كونا باني، الذي شرح فيها مفهوم المصالحة المتوازنة، وصرَّح بأن الجالية اللبنانية هي جزء لا يتجزأ من الشعب العاجي وقبيلة من قبائله، وسفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية في ساحل العاج السيد رضا نوبختي، وسفير ساحل العاج في المملكة العربية السعودية السيد بازومانا توري، والقنصل الفلسطيني في أبيدجان السيد بياري خطّاب، وسماحة الشيخ علي خشاب، ورئيس جمعية الغدير الدكتور علي بدير، ومدير عام جمعية الغدير الشيخ الدكتور علي ناصر، ومدير معهد أهل البيت عليهم السلام الشيخ علي فلاح، وسماحة الشيخ وهيب مغنية على رأس وفد من جمعية الهدى، والحاج إسماعيل بحسون على رأس وفد من جمعية البر والتعاون، والسفير البابوي في ساحل العاج أمبور ماتا، ورئيس الإرسالية اللبنانية المونسنيور حنا مرقص، والمسؤول الاجتماعي للمجلس الأعلى للأئمة الشيخ أحمد دجالو، وعدد من الشخصيات، والفعاليات، الاجتماعية، والاغترابية، والعاجية، واللبنانية.

٥. إنشاء مؤسّسة أهل البيت ^ لنشر الإسلام في ساحل العاج: جمعية إسلامية مرخصة ومسؤولة أمام الدولة[١٠]، وينتمي إلى هذه المؤسسة عددٌ كبيرٌ من المشايخ وطلاب العلم، وتقوم المؤسسة بمهام عديدة، منها:

ـ متابعة شؤون المبلغين، وتنظيم مدارسهم، وكلّ أنشطتهم.

ـ إقامة دورات تربوية، وعلمية، لمدراء المدارس الدينية.

ـ دعم الطلبة للحصول على المنح الدراسية.

ـ التعليم الديني لشخصيات وفعاليات عاجية.

ـ تأسيس اتّحاد نساء نور أهل البيت ^ (UFENABCI).

ـ التعليم الديني لطلاب الجامعات؛ إذ أنَّ لديهم جمعية خاصة بهم، جمعية طلاب الجامعات في ساحل العاج.

ـ إحياء المناسبات الدينية: في شهر رمضان، وعاشوراء، وعيد الغدير، ومولد الرسول ' ، ومواليد أئمة أهل البيت ^ .

ثالثاً: التحديات التي تواجه المسلمين في ساحل العاج

ـ هناك عددٌ كبيرٌ من المسلمين الأفارقة من دول مجاورة مثل (بوركينا فاسو)، عاشوا في ساحل العاج سنوات طويلة، ووعدوا بإعطائهم الجنسية العاجية، ولكن بسبب حسابات سياسية لم يعطوا الجنسية، ما أدّى إِلَى وجود أزمة هوية تفاقمت مع الوقت.

ـ اللعبة السياسية الداخلية، والتجاذبات القائمة، وحبّ الرئاسة، والمنافسة على السلطة، وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة؛ إذ أنَّ كلّ زعيم سياسي يطمح في تأييد الزعامة الدينية له، وإلا فإنّه يعمل على تأسيس زعامة دينية ثانية معارضة للأولى، وتعمل على إضعافها، أو إرغامها على التعاون معها، وفق المصالح المرسومة.

ـ وجود مصلحة خارجية بعدم تحقيق الاستقرار الكامل في البلاد، وإبقاء شيء من التعارض بين الأحزاب والقوى السياسية والدينية، تحقيقاً لمصالحها الاقتصادية.

ـ وجود عوامل خارجية تشجّع على التعصُّب المذهبي، وتكفير الآخر، مستفيدة من ضعف النضج العقائدي، وعدم التسامح، ما يجعل الرؤية غامضة، وغير موضوعية، في كثير من الحالات. فالاختلاف أمر طبيعي، ولكن لا يجب أن يتحوَّل إلى تمزيقٍ للصفوف.

ـ انفصال جزء من علماء أهل السُّنَّة والجماعة عن المجلس الأعلى للأئمة، وتأسيسهم لمجلس آخر (مجلس أئمة السُّنَّة):
(CODIS: CONSEIL DES IMAMS SUNITES)

ـ تأسيس جمعية طلاب أخرى للمسلمين تسمى: (جمعية الموحِّدين).

ـ بناء مسجد ثاني في جامعة أبيدجان، في منطقة كوكودي، خاص بأهل السُّنَّة والجماعة، بالقرب من المسجد الذي بناه المجلس الأعلى للأئمة.

رابعاً: الاقتراحات

١) **الارتباط المباشر بين المفكرين**: لا يمكن بلوغ الهدف الكبير للتعارف والتقريب بين المذاهب الإسلامية سوى عن طريق الارتباط المباشر، ووجهاً لوجه، بين المفكرين من مختلف المذاهب الإسلامية، ومن مختلف مناطق العالم الإسلامي، والتآزر الفكري بينهم؛ لتوسيع الفكر التقريبي، وتكريسه بين جماهير الأمة الإسلامية، وتوعيته حيال مؤامرات أعداء الإسلام المثيرة للتفرقة، والتوجه نحو عقد مؤتمر للوحدة الإسلامية، وإيفاد الوفود التبليغية للخارج، ولا سيما إلى الجمهورية الإسلامية الإيرانية، حيث تمّ تأسيس المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية، الذي أنيطت إليه مهمة عقد مؤتمر الوحدة الاسلامية الدولي منذ العام ١٩٩٠م. وقد شارك حتى الآن في هذه المؤتمرات المئات من المفكرين، والعلماء، والشخصيات المثقفة،

والوزراء، وأساتذة الجامعات من مختلف المجامع العلمية، والثقافية، من الشيعة والسنة، حيث يقومون بتقديم مقالاتهم، وإلقاء كلماتهم، ووجهات نظرهم في مختلف المواضيع المهمة للأمة الإسلامية والمؤثرة في تحقيق الوحدة الإسلامية، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر العناوين الآتية:

أ. الأمة الإسلامية والخطط الاستراتيجية لمواجهة تحديات وحدتها.
ب. الإمام الخميني والوحدة الاسلامية.
ج. معطيات الوحدة الاسلامية.
د. التقريب بين المذاهب الإسلامية.
ه. رواد الوحدة الإسلامية.
و. دور التفاهم الفكري في التقريب بين المذاهب الإسلامية.
ز. أسس التقريب.
ح. القرآن والسنة من وجهة نظر المذاهب الإسلامية.
ط. السيرة والوحدة الإسلامية.
ي. الحكومة من وجهة نظر المذاهب الإسلامية.
ك. خصائص الإسلام العامة.
ل. الإسلام والأمة الإسلامية في القرن القادم.
م. الأمة الإسلامية .. آلام وآمال.
ن. مكانة أهل البيت ^ في الإسلام والأمة الإسلامية.
س. الأصالة والمعاصرة في فقه المذاهب الإسلامية.
ع. عالمية الإسلام والعولمة.
ف. الصحوة الإسلامية، آفاقها المستقبلية، وترشيدها.
ص. استراتيجية التقريب بين المذاهب الاسلامية.

ق. المسلمون في الأقطار غير الإسلامية، حقوقهم، واجباتهم، مشاكلهم وحلولها.

ر. خصائص السيرة النبوية الشريفة.

ش. إعلان الوحدة الاسلامية في نقد وإعادة نظر.

٢) **نبذ التعصب الطائفي، والمذهبي**: فالمشكلة اليوم لا تكمن فقط بين المذهبين الشيعي والسني، بل تتعداها إلى حساسيات بين المذاهب السنية نفسها، وبين السلفيين وغير السلفيين من المسلمين السُّنَّة، فالفكر التعصبي تضيق به الدوائر، فلا يستطيع تقبل الآخر، ويصبح محاصراً، ومنعزلاً مع الوقت. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الفكر التكفيري، بل إنَّ الأمر أصعب وأخطر؛ إذ أنَّ صاحبه لا يكتفي برفض الآخر، بل يتعداه إلى الممارسة العملية للعنف المسلَّح، وهدر دماء المسلمين، وقتل الأبرياء، فهو كالأعمى يتخبط خبط عشواء. ونسأل صاحب الفكر التكفيري، الذي لا يستطيع التعايش مع أخيه المسلم، كيف تفهم عالمية الإسلام، وأن النبي محمّداً ' بُعِث رحمةً للعالمين، إلى يوم الدين؟!

٣) **تعميق العلاقات الاجتماعية الإيجابية بين المسلمين**: فلا بد من حفظ المسلم لأخيه في حضوره، وغيابه، وفي عرضه، وماله، واعتماد الاحترام المتبادل، والحوار البنَّاء.

* * *

الهوامش:

(١) راجع: www.ar.wikipedia.org

(٢) الشيخ الكليني، الكافي، ط٤، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران-إيران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٥هـ.ش، ج٢، ص: ١٦٣.

(٣) توجد ٤ طرق صوفية في البلاد أبرزها القادرية، التي تأسست في القرن الحادي عشر، والتِّجانية التي تأسست في القرن الثامن عشر، وهي الأكثر شعبية.

(٤) الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، بيروت-لبنان، دار صادر، ج٥، ص: ٤١١.

(٥) لقد اعتنقوا الإسلام أيضاً لأنه وفَّر مفاهيم مبسَّطة، تنسجم مع الفطرة الإنسانية، عبر التجار الناجحين، والمسافرين من جميع أنحاء العالم. وهذا ما أدى في الثمانينات إلى أن يدعو ما يقرب من ربع العاجيين معظمهم من قبيلتي جولا ومالينكي أنفسهم مسلمين. راجع: www.ar.wikipedia.org

(٦) لاحظت من خلال تواجدي في هذا البلد أنه تمّ إحياء مناسبة مولد النبي عيسىعليه السلام، وعيد رأس السنة الميلادية، بطريقة مكلفة جداً على المستوى المالي، حيث تمّ إنارة الطرقات الرئيسية بزينة مكلفة جداً، ولمدة لا تقل عن شهرين. بينما تمّ إحياء عيد المولد النبوي الشريف بطريقة متواضعة، بالرغم من وجود رئيس مسلم على رأس الدولة.

(٧) استقبل سماحته رئيس مجلس أئمة المسلمين في ساحل العاج، أبو بكر فوفانه، يرافقه الشيخ عبد المنعم قبيسي، ومسؤول العلاقات الخارجية في تجمع العلماء المسلمين، الشيخ ماهر مزهر، وممثل سماحة السيد فضل الله في أبيدجان، الشيخ منير فاضل، وكان عرضٌ لشؤون العالم الإسلامي وشجونه، ومتطلبات المرحلة، سواء على صعيد مسؤولية المسلمين في تقديم الصورة الحقيقية عن الإسلام في العالم، والدفاع عنه في مواجهة الحملات التشويهية، أو على صعيد حفظ وحدة المسلمين في الداخل. راجع: ١٦٧٨٤٦/ www.altwafoq.net /index.php/article

(٨) والمنظمة مرخَّصة برقم التصريح الوزاري AG/ AT/ INT٢٩٠ ، بتاريخ ١٨/ ٨/ ٢٠٠٠م.

(٩) راجع: http://www.association-alghadir.org/newsdetails.php?id=٢٧٩

(١٠) ONG (ORGANISATION NON GOUVERNEMENTALE FONDATION AHLOULBAYT POUR LA PROMOTION DE L"ISLAM EN COTE D"IVOIR)

الإسلام في الأرجنتين

أندلسيون يعثرون على الحقيقة الضائعة في الأرجنتين

□ د: نضير الخزرجي(*)

تمهيد

دلّت التجارب البشرية أنَّ الفكرة أو النظرية أو المعتقد لا يمكن فرضها على مجتمع أو أمّة تحت أسنّة الرّماح وبمخالب العنف؛ لأنّ القبول بأيّ معتقد، وبالإكراه، وفي مقطعٍ زمنيٍّ سيؤول بعد فترة ـ ولو طالت ـ إلى ردّة ربما أشدّ من صدمة القبول الأولي المرغم. فالإنسان لا يمكن قسره على الإيمان بشيء إذا لم يتقبّله طواعية، حتى وإنْ كانت الغلبة العددية لأصحاب الفكرة؛ ولذلك امتنع الرسول محمد ' من إدخال الناس في دين الله تحت حدّ السيف رغم الضغوطات التي مارسها بعض الصحابة بعد أن ازدادوا عدةً وعدداً؛ لإعمال القوّة وجرّ الناس إلى الدين الجديد، فما لم يقدّره الخالق لنفسه رغم خالقيته للبشر فمن باب أولى لا يقدِّره لنبيٍّ أو مرسلٍ أو إمام، فشعار الجميع هو

(*) إعلامي وباحث وأكاديمي عراقي/ لندن.

الإصلاح، والإصلاح لا يأتي بالقهر، وإنْ أتى فهو إيمان مهزوز قابل للتبخر عند رفع غطاء القهر.

ودلّت التجربة أيضاً أنَّ المجتمع الذي يتقبّل فكرةً ـ وإنْ أتته من خارج محيطه الجغرافي والبيئي ـ يكون شديد الحرص على التمسُّك بها والدفاع عنها والترويج لها؛ لأنّ القناعة بالفكرة والإيمان بها من أقوى الدفاعات الأمامية في حرب الأفكار والمعتقدات التي يشنّها الآخر العقيدي، فربما أصاب الترهّل المجتمع الذي انبثقت فيه العقيدة، ولكن تبقى مجتمعات الأطراف، أو المتوزعة هنا وهناك، والمتوحدة عقيدياً مع المركز هي الحارسة له، لا بالتبع والعمالة كما هو في المفهوم السياسي السائد، وإنّما لإيمانٍ متجذّرٍ في النفوس تقبّلته المجتمعات البعيدة عن وعي وإدراك، ومن يؤمن بعقيدةٍ يدافع عنها، وإن كانت الممارسات في جانب منها لا تتوافق مع أصل المعتقد.

وحينما يتمّ الحديث عن الوجود الإسلامي في الأميركيتين الشمالية واللاتينية تتوضّح بجلاء صورة الإسلام الذي غزا القلوب تحت سنابك خيل الإيمان الطوعي، وكلّما تعرّفت الشعوب الأميركية على حقيقة الإسلام انشرح صدرها له؛ لأنّ الإنسان بطبعه ميّال إلى القوّة التي تنتشله من واقعه المرير ممزوجاً بإحساسٍ دفينٍ إلى التكامل والرقي ونيل أعلى مثل وقيم مكارم الأخلاق، وهذه المثل المتصلة بسببٍ بين الأرض والسماء يجدها المرء في تعاليم الإسلام.

ولا شكّ أنَّ لحركة هجرة المسلمين نحو الأميركيتين في القرون الماضية الأثر الكبير في نشوء مجموعة مسلمة زحفت عقائدياً وسلمياً على السكان الأصليين، وهذه الحركة نجد بعض تفاصيلها في الكتاب الذي صدر حديثا عن (بيت العلم للنابهين) ببيروت في ٦٤ صفحة من القطع المتوسط للدكتور الشيخ محمد صادق الكرباسي بعنوان (الإسلام في الأرجنتين).

هجرات قسرية وطوعية

يعود وجود المسلمين في الأرجنتين (بلاد الفضة) إلى العهود الأولى لاكتشاف القارة الأميركية، ويرى البعض أن الأندلسيين المسلمين الذين تنصَّروا قهراً بعد سقوط الأندلس عام ١٤٩٣م، والذين يسميهم الإسبان بالمورسكين، هم أوّل المهاجرين المسلمين إلى الأرجنتين، وتعرّضوا فيها لما تعرّض له إخوانهم في الأندلس، ولا سيما وأنّ الأرجنتين كانت واقعة تحت سلطة الإسبان، وفيما بعد جرت هجرات لمسلمين وعلى مراحل، وبخاصة من بلاد الشام، كان أصحابها في معظمها يبحث عن الأمن والإستقرار، وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي هجرة كبيرة للعرب من سوريا، وأعقبتها هجرة ثانية في النصف الأوّل من القرن العشرين الميلادي، وازدادت أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، على أنَّ معظم المهاجرين هم من العرب المسيحيين.

ولا شك أنَّ بعض المهاجرين ذهبوا بحثاً عن الأمن الإقتصادي، وبشكل عام، فإنّه ووفق إحصاءات سنة ١٩٦٠م، فإنّ: (١٠٪ من الأرجنتينيين العرب هم مسلمون، وتذكر المصادر نفسها أنّ ٦٠٪ من الشباب من الجيل الثاني لم يعد يمكنهم التكلم باللغة العربية، وأنّ ١٠٪ من الجيل الثالث يمكنهم التحدث باللغة العربية، واختفت الصحف العربية من الساحة الأرجنتينية بعدما كانت رائجة وانحصرت الهوية الإسلامية بالبيوت).

وليس هناك إحصائية ثابتة حول عدد المسلمين في الأرجنتين، فبعض المصادر تقدّرها بنحو ٩٠٠ ألف مسلم أي ٢.٥٪ من مجموع السكان البالغ عددهم أكثر من ٣٧ مليون، يعيش الكثير منهم في العاصمة، لكن بعض المراجع الإسلامية المهتمة تقدّر عدد العرب من المسيحيين والمسلمين بنحو مليون معظمهم من سوريا، وبعضهم يصل بالعدد إلى ٣.٥ مليون خُمسهم يعيش في العاصمة بوينس آيرس، ومنهم ٢٠٠ ألف من المسلمين، ولكن من

الثابت أنَّ حركة إقامة بناء المساجد والجمعيات بدأت تزداد ولكن ببطئ.

ومن الملاحظ في حركة المهاجرين إلى الأرجنتين أنَّ هجرة العرب مسلمين ومسيحيين من بلاد الشام انقطعت بشكل عام، وفي المقابل: «تدفقت أعداد كبيرة من المسلمين الباكستانيين والبنغال والهنود إلى هذه البلاد فقلبت الموازين فأصبحت نسبة المسلمين غير العرب بالنسبة إلى العرب ٥٥٪»، وكان للوجود الإسلامي الكبير دافعه في حمل السلطات الأرجنتينية المستندة في قواعد الحكم إلى الديانة الكاثوليكية على إصدار قانون يتيح للمسلمين الحصول على عطل رسمية لعيدي الفطر والأضحى والسنة الهجرية، كما سمحت الحكومة بتقييد الأسماء الإسلامية للمواليد الجدد في سجلات الدوائر الرسمية، وهنا يصرّح الداعية محمد يوسف هاجر رئيس المنظمة الإسلامية لأميركا اللاتينية والبحر الكاريبي التي تضم ٣٣ دولة أنّه تحمّل المشاق كي يختار لوليده اسم (حسين)، وقد تمكّن من ذلك بعد بذل الجهود المضنية. وقد سمحت السلطات ابتداءاً لخمسة عشر اسماً إسلامياً، ثم ارتفع العدد إلى ثلاثين إسماً.

ومن الواضح أنَّ الرئيس الأرجنتيني الأسبق السوري الأصل والمسلم الأصل والكاثوليكي فيما بعد الرئيس كارلوس منعم المولود عام ١٩٣٠م ساهم في توطيد العلاقات الأرجنتينية والعربية، وفتح المجال أمام المهاجرين وبخاصة العرب، وفي عهده (١٩٨٩- ١٩٩٩م) تمّ وضع حجر الأساس لأكبر مسجد في العاصمة، وافتتح عام ١٩٩٩م. ويُذكر أنَّ الدستور الأرجنتيني نصّ عام ١٨٥٣م على أنَّ مرشح رئاسة الجمهورية ينبغي أن يكون مسيحياً من المذهب الكاثوليكي، ولكن الفقرة تمّ تعديلها عام ١٩٩٤، وأُسقط شرط المذهبية.

لمَ التحول؟

تُعَدّ الأندلس بعد السقوط أبرز حالة شهدتها البشرية تمّ فيها قسر الناس على تغيير دينهم تحت مطرقة محاكم التفتيش، ولو تركت الجيوش الأوروبية مسلمي الأندلس وشأنهم لاختلف الأمر كلياً؛ لأنّ الناس بشكلٍ عام تقبّلت الإسلام طواعية، وبخاصة وأنّه جاء مكملاً للأديان السماوية، ولم يكن ملغياً لها أو معادياً، بل ترك أصحاب الأديان وشأنهم تحت قاعدة قرآنية مُحكَمة ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

من هنا فإن التعرف على الإسلام وقراءته من جديد يفتح الآفاق لدى الآخر تقبلاً أو إيماناً، وينقل الدكتور الكرباسي عن استبيان أعدته جامعة جورج تاون (georgetown university) الأميركية عام ١٩٩٨م لمجموعة شباب تتراوح أعمارهم بين سن ٩ و٢٠ سنة، خلصت فيه أنَّ ٨٪ من مواطني أميركا اللاتينية، ومن ضمنها الأرجنتين، اعتنقوا ديناً آخر غير دين عائلاتهم الأصلي، ومن ضمن المتحولين فيهم نسبة عالية اختاروا الإسلام.

ولكن لماذا نشهد التحول من المسيحية إلى الإسلام في القارتين الأميركيتين؟

يعزو الدكتور الكرباسي ذلك إلى أسباب عدة أهمها:

أولاً: إنَّ الإسلام لا يعترف بالفوارق العرقية.

ثانياً: إنَّ الإسلام يؤمن بالأنبياء السابقين على الرسول ' وبخاصة النبي موسى عليه السلام والنبي عيسى عليه السلام ويحترمهم.

ثالثاً: إنَّ أصولهم إسلامية اعتنقوا الإسلام بملء إرادتهم، وتخلّى الأحفاد عن الإسلام بالإكراه والعنف.

رابعاً: إنَّ الإسلام يربط الإنسان بخالقه مباشرة دون الحاجة إلى اللجوء إلى وساطة الكنيسة.

خامساً: إنَّ المسيحية ترى بأنّ المسيح إله، وهذا أمر يعتبرونه غير معقول.

سادساً: إنَّ المسيحية تقول بالتثليث، وهو أمرٌ لا يصدّق.

سابعاً: إنَّ القوانين الإسلامية أقرب إلى الفطرة والعقل.
ثامناً: إنَّ الإسلام يرفض فرض العقيدة على الإنسان.
تاسعاً: إنَّ الإسلام سنَّ قانون المساواة، ورفض كل الفوارق الإجتماعية.
عاشراً: إن الإسلام يفتح باب الحوار والمناقشة دون حدود.

شاهد من الواقع

ولكن لماذا هذا التحول من دين سماوي إلى آخر؟

هذا التساؤل يجيب عليه النائب السابق في المجلس النيابي الأرجنتيني عن حزب الحركة الإشتراكية ممن كان يبحث عن الحقيقة الضائعة منذ عام ١٩٧٩م، وأسلم عام ١٩٨٢م، وهو الأستاذ سانتياغو پاز بولرج (Santiago Paz Bullrich) المولود عام ١٩٦٢م في منطقة نورت (Barrie Norte) شمال العاصمة بوينس آيريس، الذي أصبح فيما بعد الشيخ عبد الكريم پاز، يقول في بيان سبب تحوّله إلى الديانة الإسلامية: «**التحقت بكلية الفلسفة بجامعة الأرجنتين لهذه الغاية؛ وذلك لأتعلّم حكم الكون (الحكم الإلهي)، وفي السنة الثانية درست الفلسفة اليونانية وتعرّفت على معنى التوحيد، وبعد ذلك التقيت بمدرّس سوري لديه مركز إسلامي صوفي ونظرة عن الشيعة، هو في الأصل كان علوياً، وبعد أن تعرّفت على الفرق بين التشيّع والتصوف، بان لي أنَّ التشيّع هو طريق الإسلام الصحيح**».

ويضيف الشيخ پاز المولود في أسرة كاثوليكية أمًّا وأباً: «**في السنة الثانية من دراستي الجامعية توجهت للغرض ذاته إلى مسجد التوحيد في العاصمة، وهناك التقيت بالمسلمين الشيعة، والذين كانوا من أصول أرجنتينية ومن مهاجرين لبنانيين وسوريين من العلوية والإثني عشرية بالإضافة إلى إيرانيين، وهنا توضّحت لي الصورة، وحتى تكتمل سافرت إلى مدينة قم بعدما حصلت على**

شهادة الماجستير، فاكتملت الصورة عندي بشكل واضح ومقنع، فالتحقت بالحوزة العلمية لكسب المعارف ولازلت».

ولقد عوّد البحاثة الدكتور الكرباسي قرّاءه على إشراك أعلام آخرين فيما يكتب، وبخاصة في سلسلة كتب (الإسلام في ..)، وكما فعل في الصادر من هذه السلسلة على التوالي: (الإسلام في إسبانيا) من إعداد الفنان التشكيلي العراقي المقيم في مدريد الدكتور كاظم بن شمهود طاهر، (الإسلام في إثيوبيا) من إعداد الداعية الإثيوبي محمد سعيد بن إبراهيم آل أبي إمام، (الإسلام في بريطانيا) من إعداد الطبيب الإخصائي العراقي المقيم في لندن الدكتور علاء بن صاحب الحسيني، و(الإسلام في آذربايجان) من إعداد الداعية الآذربايجاني المقيم في دمشق الشيخ لطيف بن عاكف لطيف أف، فإنّه عرض كتيب (الإسلام في الأرجنتين) على الشيخ عبد الكريم پاز مقدّماً ومعلّقاً ومعداً؛ إذ جاء في المقدمة في بيان أسباب التحوّل إلى الدين الإسلامي: «**إنَّ الإسلام هو النور الإلهي الذي يدخل قلب المرء دون استئذان إذا وجده مؤهلاً لذلك، هذا ما يشعره كلّ من استبصر بالإسلام حيث يجده دين الفطرة، فليس فيه ما يخالف الفطرة أو العمل، ومن هنا فإنّه يتماشى مع كلّ زمان، ويمكن تطبيقه في كلّ مكان مهما اختلفت المفاهيم والعادات، وبالتالي القوميات، ويصل لكلّ الأعمار والفئات**».

ويقارن الشيخ پاز بين إسلام أهل المدينة وإسلام أهل الأرجنتين، فيرى أنّه: «**ما كان دخول الإسلام إلى الأرجنتين إلّا كدخوله مكة والمدينة، فما أن عرف الآخرون فلسفة الحياة في الإسلام وبالأخص عن طريق الرسول ' وأهل بيته الأطهار ^ إلا وانجذبوا لتلك الأفكار ذات الحيوية والفاعلية على جميع المستويات**»، معبراً في الوقت نفسه عن أسفه لأنّ: «**الإشكال يبقى مع الذي يجهل الإسلام وتعاليمه، وما على المسلم إلا العمل على إيصال الكلمة إلى غير المسلمين، بل إلى المسلم الجاهل غير العامل بتعاليم دينه، والذي أصبح كلاًّ على**

الإسلام والمسلمين».

وهذه حقيقة لمسها المستبصر الأستاذ سانتياغو پاز بولرج (Santiago Paz Bullrich) (الشيخ عبد الكريم پاز) المتزوج من الناشطة اللبنانية في المجالات الثقافية والإعلامية السيدة معصومة الأسعد، فالمسلم الذي يعيش في بلدان غير إسلامية ينبغي أن يظهر الإسلام بسلوكه قبل لسانه، كما فعل المهاجرون الأوائل الحبشة ومن بعد في أندونيسيا وماليزيا وغيرها؛ لأنّ الناس بشكل عام عقولهم في عيونهم، ولذلك فليس من الغريب أن يقرّ الأرجنتيني الأستاذ غارسيا المولود عام ١٩٧١م، والذي أسلم عام ١٩٨٩م واتخذ لنفسه اسم محمد عيسى، أنَّ ٦٠ في المائة من الأرجنتينيين الذين أسلموا تعرّفوا على الإسلام من خلال مواقع وصفحات الشبكة البينية الدولية (الإنترنيت)، أيْ: من خلال قراءة الإسلام قراءة فكرية وعقائدية.

* * *

طامّات السلفيّة

نعوذ بالله من سبات العقول

الأستاذ: هلال آل فخر الدين (*)

تمهيد

ممّا لامشاحّة فيه أنّ انبثاق نور الإسلام كان رحمة للعالمين، حيث أسّس لمفاهيم السلام والتسامح والانفتاح والحوار الموضوعيّ وتكريم بنى آدم، وأنّ خير الناس من نفع الناس، وأنّ الجعل الالهى للبشر كافة أن يتعارفوا ويتعاونوا..وأنّ رسالة الإسلام باختصار هى الاستقامة.. الاعتدال[1]..

فى حين أراد سدنة الدين، وبإصرار، غير ذلك، وفعلوا نقيض منهج الرسالة وبلاغ محمّد ' تماماً..

إنّ المثل العربى يقول: «خير بين شرّين أهونهما صعب»، يُضرب لمن خُيّر بين أمرين من الأمور فاختار أهونهما قهراً..! فكيف إذا أغلقت أبواب العقل وعطّلت آليات الشرع وأسلوب الحوار، واستعيض عنها بالتحجر واتباع الهوى وكمّ الأفواه، بل وإشهار فتاوى التكفير والسيف، وحرق المكتبات، وتدمير

(*) باحث إسلاميّ/ في بلاد المهجر.

التراث، وتفجير....؟! فهنا تكمن الطامّة الكبرى بابتلاء الأمّة بمنافقى سدنة الشرع وأحبار التلفيق لطمس حقائق الدين، وتشويه شريعة خاتم المرسلين، ومنع إعمال العقل، وإجالة الفكر والتدبّر على حساب القيم والقواعد، لكسب رضا السلاطين، والفوز بلحس قصاع الظالمين، حتى فاقوا تحريف أحبار بنى إسرائيل، فنتيجة لذلك سقطوا فى الفتنة وجنوا على الرسالة بمتاهات التزوير، وتناقضات التأويل، وأوقعوا الأمّة فى صراعات... ويقول فيهم الإمام محمّد عبده: «**لبسوا الفراء بالمقلوب، لا هم تدثّروا به، ولا هم أظهروه**».

وسوف نتناول فى هذا المقال بعض المواضيع المتعلّقة بذلك من أمّهات مصادر هذه المدرسة.

آفة التعصّب المفيت

لذلك يلاحظ بوضوح أىّ متتبع لمنهج سدنة مدرسة التكفير والتزوير، سواء قديماً أم حديثاً، أنّها في إطارها العامّ لا تخرج عن وأد الفكر وقمع منطق الحوار ومجانبة الشرع بتأويل النصوص تبعاً للهوى، وإطاعةً لأصحاب النعم، واصطناع منظومة قواعد لعداء الآخر، وإن خرجت عن صحيح الشرع وجوهر المبادىء، حيث أدّى تشبثهم بالأخذ لهذا المنهج المعوجّ إلى الخروج عن صراط الحقّ وسبل الدين، حتى أصبحت النصوص الواردة في الكتاب أو السنّة عند جلّهم لا يعمل بها إن خالفها رئيس المذهب الذي أصبحت أقواله سنّة محكمة، ومخالفته بدعة منكرة، وعدم اتّباعه كفراً، حتى قالوا: إنّ كتاب الله تنسخه مخالفة أقوال علماء المذهب، وقديماً قال الإمام عبيد الله بن الحسن الكرخي: «**الأصل أنّ كلّ آية تخالف قول أصحابنا فإنّها محمولة على النسخ أو على الترجيح، والأولى على التأويل من جهة التوفيق. الأصل أنّ كل خبر يجيء بخلاف قول أصحابنا فإنّه يُحمل على النسخ أو يحمل على أنّه**

معارض بمثله، ثمّ صار إلى دليل آخر أو ترجيح فيه بما يحتجّ به أصحابنا من وجوه الترجيح أو يحمل على التوفيق»[٢].

يكشف النصّ مدى الارتباط بالدائرة المذهبيّة والتطرّف بالتزام أقوال علماء المذهب وكأنّها آيات محكمة، حتى وإن خالفت النصوص المقدّسة، وهم يتمحّلون ويُخضعون الكتاب لموافقة أهوائهم أو مايطلبه السلاطين منهم ، فيحرّفون الكلم عن مواضعه ويؤوّلونه حسب الطلب، وإذا امتنع النصّ القرآني فإنّهم ينسخونه ويعملون بما جاء عن أصحاب المذهب.. وحديثاً يقول الدكتور مصطفى سعيد: «**فهم مدفوعون وراء المذهبيّة تعصّباً، ويطرحون الدليل ويؤوّلونه تأويلاً بعيداً لا يتّفق مع الحقيقة، فهذه هي المذهبيّة التي يبغضها الله ورسوله**»[٣]..!!

والذي يؤكّده د.مصطفى هو فى الواقع مرض قديم استشرى وولغوا فيه بإرادتهم، وديدن فطموا عليه برغبتهم:

أوّلاً: لأجل التبرير والتماس المعاذير.

وثانياً: لأجل الاستقواء على الآخر؛ لعجزهم عن التوفيق ما بين النصوص وواقع منهج مدرستهم وسلوكيّات أحوالهم.

وثالثاً: لشدّة ما تشرنقوا داخله وحشروا أنفسهم فيه من إلغاء منطق العقل والدليل.

ورابعاً: لسدّهم باب الرحمة الإلهيّة (الاجتهاد).

وخامساً: التحجّر على فتاوى قديمة وسحبها على الحاضر.

وسادساً: التنكّرحتى لما يرويه سلفهم الصالح من مقارعة الظلم والطغاة عند اصطدامها بسياسة الأنظمة، خوفاً من الطرد من الوظيفة والاستغناء عن خدمتهم.

وسابعاً: اجهاد أنفسهم بتمحّل التأويل الممجوج أو التزيف المفضوح..

وهؤلاء ينطبق عليهم قول الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية :٢٣].

التخندق بدائرة الغلوّ والإفراط بالتعصّب المذهبي..

وتأصلت روح العداء للآخر والجهل بالشرع حدّاً تعصّب معه أصحاب كلّ مذهب إلى حدّ الغلوّ والإفراط في التطرّف والدعاوى الزائفة في تمام وكمال مذهبه، وأنّ كلّ ما فيه صحيح ومنزّه عن الخطأ، مع علم الجميع بأنّ الإنتاج البشريّ كائناً ما كان فهو غير معصوم، يقول الحنبلي:

سبرتُ شرائعَ العلماء طراً فلم أرَ كاعتقاد الحنبلي
فكن من أهله سراً وجهراً تكن أبداً على النهج السوي

ويقول آخر:

أنا حنبلي ما حييتُ وإنْ أمتْ فوصيّتي للناس أن يتحنبلوا

والحنابلة يقولون: «**أحمد بن حنبل إمامنا فمن لم يرضَ فهو مبتدع**»، فقد بلغ الغلوّ حدّاً مرعباً، بأن يكون أحمد معياراً وميزاناً وفيصلاً بين الحقّ والباطل، ومن لا يقبل (مبتدع)، إذن، فما أكثر المبتدعة في نظرهم على هذه القاعدة! فأئمة سائر المذاهب وأتباع المذاهب الإسلاميّة الأُخرى مبتدعة حسب منطقهم!

وكذلك يقولون: إنّه ماقام بأمر الإسلام أحد بعد رسول الله ' كما قام به أحمد بن حنبل، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان.... وإنّ الله جلّ جلاله كان يزور قبره كلّ ليلة جمعة حيث ينزل من السماء السابعة[٤]!!!!!

وممّا يستطرف هنا: ما ذكره الخطيب البغداديّ عن سفر ربّ العزة لزيارة ابن حنبل فى قبره كلّ ليلة جمعة ويأتي راكباً على حمار!! لا أدرى لماذا لم يركب البراق

مثلاً لمثل تلك الرحلة الطويلة؟! حتى أنّ أهل الأعظمية كانوا يحظّرون البرسيم أو الجت لحمار الربّ! ويضعونه على سطوح منازلهم عسى أن ينزل على أحد دورهم فيباركها، ولذلك كانت ترتفع أسعار أعلاف الحيوانات يوم الخميس!!!!

إلى آخر ما هنالك من مناقب وفضائل الإمام أحمد! مالم يفز بها نبيّ مرسل ولا ملك مقرّب..ومبعثها الجهل والتعصّب والغلواء..!!

والذكر الحكيم يصف علماء السوء وأتباع سيّدهم إبليس بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ:٢٠].

فهؤلاء هم الذين يخطّئون الأمّة بأجمعها ويجعلونها على ضلال، بل ويكفّرونها كافّةً، وكأنّ موازين الأمور بأيديهم ومعيار الحقيقة لايخرج عنهم، أو هم يمتلكون التفويض الإلهيّ.. وهذا ماكان يحذّر المصطفى ' منه من المتهوّكين والمتنطّعين والمتشدّدين بالهلاك، بل والإهلاك أيضاً!!!

وربما تمرّ عليّ أوقات أتساءل فيها، ماذا سيحدث لو نزل المبعوث رحمة للعالمين الرسول ' إلينا، وتحدّث مع مَن نصبوا أنفسهم حماة للدين في مجتمعاتنا، وقال لهم: (لا! ليس هذا الدين الذي أراده الله للناس وكما بلّغته. وإنّي بريء ممّا تنسبونه إليّ من تلك الأحاديث، ولا صلة لي بها! ولماذا تفرضون عليّ وعلى شريعتي السمحاء ما لم أأمر به؟!).

أتدري كيف كانوا سيردون عليه؟!

على نفس نمط طريقتنا في الحوار اليوم، وطريقتنا في التعامل مع الدين... حيث لا تُطلب الحقيقة، سيقولون له: (كفرت)؛ لأنّ كلّ من يناقض طريقة رؤيتهم للدين يصبح (كافراً)، حتى النبي ' نفسه!

صنميّة الاتّباع وإلغاء التفكير:

إنّ من يفقد القدرة على المقاومة الفكريّة والتصدّي الذهني أمام بشر باتوا يمثّلون أصناماً في حياته الثقافيّة والاجتماعيّة، ومن لا يستطيع رفض العبودية في داخله بعدما أصبح رهينة لهؤلاء البشر، كيف له أن يفكّر بحرية، وأن ينظّر بسلاسة، وأن ينطلق في رؤاه دون أن يركع لتلك الأصنام؟! سيكون تفكيره بلا شكّ تحت وصاية الأصنام وفي إطار العبوديّة.

وعلى الرغم من وجود صنف من البشر يسعى جاهداً للتحرّر من العبودية، فإنّ هناك صنفاً آخر يتجه حُكماً نحو أصنامه، بعدما سُرقت إرادته ليزيد بأس العبودية في داخله، على الرغم من شعارات الوسطيّة المزيّفة التي يرفعها. فهو يعوّل في ذلك على الأحكام التي تطرحها المدرسة الفكريّة التي ينتمي إليها، وهي المدرسة الدينيّة الفقهيّة (السلطانيّة) إن صحّ التعبير.

إنّ سير هذا الصنف خلف الأصنام بصورة إجباريّة، أو لا إراديّة، يسهم في رسم خريطة مُحكمة من الحلال والحرام في حياة أفراد ذلك الصنف. وهذا التوجّه يحمل مخاطر جمّة على صعيد فقدان الإنسان إنسانيّته وإرادته وتفكيره الحرّ.

فمدرسة فقهاء السلطة بصورتها الصنميّة العبوديّة هي سجن كبير، يستند الخروج منه إلى التحرّر من العبودية الداخلية والأيديولوجيا الخارجية، ونعوذ بالله من سبات العقول.

نتائج الاستغراق في العصبيّة الطائفيّة

كان من معطيات الإنزلاق فى متاهات العصبيّة والتطرّف لمدرسة السقيفة أنْ طبعتها ظاهرة واضحة وغريبة معاً، من تأويل النصّ وتطويعه وليّه حسب الهوى؛ لينسجم وما انغلقت عليه، حتى وإن جانب الحقّ، وخرج عن الشرع، في عبوديّة تامّة للسلطان، وتبرير كلّ إثم وعدوان تبعاً للتعصّب والهوى، وهذا

ديدن فطموا عليه للاستقواء على الآخر لعجزهم من التوفيق ما بين النصوص وواقع أحوالهم، وما تشرنقوا داخله، وحشروا أنفسهم في شراكه، وتعاملهم مع الحقيقة، ومنطق العلم بمنطق المهزوم الذي ينسحق داخله عند التحدّي، ويفضّل الارتداد خلْفاً بدلاً من التقدّم، عن إحساس عميق بالعجز والإحباط، وثقة غابت بالنفس، واضطراب جحودهم الحقّ وهم به مستيقنون.

ومن جانب آخر: تنتابهم هواجس العصبيّة ومطامع الدنيا، فيبرّرون ويبرّرون ويمارون ما شاء لهم أن يماروا، وجلّ جهدهم تلميع وجه الباطل الذي يقود إلى فساد النتاج والتواء المنهج.

ذبح الدين بسكين التطرّف

مما جُبِل الإسلام عليه الحرية والتحرّر والتفكّر والانعتاق من التقليد وعدم التبعيّة للغير، قال الإمام علي عليه السلام: «**لَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً**»(٥)، ولكن امتدّ تأثير الإفراط بالغلواء وشديد التعصّب لينعكس على منهج التعامل مع روح النصوص ومقاصد الشريعة ومنطق الدليل وحقائق التاريخ:

فأوّلاً: أصبح أغلب المفسّرين والمحدّثين والرجاليّين والفقهاء والمؤرّخين ينقادون للنزعة الطائفيّة المشبعة بالعصبيّة للهوى والتقليد الأعمى.

وثانياً: عبودية مطلقة للسلطان بتلبية ما يأمر به، وإيجاد مخارج شرعيّة بالتأويل والتحريف.

وثالثاً: انسياقهم بإلصاق أبشع التهم بالمعارضة.

ورابعاً: مسايرتهم لمجريات العوامّ والرعاع والسواد الأعظم.

وخامساً: اعتماد الأكاذيب والأساطير والخرافات.

وسادساً: تفتّق عبقريّتهم فى صياغة الفتن والادّعاءات التي تؤجّج نار الفرقة، وتثير الكراهية، وتزيد الانقسام؛ لتطغي حدّة الخلاف على روح

الحقيقة، وتدفع بالأمور في مسارٍ لا يخضع لمنهج الدين، ولا لمنطق العقل، ولا يلتزم بالحجّة والدليل، وبذلك عجّ التاريخ بركام كبير من الأكاذيب، بما نجم عن تلك النزاعات، فأصبح البحث عن الحقيقة والتوسّل إلى استخلاص الواقع شقاءاً ما بعده شقاء، محاطاً بعوائق وصعوبات جمّة بعد أن أدّى تقادم الزمن واستمرار القناعات بما صدر عن مصادر التعصّب وجهات الانقسام وغلوّ التطرّف وهيمنة الانغلاق والتحجّر إلى أن اكتسب شكلاً ثابتاً يقف بوجه منطق العقل، وموجات الوعي والاستنارة، التي تنمو بين الدارسين والباحثين والمحقّقين المتّصفين بروح العلم والموضوعيّة.

وهذا ما حدا بالمفكّر الإسلاميّ المصلح الإمام محمّد عبده إلى تشخيص الداء ووصف الدواء ومحوره (العلماء)، حيث يقول: «والسبب في بقاء قوّة السلطان: الخلاف، والنزاع، وتفشّي الجهل، وتعصّب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي ينتسبون إليها، وبجاهها يعيشون ويكرمون، وتأييد الأمراء والسلاطين لهم، والاستعانة بهم في إخضاع العامّة، وقطع طرق الاستقلال العقلي على الأمّة؛ لأنّ هذا أعون على الاستبداد، وأشدّ تمكيناً لهم مما يحبّون من الفساد والإفساد...

فاتّفاق كلمة علماء الأمّة واجتماعها على الحقّ كذا بدليل كذا ملزم للحاكم باتّباعهم فيه؛ لأنّ الخواصّ إذا اتّحدوا اتّبعتهم العوامّ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمنع استبداد الحكّام، فالدين يأمر برفع الشقاق، ونبذ التنازع، وبالاعتصام بحبل الوحدة والتعاون».

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ [الإنفال: ٤٦]، وقول النبي ' : «**لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم أعناق بعض**»[٦]، وهنا يعترف الناظر بعين البصيرة، فلا يماري، أو لا يكون عبداً لغيره وقد خلقه الله

حرّاً، ولكن بحسرة ولوعة على ما اجترح من فظائع، حيث يؤكّد الإمام محمّد عبده: «وقد خالفنا كلّ هذه النصوص فتفرّقنا وتنازعنا وحارب بعضنا بعضاً باسم الدين؛ لأنّنا سلكنا مذاهب متفرّقة، كلّ فريق يتعصّب لمذهبه، ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله زاعماً أنّه بهذا ينصر الدين...!! وليس في ذلك إلّا خذلانه بتفريق كلمة المسلمين، هذا سنّيّ، وهذا شيعيّ، وهذا شافعيّ، يغرى التريّ بحنفيّ، وهذا حنفيّ، يقيس الشافعيّ على الذمّيّة»(٧).

وينقلنا الإمام السخاوى إلى ما وصلت إليه أمور المسلمين من التشرذم نتيجة للعصبيّة المقيته، جاء في (الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ) للسخاوى، يقول التاج السبكي: «ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في العصبيّة بحيث يمتنع بعضهم عن الصلاة خلف بعض»، إلى غيرهذا مما يستقبح ذكره، حتى لتبلغ حدّة الصراع المذهبيّ حدّ خيانة الملّة الإسلاميّة حيث يطلعنا على نماذج مرعبة من ذلك التعصّب العلّامة محمّد رشيد رضا صاحب المنار: «ومن أغرب ما تجد أنّ العدوان بين الشافعيّة كان من أسباب حملة التتار على المسلمين، تلك الحملة التي كانت أوّل صدمة صدعت بناء قوّة المسلمين صدعاً لم يلتئم من بعدها جمعهم، ولا تماسكت ريحهم، أدر طرفك في بلادهم اليوم، وانظر حال هذه المذاهب على ضعف الدين في نفوس الجماهير، تجد بأسهم بينهم شديداً، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى كما قال الله تعالى في وصف من لا إيمان لهم ولا أيمان»(٨).

إنّ تفاقم ظاهرة التطرّف والتعصّب المذهبيّ حتى انسحبت على تغيير المرء مذهبه ومعتقده وما يؤمن به، وهذا شيء صعب للغاية وخطير، وبالخصوص على سدنة الدين وأئمّة الطوائف، حتى تحوّل كثير من العلماء من مذهب إلى مذهب تقرّباً إلى السلطان، والحظوة لدى الأنام، وطلباً للدنيا، والحصول على الجوائز وحطام الدنيا..

وفي صدرالإسلام عند حصول نهضة الإمام الحسين عليه السلام، نبّه الإمام لما لمسه من أطماع بعض المرتزقة ممّن قدّموا أنفسهم على أنّهم من رجال الدين، فخاطبهم قائلاً: «الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم، يحوطونه ما درّت معائشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون..»..

فقد تحوّل كثير من الشافعيّة إلى الحنفيّة لأجل الدراهم، وذلك أنّ الأمير (بلبغا بن عبد الله الخاصكي) كان يتعصّب للمذهب الحنفي، ويعطي لمن تحوّل إليه العطاء الجزيل، وحاول آخر عمره أن يجلس الحنفيّ فوق الشافعيّ[٩]. ويحدّثنا ابن خلكان[١٠]عن الشيخ الآمدي المتوفّى سنة ٦٣١ هجريّة، أنّه كان أوّل اشتغاله حنبليّ المذهب، ثمّ انتقل إلى مذهب الشافعي.

وهذا الشيخ علي بن الحسن الملقب بسيف الدين كان حنبليّاً ثمّ صار شافعيّاً وتعصّب عليه فقهاء البلاد وحكموا عليه بالكفر والزندقة[١١].

وقد واجه كثير من العلماء بلاءاً عظيماً عندما كانوا يتحوّلون من مذهب إلى مذهب، حتى قالوا: (إنّ من يصير حنفيّاً يُخلع عليه، ومن يصير شافعيّاً يُعزّر)[١٢].

إلى هذه الدرجة من الأمور وصلت حالة المسلمين التي ابتلي بها الإسلام، وهي من جنايات علماء السوء، ومرتزقة المعمّمين، ووعّاظ السلاطين الذين تزلّفوا للحكّام طمعاً وتعصّباً للباطل.

ولمّا انتقل أبو البركات الحنفيّ إلى المذهب الحنبليّ فآذاه الحنفيّة، فانتقل إلى مذهب الشافعي، فقال المؤيد التكريتي في هجائه:

ألا مبلغ عنّي الوزير رسالة ... وإنْ كان لا تجدي إليه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لمّا أعوزتك المآكلُ
وما اخترتَ رأيَ الشافعيّ تديُّناً ... ولكنّما تهوى الَّذِي هو حاصلُ
وعمّا قليل أنتَ لا شكّ صائرُ ... إِلَى مالك فافهم لما أنا قائلُ

وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحوّل شافعياً لأجل الدنيا، وولي القضاء، وكان أبو المظفر يوسف بن سبط ابن الجوزي حنبليّا نقله الملك المعظم إلى المذهب الحنفيّ[١٣].

وهذا أبو سعيد المتوفى سنة ٥٦٢ هـ كان حنفي المذهب وتحوّل شافعيّاً، ولقى عناءاً وامتهاناً لذلك.

وهذا العلّامة السمعاني لما انتقل من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي لقي محناً وتعصّباً، وقامت الحروب على ساق، واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً فظيعاً، وفتحت باب المشاقّة، وتعلّق أهل الرأي بأهل الحديث، وساروا إلى باب السلطان.. إلى آخر ما وصفه السبكي في طبقاته[١٤].

وكثير من أمثاله من العلماء الذين قتلوا بسيف التعصّب، بشهادة رجال دين وفقهاء ذلك العصر..

ولايستبعد أنّ ذلك كلّه محض افتراء، وأنّها الأهواء التي تعمي وتصمّ، وأنّ أكثر هؤلاء هم بريئون ممّا نسب إليهم، وقد استساغ أعداؤهم شهادة الزور ضدّ من يخالفهم مذهباً تعصّباً وجهلاً..

حتى أنه استفتى بعضهم في شهادة على شافعيٍّ زوراً فأجابه المفتي أو القاضي: ألستَ تعتقد أنّ دمه وماله حلال؟! قال: نعم. قال: فما دون ذلك فاشهد، وادفع فساده عن المسلمين...!

ولبلوغ موجة التعصّب حدّاً طفح به الكيل، والأخطر الجسيم، حتى أصبح التكتّم بالمذهب لازماً، حفاظاً على النفس من القتل، ومن إلقائها في التهلكة، لذلك كان واجباً الأخذ بالتقيّة، وفي هذا يقول الحنبلي أبو بكر محمّد بن عبد الباقي المتوفّى سنة ٥٣٥ هـ:

احفظ لسانك لا تبح بثلاثةٍ سنٌّ ومالٌ ما استطتَ ومذهبٌ
فعلى الثلاثة تبتلى بثلاثة بمكفّرٍ وبحاسد ومكذّب

ويعطينا الإمام الزمخشري صورة واضحة عن صور الخلاف وشدّة التطاحن بين المذاهب، وطعن البعض على البعض، وما وصلوا إليه من إسفاف وسخف بقوله:

إذا سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لي أسلمُ
فإنْ حنفياً قلت قالوا بأنّني ... أُبيح الطلي وهو الشراب المحرّمُ
وإنْ شافعياً قلتُ قالوا بأنّني ... أُبيح نكاح البنت والبنت تحرمُ
وإنْ مالكياً قلتُ قالوا بأنّني ... أُبيح لهم لحم الكلاب وهمْ همُ
وإنْ قلتُ من أهل الحديث وحزبه ... يقولون تيسٌ ليس يدري ويفهم[15]

و(التيس) وهو ذكر العنزة، أو السخل، وهو مضرب المثل في الغباء والبلادة!

* * *

الهوامش:

(١)انظر: تفسير الكاشف ج١للشيخ محمد جواد مغنية.

(٢) الدكتور مصطفى سعيد الجنّ، نقلاً عن أصول الكرخيّ ص٨٤، القاهرة، ١٩٧٢.

(٣) أثر الخلاف في قواعد الأصول: ٩.

(٤) انظر: تاريخ الخطيب البغدادى عند ذكر أحمد بن حنبل..

(٥) السَّيِّد الرضي، نهج البلاغة ٣٤٤، تصحيح: عزيز الله عطاردي، نشر: مؤسسة نهج البلاغة، الطبعة الأُولى ١٤١٤هـ.

(٦) مقطع من حديث الثقلين المشهور بل المتواتر بين المسلمين، والمنقول في كثير من المصادر المعتبرة.

(٧) ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين: ٦٥- ٦٦.

(٨) الوحدة الإسلاميّة: ٢.

(٩) شذرات الذهب ٦: ٢١٣.

(١٠) وفيّات الأعيان ١: ٣٠١.

(١١) مرآة الجنان ٤: ٢٤.

(١٢) الدين الخالص ٣: ٣٥٥.

(١٣) شذرات الذهب ٥: ٢٦٧.

(١٤) طبقات الشافعيّة ٣: ٢٢.

(١٥) الكشّاف ٢: ٤٩٨.

مصير الشعب السعودي

د.محمد عبد الكريم (*)

إنَّ الكيان الحالي هو كيان صوري، كيان شكليّ وليس كياناً حقيقياً،ولو كان حقيقياً فلن يجرؤ خصم قريب أو بعيد على تهديده أو استغلال التفاوت الطبقي والطائفي والقبلي فيه، لو كان حقيقياً لوثق الشعب به في تمتينه وتقويته، لو كان حقيقياً لوثقت به الدولة قبل الشعب، في حماية أزماتها الخارجية، والتعويل عليه في مشاركته السياسية وتفعيله في كلّ أجهزة الدولة بالمساواة بين مناطقه وأفراده..

أعيدوا الاعتبار للشعب، بالمساواة بينه، وبقوامته الحقيقية على الدولة، وبشورى حقيقية، لشعب حقيقي وليس شعباً صورياً في توحيد صوري شكلي، قابل للتفكك لمجرد اختلافات داخلية داخل النظام.

هل بقاء المملكة موحدة في كيان واحد مرتهن بوجود العائلة؟

لنعد السؤال بصورة أوضح:

لو سقطت العائلة الحاكمة بعوامل داخلية (صراع بين العائلة)، أو بعوامل خارجية، فهل سيبقى مصير الوحدة ومصير الشعب معلقاً بالصراعات

(*) أستاذ أُصول الفقه في جامعة محمد بن سعود الإسلامية.

الداخلية والخارجية وبوجود العائلة أو ذهابها؟

كيف نضمن وطناً موحّداً بعيداً عن الصراعات، بعيداً عن هيئة البيعة واتفاقها أو اختلافها على من سيحكم؟

كيف نضمن سلامة الشعب من التفكك والانهيار؟

ولماذا نخشى من انهيار النظام السياسي على تفتّت الشعب؟

ولِمَ يضع الشعب يده على قلبه خوفاً من صراع محتمل بين العائلة الحاكمة أو بين صراعات دولية قد تختار ضحية لصراعاتها بالاتفاق على تقسيم المنطقة؛ لتضمن نموّها الاقتصادي وتدفّق النفط الخليجي؟

ليست هذه مشكلة المملكة وحدها.

هي مشكلة كل دول الخليج، وكل دول المنطقة...

إذا كان الشعب السعودي في السابق قد سمح لمصيره أن يبقى معلّقاً بوجود النظام إذا وجد!!!

وسمح لنفسه أن يتشعّب إذا انقسم النظام، أو يتوحّد إذا توحد النظام!!!

فالوعي الشعبي المتنامي يجب أن يكون له استحقاقات، ومن أهمّ استحقاقاته:

أن يخلق الفرص لاستقراره، وأن يضمن سلامته، وُجِد النظام السياسي الحالي أو لم يوجد؟!

نقولها بكلّ صدق، وخوفاً على بلادنا الغالية:

الدولة لم تفعل ما يجب لتحمي نفسها والشعب من عوامل التفكك والانهيار؟

بعض رجال الدولة ورجال الأعمال ـ للأسف الشديد ـ يلاحقون الصفقات وجمع الأموال واقتطاع الأراضي... ويبحثون عن ضمان لمستقبلهم ومستقبل عوائلهم وأبنائهم، ويتجاهلون الأنظمة التي تحاسبهم وتراقبهم، وكأنّهم

يدركون مصير الدولة!

بعض رجال الدولة يبحثون عن نظام يحفظ مصالحهم الخاصة، وقد وجدوا مصلحتهم في الاستبداد والتفرّد والجشع والطمع والتلاعب والرشوة والتحايل وتنفيذ العقوبات على الضعيف... وترك مصير البلاد للمجهول، بل والتصدي لكلّ الإصلاحات التي تؤثّر على المصالح الخاصة.

من كان صادقاً في استقرار دولته وحماية مملكته، فليحفظها ببناء أجهزة رقابة ومحاسبة تحاسب الجميع، وتبدأ بمراقبة رجال الدولة قبل الشعب وتقتص منهم.

الشعب لا يبحث إلا عن حكم راشد تتحقق فيه المساواة والمشاركة السياسية، وقسمة عادلة في الحقوق والواجبات، ومسارعة في حفظ المال العام بدل نهبه وتبذيره. هذه ضمانات كافية لاستقرار الدولة والشعب، وطموحات متواضعة لشعب ملّ التملّق ليتكسب به بعض حقوقه.

فإنْ لمْ تَقُم الدولة بواجباتها السياسية والمدنية، فلا يجوز للأُمّة انتظار صلاح الحكومة لتصلح الحقوق والواجبات الدينية والدنيوية...

بل واجبها الشرعي والديني والأخلاقي.. يوجب عليها محاسبة الدولة ونهيها عن منكرها، ولو كلّفها بعض التضحيات، وإلا فهي معرّضة للسقوط والتفتت، وسيكون الشعب أكبر المتضررين من القسمة والانقسام.

الأُمّة مكلّفة شرعاً بالاحتساب السياسي والأخلاقي والمالي والإداري...، وعليها ألا تنتظر عالماً ضعيفاً يقوم بالواجب الشرعي، فضعفه عطّل حكم الشريعة في باب السياسية والحكم والفساد؛ ليعوّضه في باب الأحوال الشخصية!

عليها ألّا تراهن على داعية يرهب سوط الحاكم، أو عمّن يبحث عن ردود جامعة وصواعق مرسلة على خصومه!

عليها أن تُسدِل الستار وألّا تثق بالأسماء المتخاذلة المنشغلة بالحوارات الكلامية والسجالات الباحثة عن بطولات ورقية وليس في رصيدها سوى بضعة كلمات منمقات منتهية للاصطفاف، وتكثير الأتباع!

الأُمة والشعب السعودي لن تفقد الأمل...

هي بشبابها، والصادقين الأخيار فيها، والصحوة السياسية المتنامية لديها، مؤهلة للقيام بالتكليف الشرعي. ولا يضيرها سكوت عامة العلماء والدعاة، أو بحثهم عن مخارج وتأويلات شرعية، ثمّ أمر الناس بالتزام ما التزمه العلماء، ثم اعتبار مسلكهم هو الطريق الحق ومنهج الصواب!! وليبقى الوضع السياسي بدون إصلاح أو تغيير إلا إنْ شاءت السلطة، فإنْ لم تشأ فلا يوجد دورٌ حقيقيٌّ للتغيير.

حماية وحدة المملكة ووحدة الخليج ووحدة كل المنطقة، يجب أن تكون مواضيع الساعة.

والأيام القادمة تخفي في داخلها تفتيتاً وتقسيماً للعالم العربي والإسلامي، ونحن لسنا استثناء في الكرة الأرضية!

يجب ألا تبقى مسألة تفكك الدولة ـ إمّا بسبب صراعات بين العائلة الحاكمة أو بعوامل خارجية ـ طي الكتمان أو من المحظورات السياسية التي لا تناقش إلا في دوائر ذوي المصالح الخاصة؟

يجب ألا يرضى الشعب أن يكون مصيره معلقاً باتّفاق هيئة البيعة على حاكم؟

فماذا لو لم يتفقوا؟ وماذا لو حدث صراع عائلي مسلّح؟ هل تكون مهمتنا الاصطفاف مع أحد الأجنحة؟ ثمّ لماذا لا تدخل هيئة البيعة الشعب في اختيار الحاكم؟ هل الشعب مجموعة قطيع ينتظر من يرعاه، ويعطيه الراتب آخر الشهر؟

ما هذه البيعة التي نبايع فيها حاكماً اختاره غيرنا؟!

كيف يرتضي العلماء بيعة من دون اختيار؟!

وكيف يجعلونها بيعة (شرعية) وهي صورية؟!

كيف يصححونها شرعاً وهي إكراه وإجبار ؟!

ثمّ لو تجاوزنا كلّ هذه الأسئلة، ووجد لها بعض المحافظين مخارج شرعية كالعادة:

ماذا لو اتفقوا وانعكست عوامل الصراع الخارجية على الدولة؟

أيهما أبقى للدولة وأحفظ لها وأقوى لكيانها وشعبها من تفتيتها إلى دويلات كما يحصل في العراق والسودان واليمن...

أن يبقى مصيرها معلّقاً على تصالح أجنحة الحكم، وهدوء الصراعات الدولية أم في مشاركة حقيقية للشعب في إدارة الدولة؟! أيهما أصلح للعباد والبلاد أن تكون الدولة دولة الجميع يحميها الجميع؛ لأنها دولتهم، وهي جزء منهم وهم جزء منها، يخافها الخارج؛ لأنّها دولة حقيقية، متصالحة موحدة توحيداً حقيقياً، للجميع نصيب في إدارتها، والجميع يعي مسؤولية توحيدها في كيان موحد؟!!

أم تبقى الدولة دولة أفراد، ومؤسسات أفراد، كلّ فرد في العائلة يستولي على مؤسسة، يبنيها بسواعد الشعب؛ ليحمي مملكته الخاصة!!

نحن حتى هذه اللحظة لا نشعر بأنّ الدولة جزء منا أو من ذواتنا، ولا نشعر بالخطر الداخلي والخارجي الذي يهدّد كيانها أو وحدتها؛ لأنّنا مسيّرون فيها، لا نختار فيها حتى رؤساء الأقسام في القطاعات الحكومية!

لدينا الانفصال الشعوري، تولّد عنه انفصال حسّي، جعلنا نبحث فقط عن مأكل ومشرب وملبس ومسكن وسرير في مستشفى حكومي تابع لحكومة داخل الحكومة!

لدينا جفاء، وتسكن قلوبنا الجفوة، لكن لا يحقّ لأحد أن يلوم جفوتنا تجاه السلطة الحاكمة، فهي سلطة مهمومة بمعيشتها، وضمان مصيرها وسيادتها، ونعلم أنَّ كلّ المدح والثناء الذي تناله الحكومة إنما تناله بالنفاق السياسي، ويفعله المواطن بمقابل مادي أو وسيلة للبحث عن منصب!! فليس بيننا وبين دولتنا مواطنة واقعية، بل ربما لدينا من لديه الاستعداد ليبيع الوطن، ويبحث عن وطن آخر يجعله في حياة كريمة.

الدولة لا تثق بنا، ونحن نمدّ يدنا في كثير من الأحيان لنقف معها بالمجان بدون مقابل وقفة صادقة حقيقية، ولكنّها تبحث عن حمايتها من الخارج، وتعقد صفقات الأسلحة بربع ترليون ريال سعودي من مالنا ومن نفطنا بدون مشورتنا. وتخرس ألسنتنا لو طالبناها بمشورتنا!

فلأجل مصلحتنا أوّلاً، ومصلحة الدولة ثانياً، وقبل أن تضطر الدولة تحت ضغط المصالح الدولية التي تعيد تشكيل المنطقة من جديد مع ترهّل الأنظمة الحاكمة، نقولها بكلّ أمانة وصدق وإخلاص وحبّ لبقائنا في كيان موحد:

إنَّ الكيان الحالي هو كيان صوري، كيان شكلي، وليس كياناً حقيقياً، ولو كان حقيقياً فلن يجرؤ خصم قريب أو بعيد على تهديده أو استغلال التفاوت الطبقي والطائفي والقبلي فيه، لو كان حقيقياً، لوثق الشعب به في تمتينه وتقويته، لو كان حقيقياً لوثقت به الدولة قبل الشعب، في حماية أزماتها الخارجية، والتعويل عليه في مشاركته السياسية وتفعيله في كلّ أجهزة الدولة بالمساواة بين مناطقه وأفراده.

أعيدوا الاعتبار للشعب، بالمساواة بينه، وبقوامته الحقيقية على الدولة، وبشورى حقيقية لشعب حقيقي، وليس شعباً صورياً في توحيد صوري شكلي، قابل للتفكّك لمجرد اختلافات داخلية داخل النظام.

* * *

الكيان الصهيونيّ

والإرهاب العلميّ

أ. أحمد بابكر عبد الرحمن (*)

يمتاز جهاز الموساد الإسرائيليّ بسمةٍ بارزة، وهي سمة الإقدام بشكلٍ متكرّر وكبير على اغتيال وتصفية العلماء الأجانب.

ولكن، وللأسف الشديد، فإنّ هذه السمة لا يتمّ التركيز عليها والكشف عنها في وسائل الإعلام المرتبطة ـ بشكلٍ أو بآخر ـ بهذا الجهاز التجسّسيّ والإرهابيّ إلّا نادراً جدّاً..

بل الأنكى من ذلك، أنّنا في كثيرٍ من الأحيان نلحظ غياباً تامّاً لهذه السمة وانعداماً شبه كاملٍ للإدراك والوعي بها في الرأي العامّ العالميّ، بل حتى عند بعض الأوساط والتيّارات والجماعات في بلداننا الإسلاميّة والعربيّة.

يعتبر جهاز الموساد وظيفته الرئيسيّة متمثّلةً في مواجهة كلّ ما من شأنه أن يشكّل خطراً على أمن واستقلال الدولة الصهيونيّة الغاصبة، ما يضع ـ بالتالي ـ كلّ القائمين على رعاية مسار التنمية والتطوّر العلميّين في الدول الإسلاميّة في

(*) إعلامي سوداني.

ضمن الصفوف الأُولى لأعداء (إسرائيل)، كما أنّه يجعل كلّ الأشخاص أو المؤسّسات التي تمدّ يد العون في هذا المسار للدول الإسلاميّة، بأيّ شكلٍ من أشكال العون والدعم، يجعلهم في ضمن رزمة الأهداف الأساسيّة والأوّليّة لهجمات هذه المنظّمة واعتداءاتها الهمجيّة والوحشيّة.

مصر أولى ضحايا الإرهاب الموساديّ

مصر ـ بلا شكٍّ ـ هي أُولى ضحايا الإرهاب العلميّ لـ (إسرائيل) وأجهزتها الاستخباراتيّة التخريبيّة، حيث أقدمت الأخيرة في ستّينيّات القرن الماضي على اغتيال عالمٍ ألمانيّ يُدعى (هينز كرخ)، وآخر مصريّ يُدعى (حلوان)، كان هذان العالمان يعملان على إعداد مشروع صاروخيّ في مصر يهدف إلى تعزيز القدرات الدفاعيّة لهذا البلد.

جاء ذلك بعد إدراك الموساد مدى تطوّر هذا المشروع وتقدّمه، وبالتالي: مستوى خطورته المحتملة على (إسرائيل) في أيّة حربٍ يمكن أن تنشب لاحقاً بينها وبين العرب أو المسلمين.

ومن هنا، فقد استنفدت جميع طاقاتها في محاولات تعطيل هذا المشروع والحؤول دون تقدّمه، وقد تمكّنت من ذلك بالفعل عن طريق هذا القتل والاغتيال الذي استطاع أن يبثّ أجواء الرعب والهلع بين العلماء الألمان الذين كانوا قيّمين على هذا المشروع.

العراق.. وتأمين البوّابة الشرقيّة

في السنوات اللّاحقة التي تلت ذلك، وبالتحديد في الثمانينيّات، حينما كان العراق ـ وهو الذي لطالما كان يمثّل بالنسبة للإسرائيليّين: بوّابة حدودهم الشرقيّة ـ يعمل على توسعة مشروع المفاعل النوويّ التجريبيّ المسمّى:

(أوزيراك)، ويضغط في سبيل أن تكون له القدرة على أن يوفّر له بضعة كيلوغرامات من البلوتونيوم شهريّاً، تحرّكت خلايا الموساد من جديد لتحول دون قيام وبروز خطر تقنيّ آخر يهدّدها في ما تزعم أنّه البوابة الشرقيّة لها.

ولعلّ الخطوة الأولى التي قامت بها في هذا السبيل، كانت عبارةً عن اغتيال العالم النوويّ من أصل مصري (يحيى المشاد)، الأستاذ بجامعة الإسكندريّة في باريس، والذي كان يعمل على تنشيط وتفعيل البرنامج النوويّ لهذا البلد (العراق).

ومع أنّ هذه العمليّة ـ إضافةً إلى عمليّة أُخرى حدثت في أحد الموانئ الفرنسيّة وكانت تهدف إلى تدمير خلايا الوقود النوويّ في ذلك المفاعل ـ قد فشلت في إقناع العراقيّين بالوقف التامّ والنهائيّ لهذا المشروع، إلّا أنّ قصف سلاح الجوّ الإسرائيليّ لهذا المفاعل في عمليّة (أوبرا) استطاع أن يخنق ـ وللأبد ـ كلّ الطموحات والآمال العراقيّة بالوصول إلى امتلاك الطاقة الذرّيّة.

من ناحيةٍ أُخرى، وبعد الاحتلال العسكريّ للعراق عام ٢٠٠٣ بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكيّة، بدأت حملة اغتيالات واسعة النطاق استهدفت عدداً كبيراً من العلماء العراقيّين على أيدي الجماعات الإرهابيّة، مع دورٍ واضح وبصماتٍ لائحة لجهاز الاستخبارات الإسرائيليّ (الموساد)، الذي كان فاعلاً ونشطاً بقوّة في منطقة كردستان العراق، ومنذ فترةٍ طويلةٍ سبقت تاريخ هذا الاحتلال.

تهديدات عمرها ١٥ عاماً

لم تكن هذه التهديدات التي يوجّهها الكيان الصهيونيّ للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة بشأن رغبتها في امتلاك تكنولوجيا الطاقة النووية أمراً جديداً ومستحدثاً، ففي العام ١٩٩٦م، لم يتوانَ (أرييل شارون) ـ رئيس

الوزراء الصهيونيّ الأسبق ـ عن التوجّه بتهديدٍ واضحٍ وصريح إلى إيران، مفاده: أنّه إذا ما أقدمت إيران على المباشرة بعمليّة تخصيب اليورانيوم، فإنّ (إسرائيل) ستعمد على الفور إلى قصف كلّ منشآت التخصيب النوويّ على الأراضي الإيرانيّة.

وعقيب ضجّة واسعةٍ افتعلتها وسائل الإعلام الغربيّة حول المنشآت النوويّة الإيرانيّة ـ وبالأخصّ منشأة التخصيب في مفاعل (نطنز) النوويّ ـ أخذت وتيرة التهديدات الإسرائيليّة بقصف إيران على خلفيّة ملفّها النوويّ بالتصاعد والارتفاع وبشكلٍ ملحوظ وتدريجيّ، حتى وصلت إلى حدّ أن تنشر وسائل الإعلام تواريخ مختلفة لعمليّات القصف المزعومة تلك.

ولكن مع ذلك، وبسبب خوفها، بل ذعرها، من ردود الفعل القاسية التي يُتوقّع أن تقوم بها الجمهوريّة الإسلاميّة وحلفاؤها في المنطقة، وبخاصّة: حركة حماس وحزب الله، فإنّ (اسرائيل) لذلك لم تجرؤ منذ ذلك اليوم على القيام بأيّ عمل عدائيٍّ ضدّ الجمهوريّة الإسلاميّة يستهدف شيئاً من منشآتها النوويّة.

داغان يطلق حرباً سرّيّة ضدّ الجمهوريّة الإسلاميّة

إلّا أنّ هذا الخوف والذعر، وبطبيعة الحال، لم يكن بحيث يضع حدّاً نهائيّاً لمؤامرات الكيان الصهيونيّ ومخطّطاته الإجراميّة، بل بالعكس، فقد كان ذلك داعياً لتحرّك الأجهزة الاستخباراتيّة لهذا الكيان الغاصب لتبدأ حرباً شعواء ضدّ البرنامج النوويّ الإيرانيّ، ولكنّها حرب يمكن لنا أن نصنّفها في خانة (الحرب السرّيّة) الأمنيّة الخفيّة وغير المعلنة.

ولعلّ المخترع والمبدع لمثل هذا الأسلوب في استهداف البرنامج النوويّ الإيرانيّ هو (مائير داغان) رئيس الموساد السابق.

داغان الذي كان يدرك تماماً محدوديّة الخيارات أمام الدولة العبريّة فيما يتعلّق

بمهاجمة إيران، صبّ كلّ جهوده في محاولة توجيه ضرباتٍ موضعيّة وجزئيّة إلى البرنامج النوويّ الايرانيّ، وبشكلٍ مستمرّ ومتلاحق، على أمل أن يحدّ ذلك من التقدّم الإيرانيّ في مجال الطاقة النوويّة والذرّيّة.

وأكثر ما تجلّت هذه المحاولات في أمرين اثنين:

١) شنّ هجمات قرصنةٍ الكترونيّة منظّمةٍ استهدفت الأمن المعلوماتيّ المرتبط بالملفّ النوويّ الإيرانيّ.

٢) الإقدام على اغتيال أهمّ وأبرز العلماء الإيرانيّين الفاعلين في الشأن النوويّ.

ومع أنّ بعض المراقبين يشكّكون في قدرة تلك الهجمات المعلوماتيّة والأمنيّة على أن تترك آثاراً واضحة وقطعيّة على مسار التطوّر والتقدّم الذي يشهده الملفّ النوويّ الإيرانيّ، غير أنّهم لا يتردّدون أصلاً بشأن خطورة العواقب والتداعيات الأمنيّة والإعلاميّة التي تتركها عمليّات اغتيال العلماء الايرانيّين، والتي قد تفوق بمراتب كثيرة آثار وتداعيات هجمات القرصنة الكمبيوتريّة.

العبوات المغناطيسيّة اللاصقة تصطاد فرائسها

في خريف العام ٢٠٠٩، هزّ انفجار هائل منطقة (قيطرية) في العاصمة الإيرانيّة (طهران)، وتحدّثت وسائل الإعلام عن أنّ هذا الانفجار أودى بحياة أستاذ جامعيّ تبيّن لاحقاً أنّه أحد أساتذة مادّة الفيزياء بجامعة طهران، وشغل منصب ممثّل الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة في مشروع المسارع الضوئيّ (سيسامي) للشرق الأوسط ـ والذي كانت فعاليّاته قد انطلقت في الأردن ـ وكان له دور مهمّ في إنجاح هذا المشروع، قبل أن يتسلّل إلى هذا المشروع لاحقاً بعض العلماء الصهاينة الذين دخلوا هذا المشروع بنيّةٍ تجسّسيّة واستخباريّة واضحة، واتّخذوا منه مصدراً ومنبعاً وفيراً لجمع المعلومات في شتّى الاتّجاهات،

وبالأخصّ: المعلومات التي تخصّ علماء الذرّة الإيرانيّين.

غير أنّ عمليّات الاغتيال التي طالت علماء إيران النوويّين لم تقتصر فقط على هؤلاء الأشخاص ممّن شاركوا في ذلك المشروع، ففي العام ٢٠١٠ طالت يد الاغتيالات الأثيمة اثنين آخرين من العلماء النوويّين الإيرانيّين، هما: (مسعود علي محمّدي)، الذي كان قد ترأّس لجنة التدقيق فيما يتعلّق برموز الذرّة والموادّ النوويّة، و(فريدون عباسي) المتخصّص بتخصيب وفصل النظائر المشعّة في مجال الطاقة النوويّة؟ وقد أسفرت محاولات الاغتيال هذه عن استشهاد الأوّل وإصابة الثاني بجروح.

ثمّ في العام ٢٠١١ تواصلت سلسلة الهجمات والعمليّات الإرهابيّة ضدّ العلماء الإيرانيّين، مستخدمةً في ذلك قنابل مغناطيسيّة لاصقة، ما أدّى إلى استشهاد كلٍّ من (داريوش رضائي نژاد) أحد الخبراء بجامعة (مالك الأشتر)، و(مصطفى أحمدي روشن) المستشار التجاريّ في موقع (نطنز) لتخصيب اليورانيوم، ما يطرح هنا تساؤلاً مهمّاً ومشروعاً، وهو أنّه ما هي الخلايا والمنظّمات والجماعات الرئيسيّة التي تتولّى بشكلٍ مباشر مهمّة تنفيذ أمثال هذه العمليّات الإرهابيّة؟

ساورز يلخّص سرّ هذه الحملات الإرهابيّة

الشيء الواضح الذي يبدو من خلال مطالعة وتحليل هذه الاغتيالات هو أنّ جهاز الاستخبارات الصهيونيّ (الموساد) ليس هو الجهاز الوحيد الذي يقف وراء تدبيرها وتنفيذها. كما أكّدت على ذلك تصريحات رئيس مركز الاستخبارات التابعة للخارجيّة البريطانيّة (جون ساورز) في جمع من المحرّرين والإعلاميّين الإنكليز، والذي شدّد على ضرورة اعتماد طرقٍ (غير اعتياديّة) في مواجهة البرنامج النوويّ الإيرانيّ، وقد لوحظ ـ بالفعل ـ بدء سلسلةٍ جديدة

من الهجمات وعمليّات الاغتيال التي استهدفت العلماء النوويّين في إيران بفترةٍ قصيرةٍ بعد هذه التصريحات.

وهذا ـ بدوره ـ ما يفتح الباب أمام طرح سؤالٍ آخر، وهو أنّه: ما هو الدور الحقيقيّ الذي تلعبه كلّ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة والمملكة المتّحدة البريطانيّة في الإعداد أو التخطيط أو التمويل أو الإشراف على هذه الاعتداءات والاغتيالات؟

أمريكا بين الرضا بما حصل والبراءة من الاتّهام

في كانون الثاني ـ يناير من العام ٢٠١٢، وعقيب اغتيال الشهيد (مصطفى أحمدي روشن)، نشرت مجلّة (فورين بوليسي) الأمريكيّة (Foreign policy) مقالاً تحدّثت فيه عن انتقادات شديدة اللّهجة موجّهة من قبل ضبّاطٍ وعناصر في جهاز الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة (السي آي إيه) (C.I.A.) إلى رفاقهم ونظرائهم من عناصر جهاز (الموساد)، على خلفيّة إقدام هؤلاء في العاصمة الإنجليزيّة (لندن) على تجنيد مجموعات وعناصر تنتمي إلى بعض المنظّمات الإرهابيّة، وبالتحديد: منظّمة (جند الله)، لتنفيذ هجمات ضدّ علماء نوويّين إيرانيّين، ولا سيّما أنّ ذلك جاء بعد أن كان عناصر الموساد قد تقمّصوا هويّة عناصر في الاستخبارات المركزيّة الأمريكيّة، وقدّموا أنفسهم على أنّهم عناصر يعملون في جهاز (السي آي إيه) الأمريكيّ.

كما كشف هذا المقال ـ والذي تلوح منه بشكلٍ واضح وجليّ أنفاس المعاداة للتحرّكات والنشاطات الصهيونيّة ـ عن أنّ عناصر هذا الجهاز (السي آي إيه) باتوا يرون حتى في جهاز الموساد عدوّاً لهم ـ بشكلٍ أو بآخر ـ ولو من باب أنّ أعمال هذا الجهاز باتت تحرجهم أو تضرّ بمصالحهم.

ويتابع المقال نفسه ـ والذي يحاول إلى حدٍّ كبير أن يبرز براءة الولايات المتّحدة من تهمة الاضطلاع بأيّ دورٍ أساسيّ في عمليّات الاغتيال النوويّ الإيرانيّ ـ فيؤكّد على صحّة الأنباء بشأن وجود دور واضح ومفضوح تضطلع به بريطانيا وجهاز استخباراتها الخارجيّ في هذه العمليّات، بالتعاون والتنسيق التامّ مع الموساد، ولا سيّما أنّ جهاز الموساد في لندن يعتبر ناشطاً جدّاً على مستوى اجتذاب عناصر ومجموعات المتمرّدين البلوش، وباطّلاع تامّ من جهاز الـ (M.I.٦) (جهاز المخابرات الخارجيّة البريطانيّة)، ومن دون تنسيقٍ أصلاً مع المؤسّسات الأمنيّة والداخليّة في البلاد.

كما أنّ الاعترافات التي أدلى بها (جمالي وش) ـ الذي نفّذ أولى عمليّات الإرهاب والاغتيال النوويّ في إيران ـ أوضحت، وبما لا يدع مجالاً للشكّ، وجود دورٍ كبير لعناصر في منظّمات تجسّسيّة بريطانيّة في استقطابه وتجنيده، ليُصار إلى تدريبه لاحقاً في (إسرائيل).

وبالطبع، لم يكن هذا المقال هو المقال الوحيد الذي تحدّث عن اغتيال العلماء النوويّين الإيرانيّين، بل نشرت وسائل الإعلام المختلفة مقالاتٍ عديدة تتحدّث عن تعاون إقليميّ يُديره جهاز الموساد الإسرائيليّ ويهدف إلى استقطاب عناصر ومجموعاتٍ من مختلف قوّات المعارضة التي تُبدي ليونةً ومرونةً واستعداداً للانفتاح على الكيان الصهيونيّ، من قبيل: حزب الحياة الحرّة الكردستانيّ (PJAK)، ومنظّمة جند الله، ومنظّمة منافقي خلق.

ويؤكّد تقرير نشرته شبكة (M.S.N.B.C) الأمريكيّة نقلاً عن مسؤولين أمريكيّين أنّ عناصر في منظّمة (منافقي خلق) ـ والتي تصنّفها واشنطن نفسها على أنّها منظّمة إرهابيّة ـ يتمّ إعدادهم لاستهداف علماء نوويّين إيرانيّين،

بتمويل ودعم ماليّ أمريكيّ، وتدريب وتسليح من الاستخبارات الإسرائيليّة، وهو ما كانت أكّدت عليه السلطات الإيرانيّة مراراً وتكراراً.

أمريكا وحرب الظلال ضدّ البرنامج النوويّ الإيرانيّ

ويبقى هنا نقطة لا بدّ من تسليط الضوء عليها، وهي أنّنا نلاحظ أنّ وسائل الإعلام المختلفة لا زالت لحدّ الآن غافلةً أو متغافلةً عن الدور الأمريكيّ في هذه الاغتيالات، فهل يمكن أن يكون هذا مؤشّراً على تبرئة الإدارة الأمريكيّة ونفي تورّطها في عمليّات إرهابيّة من هذا القبيل؟!

بالتأكيد لا..

فقد أكّدت مصادر مطّلعة، وفي مقالات مختلفة، على أنّ الإدارة الأمريكيّة ـ بشخص رئيسها (باراك أوباما) ـ هي على اطّلاع تامّ بهذه العمليّات الإرهابيّة التي يقودها الكيان الصهيونيّ، ومعه بريطانيا، لغرض تدمير وتخريب وتعطيل البرنامج النوويّ الإيرانيّ، وإيجاد الموانع والعقبات والمعوّقات التي تحول دون تقدّمه واستمراره.

ومع أنّ من الواضح أنّ الإدارة الأمريكيّة تبذل كلّ جهدها في سبيل تبرئة نفسها من تهمة التدخّل المباشر في هذه العمليّات، ولكنّها لم تتمكّن ـ أبداً ـ من إخفاء رضاها وسعادتها بهذه العمليّات، وارتياحها لنتائجها.

ولعل تسرّب أمثال هذه المقالات دليل واضح على فساد النغمة التي تعزفها كلّ من الولايات المتّحدة الأمريكيّة وبريطانيا في حربها السرّيّة التي يقودانها ويخوضانها ضدّ البرنامج النوويّ الإيرانيّ، تلك الحرب التي باتت تُعرف عند الخبراء والمختصّين باسم (حرب الظلال).

* * *

قسيمة الاشتراك

رسالة الثقلين

مجلة اسلامية جامعة

البلد الاشتراك

الإرسال السنوي / لمدة ٦ أشهر

□ الجمهورية الإسلامية في إيران

(بالريال) ٦٠٠٠٠ ٣٠٠٠٠

□ باقي دول العالم بالدولار الأمريكي

٢٠ ١٠ (أو ما يعادلها)

الاسم : .....

العنوان : .....

.....

المدينة : .....

البلد : .....

المهنة : .....

مدة الاشتراك : .....

ابتداءً من : .....

.....

عدد النسخ : .....

برافق اشتراكي: □صك □صك بريدي □حوالة بريدية

أرسل هذه القسيمة مع قيمة الإشتراك باسم «رسالة الثقلين» إلى العنوان التالي:

الجمهورية الإسلامية في إيران. قم. ص . ب ٨٩٤ ـ ٣٧١٨٥

.....

الاشتراكات:

▣ **داخل الجمهورية الإسلامية في إيران: تسدّد قيمة الاشتراك السنوي (٦٠٠٠٠ ريال) بحوالة مصرفية على العنوان التالي:**

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم ـ بانك تجارت / شعبة سميّة، شارع سميّة ـ رقم الحساب الجاري: ٤٦٣٥٤ ـ ١٥١٢٠ (بالريال)، المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

▣ **خارج الجمهورية الإسلامية في إيران: قم ـ بانك ملي (شعبه مركزي قم) رقم الحساب: ٢٠٠٦٥ ـ ٢٧٠١ (بالدولار).**

ثمن النسخة:

▣ **الجمهورية الإسلامية في إيران ١٥٠٠٠ ريال.**

▣ **وفي باقي دول العالم 5 دولارات أمريكية أو ما يعادلها**

The ahl – ul Bayt (a)
World Assembly

RISALATUTH - THAQALAYN

A General Islamic Periodical

Vol . 19, No . 73, Spring 2012